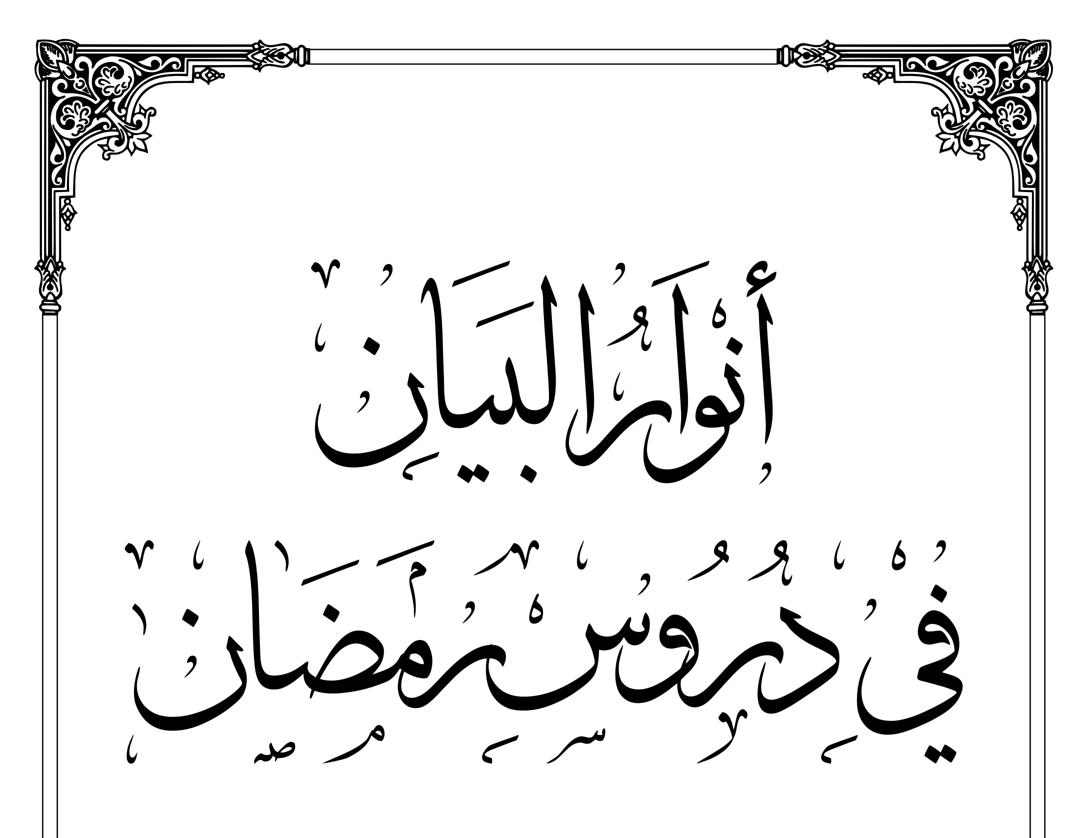


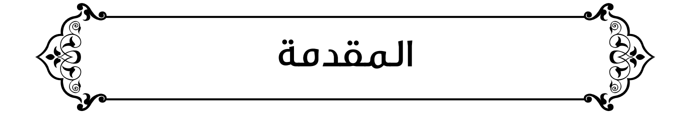
تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان

الطبعة الثالثة – ١٤٣٣ هـ


بسم الله الرحمن الرحيم
الكنوز
الكنوز جرافيكس
alkenozgraphics@gmail.com
Instagram:@alkenozgraphics
(+965) 55235735



المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

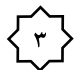
فشـهر رمضان موسـم طاعة تجتمع فيه أنواع من العبادات والطاعات لا تكاد تجتمع في غيره من مواسـم السنة: صيام، واجتماع على القيام، تلاوة قرآن، اعتكاف، زكاة فطر، زكاة مال، عمرة فيه تعدل حجة، وليلة القدر فيه خير من ألف شهر مما سواه مما ليس فيه ليلة القدر.

ابتداء نزول القرآن كان في شـهر رمضان، القيام جماعة كان في رمضان بالقـرآن، معارضـة جبريل القرآن للنبـي ﷺ كان في رمضـان، فخصوصية القرآن بشهر رمضان واضحة جداً.

شـهر رمضان شـهر الصبر، ففيـه صبر على الجـوع والعطش وصبر عن الشهوات، وصبر على أقدار الله، وصبر لقيام وصيام أيام الشهر كله.

شـهر رمضان شـهر جهاد، يجاهـد فيه العبد نفسـه وهـواه، ووقعت فيه وقائع جهادية كبيرة كانت حاسـمة في ظهور الإسـلام وسـيادته وانتشـاره كغزوة بدر، وفتح مكة.

شهر رمضان فيه تكفير السيئات، وفيه تضييق مجاري الدم على الشيطان، فيكفّ العبد نفسه عن فضول الطعام والكلام والنظر والنوم، فتعتدل أحواله، ويخبت قلبه وتنبعث جوارحه إلى طاعة الله.



شـهر رمضـان ترتاض فيـه النفوس علـى بذل الندى وكـفّ الأذى، ولـزوم العبـادات، وتلـك هي التقوى التـي هي المقصـود الأعظم من الصيـام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ [البقـرة: ١٨٣]، مـن أجـل هـذا نتـدارس جميعـاً دروس رمضـان وهـي أكثر مما ذكرت، لكن حسـبي أن أشـير إلى أمهاتها.

والله الموفق.

❊ ❊ ❊




الدرس الأول
صام وأمر الناس بصيامه

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: تراءى الناس الهلال، فأخبرت النبي ﷺ أني رأيته، فصام، وأمر الناس بصيامه، رواه أبو داود وصححه ابن حبان، وقال النووي: على شرط مسلم.

هذا الحديث فيه دليل على حجية خبر الآحاد في أركان الإسلام، وهو كذلك حجة في مسائل الشريعة كلها، عقائدها وأحكامها وعباداتها ومعاملاتها وأخلاقها، فإن الله عز وجل بعث محمداً وحده ﷺ وجعله حجة على خلقه، وبعث النبي ﷺ آحاد أصحابه لتبليغ شرع الله، كما بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن.

وحكى ابن عبدالبر(١) والباجي(٢) إجماع الصحابة على قبول خبر الواحد، وقال الخطيب البغدادي رحمه الله(٣): «وعلى العمل بخبر الواحد كان كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء الخالفين في سائر أمصار المسلمين إلى وقتنا هذا».

(١) التمهيد (٨/ ٣٧٠ - ٣٧١).
(٢) إحكام الفصول ص٣٣٤.
(٣) الكفاية في معرفة أصول الرواية (١/ ١٢٩).



وقال الحافظ النووي رحمه الله[1]: «أجمع من يعتد به على الاحتجاج بخبر الواحد ووجوب العمل به».

والأمة مجمعة على تلقي أحاديث الصحيحين بالقبول، والصحيحان مليئان بأخبار الآحاد في العقيدة والأحكام وغيره، بل إن البخاري عقد في صحيحه كتابا خاصا لحجية خبر الآحاد.

قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله[2]: «وكلهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادي ويوالي عليها».

وحديث ابن عمر رضي الله عنهما دال على ثبوت دخول الشهر بالرؤية، وأما إثبات دخول الشهر بالحساب وحده، فهو محرم لوجوه:

١ - إجماع المسلمين على عدم اعتباره، ولا يعرف فيه خلال قديم، ولا خلاف حديث، إلا أن بعض المتأخرين من المتفقهة الحادثين بعد المائة الثالثة زعم أنه إذا غم الهلال جاز للحاسب أن يعمل في حق نفسه بالحساب[3].

٢ - اجتماع الشمس والقمر الذي هو تحاذيهما الكائن قبل الهلال أمر خفي لا يعرف إلا بحساب يتفرد به بعض الناس، وربما وقع فيه الغلط والاختلاف[4].

(١) شرح صحيح مسلم (١٤/ ١٣١).
(٢) التمهيد (١/ ٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٥/ ١٣٢ - ١٣٣).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٥/ ١٣٧).




٣ - الصوم عبادة، والأصل في العبادات التوقيف، وهذا علم لم يكن يجهله أهله في زمان النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾[يس: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴿٥﴾ ﴾[يونس: ٥]، ولم يعوّل عليه ﷺ أو أصحابه، فلا يجوز أن يعوّل عليه.

٤ - صيانة عقائد الناس عن شرك النجوم، قال أبو بكر ابن العربي رحمه الله في سبب عدم التعويل على الحساب في دخول الأهلة(١): «صيانة لعقائد الناس أن تناط بالعلويات، وأن تعلق بالعلويات، وأن تعلق عباداتها بتداور الأفلاك ومواقعها في الاجتماع والاستقبال».

٥ - لا يجوز تعطيل الواضح وهو الرؤية الذي يعرفه عامة المسلمين والتعويل على الغامض الذي لا يعرفه إلا الخاصة، ويقع فيه الغلط، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢): «الهلال أمر مشهود مرئي بالأبصار، ومن أصح المعلومات ما شوهد بالأبصار، ولهذا سموه هلالا».

وأما بالنسبة لرؤية الهلال ولزوم رؤيته لبقية الأمصار فاسحاق يعتبر لأهل كل بلد رؤيتهم، ولا يلزمهم رؤية غيرهم، والمشهور عند المالكية

(١) القبس في شرح الموطأ (٢/ ٤٨٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٥/ ١٣١).





أن الهـلال إذا رؤي ببلدة لزم أهل البـلاد كلها لقوله ﷺ: «**صوموا لرؤيته**»، والميم للجمع، ولما رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبـي ﷺ قـال: «**الصوم يوم تصومـون، والفطر يوم تفطـرون**»، ومعناه: الصوم والفطر مع الجماعة.

والصحيـح أنـه إذا اتفقـت مطالـع الهلال صامـوا جميعـا، وإن اختلفت فلـكل بلـد رؤيته، لما رواه مسـلم عن كريـب أن أم الفضل رضـي الله عنها بعثته إلى معاوية رضي الله عنه بالشـام، فقال: رأيت الهلال ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة في آخر الشهر فسألني ابن عباس رضي الله عنهما: متى رأيتم الهـلال؟ فقلـت: ليلة الجمعة، فقال: أنـت رأيته؟ فقلت: نعـم، ورآه الناس وصاموا، وصام معاوية رضي الله عنه، فقال: لكنّا رأيناه ليلة السبت، فقلت: ألا تكتفي برؤية معاوية رضي الله عنه وصيامه، فقال: لا، هكذا أمرنا رسول الله ﷺ. وهذا له حكم الرفع لقوله: هكذا أمرنا رسول الله ﷺ.

وخبر الواحد في ثبوت دخول الشـهر مقبول سـواء كانت السـماء غيما أو صحـوا، خلافـا للحنفية الذيـن لا يقبلونه إلا من جمع إذا كانت السـماء صحوا، وهذا قول ضعيف مرود لأن النبي ﷺ صام تسع رمضانات وعمل برؤية الواحد في دخول الشـهر كما في حديـث ابن عمر رضي الله عنهما، وكانت السماء صحوا في الصيف(١).

(١) شرح العمدة لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٠٥).




ويوم الشك هو الذي يحتمل أن يكون من شعبان وأن يكون من رمضان لا يجـوز صيامـه، قال عمار بن ياسـر رضي الله عنه «من صـام اليوم الذي يُشـك فيه فقد عصى أبا القاسـم» علقـه البخاري بصيغة الجـزم، ورواه أبو داود والترمذي وصححه ابن خزيمة وابن حبان.

والنبـي ﷺ قـال: «**لا تصوموا حتى تـروا الهلال أو تكملـوا العدة**»، قال شـيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «فإنها عبادة يتيقن دخول وقتها، فلم تفعل في وقت الشك».

ولا بـد من تبييت النية لصيام رمضان لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريء ما نوى**» رواه البخاري.

وتعتبـر النيـة في رمضان لـكل يوم في قول أبـي حنيفة والشـافعي، قال ابـن قدامـة: وعن أحمـد أنه يجزئه واحدة لجميع الشـهر، وهـو قول مالك واسحاق، وهو الصحيح لأن صوم رمضان عبادة واحدة وهو صيام ثلاثين يوما كصلاة الظهر رباعية تجزيء النية في أولها عن كل ركعة.[2]

قال القحطاني:

يجزيك في رمضان نية ليلة * إذ ليس مختلطا بعقد ثان**[3]

(١) شرح العمدة لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٩٠).
(٢) وإذا تخلله فطر لعذر كسفر أو مرض فلابد من تبييت النية لإستئناف الصوم.
(٣) النونية ص٣٧.



والنية محلها القلب لا يجهر بها، إذ لم يجهر بها النبي ﷺ، وعمل الإنسان دال على نيته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «كل من علم أن غدا رمضان وهو يريد صومه فقد نوى سواء تلفظ بالنية أو لم يتلفظ، وهذا فعل عامة المسلمين كلهم ينوي الصيام».

وتستحب المبادرة بالإفطار، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» متفق عليه، ووقت الإفطار هو الليل لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧]، والمراد بالليل هو غروب الشمس، كما جاء مفسرا واضحا بيّنا في سنة النبي ﷺ القولية والفعلية حيث قال: «**إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم**»، رواه البخاري.

وتأخير الإفطار حرام وتنطع وتشبه باليهود والنصارى، فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر، لأن اليهود والنصارى يؤخرون**»، رواه أبو داود وصححه ابن خزيمة.

والحكمة في تعجيل الفطر حتى لا يزاد في النهار من الليل، وأما الأمد الذي يؤخر فيه اليهود والنصارى الفطر فهو ظهور النجم، فقد روى ابن

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/ ١٢٥).




حبان من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزال أمتي على سنتي ما لم تنتظر بفطرها النجوم**».

ويستحب للصائم الفطر على رطب فإن لم يكن فعلى تمر فإن لم يكن فعلى ماء، فقد روى أحمد وأبو داود والترمذي باسناد حسن عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم يكن تميرات حسا حسوات من ماء.

والفطر على رطب مع مافيه من موافقة السنة فهو أيضا عون على إزالة ما في المعدة من المرة المتصاعدة إليها من الصوم، وهو بالرطب والتمر أبلغ لحلاوتهما، وبالفطر بالرطب وبعده بالماء أو بالماء إذا عدم الرطب يحصل ترطيب الكبد، الذي حصل لها نوع يبس بالصيام، فإذا رطبت بالماء كمل انتفاعها بالغذاء بعده[1].

ويستحب السحور للصائم، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**تسحروا فإن في السحور بركة**»، متفق عليه.

ومن فوائد السحور:

١ - إتباع السنة. ٢ - حصول البركة.

(١) خصوصيات الصيام لابن حجر الهيتمي.



٣ – مخالفة أهل الكتاب، فقد روى مسلم في صحيحه عن عمرو ابن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر**.

٤ – التقوي بالسحور على الصيام.

٥ – الزيادة في النشاط.

٦ – التسبب للذكر والدعاء وقت مظنة الإجابة.

٧ – تدارك نية الصوم لمن أغفلها قبل أن ينام[١] .

ويستحب تأخير السحور جداً، فقد روى مسلم عن أنس عن زيد ابن ثابت رضي الله عنهما قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قلت: كم كان قدر ما بينهما؟ قال: خمسين آية.

وقال عمرو بن ميمون الأودي رحمه الله «كان أصحاب محمد ﷺ أسرع الناس إفطاراً، وأبطأهم سحوراً»[٢] .

وقال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله «أحاديث تعجيل الإفطار وتأخير السحور صحاح متواترة».

ومخالفة السنة بتأخير الفطر وتعجيل السحور من أسباب نقص الخير في الأمة وقلة البركة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[٣] «من البدع المنكرة ما

(١) فتح الباري (٤/ ١٤٠).
(٢) رواه عبدالرزاق وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (٤/ ١٩٩).
(٣) فتح الباري (٤/ ١٩٩).




أحدث في هذا الزمان من إيقاع الأذان الثاني قبل الفجر بنحو ثلث ساعة في رمضان، واطفاء المصابيح التي جعلت علامة لتحريم الأكل والشرب على من يريد الصيام زعما ممن أحدثه أنه للاحتياط في العبادة، ولا يعلم بذلك إلا آحاد الناس، وقد جرّهم ذلك إلى أن صاروا لا يؤذنون إلا بعد الغروب بدرجة لتمكين الوقت زعموا، فأخروا الفطور، وعجلوا السحور، وخالفوا السنة، فلذلك قلّ عنهم الخير، وكثر فيهم الشر، والله المستعان».

وليجتنب الصائم مفطرات الصوم، وهي[1]:

١ - **الأكل والشرب**، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧].

٢ - **ما كان بمعنى الأكل والشرب**، كحقن الدَّم في الصائم، أو الإبر المغذية، أما الإبر غير المغذية فإنها لا تفطر.

٣- **التقيؤ عمدا**، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**من ذرعه القيء فلا قضاء عليه ولا كفارة، ومن استقاء فعليه القضاء**»، رواه أحمد وأبو داود.

وهذا الحديث وإن كان لا يثبته المتقدمون كما قال أحمد: ليس من ذا شيء، وقال البخاري: لا أراه محفوظا، إلا أن العلماء متفقون على القول

---

(١) مجالس رمضان ص٩٨ - ١٠٢.



والعمـل بمقتضاه، قال الخطابي رحمه اللـه «لا أعلم خلافا بين أهل العلم فـي أن مـن ذرعه القيء فإنـه لا قضاء عليه، ولا في أن من اسـتقاء عامدا أن عليه القضاء».

وقـال ابـن المنذر رحمـه الله: «أجمع أهـل العلم على ابطـال صوم من استقاء عمدا».

٤ - خـروج دم الحيض والنفاس لقوله ﷺ: «**أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولـم تصم**».

٥ - إنزال المني بإختياره بتقبيل أو لمس أو استمناء، لأن هذا من الشهوة التـي لا يكـون الصـوم إلا باجتنابها، كما جـاء في الحديث القدسـي «**يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**»، رواه البخاري.

والمباشـرة دون الفرج والقبلة للصائم كرهها ابن عمر رضي الله عنهما كمـا فـي مصنـف ابن أبـي شـيبة عنه باسـناد صحيـح، وهو المشـهور عند المالكيـة، وفرّق ابن عباس رضي الله عنهما بين الشـاب والشـيخ فكرهها للشباب وأباحها للشيخ، رواه مالك عنه، لأن الشباب مظنة لهيجان الشهوة، وفرّق سـفيان بين من يملك نفسه ومن لا يملك، لحديث عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يُقبّل وهو صائم، ويباشر وهو صائم، ولكنه كان أملككم لأربه»، متفق عليه.




أربه: بفتح الهمزة والراء وبالموحدة أي حاجته.

وإذا باشر الصائم فأمذى ولم يمن فإنه لا يفطر، قال الحافظ النووي رحمه الله «لو قبّل امرأة وتلذذ فأمذى ولم يمن، لم يفطر عندنا بلا خلاف، وحكاه ابن المنذر عن الحسن البصري والشعبي والأوزاعي وأبي حنيفة وأبي ثور، وبه أقول».

ثم ذكر النووي رحمه الله موجب ترجيحه فقال[1] «لأنه خارج لا يوجب الغسل فأشبه البول».

٦ - **الجماع**: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: هلكت يارسول الله!

قال: **وما أهلكك**؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم في رمضان، قال: **هل تجد ما تعتق**؟ قال: لا، قال: **فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين**؟ قال: لا، قال: **فهل تجد ما تطعم ستين مسكينا**؟ قال: لا، ثم جلس فأُتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر، فقال: **تصدّق بهذا**، فقال: على أفقر منّا؟! فما بين البيوت أهل بيت أفقر إليه منّا!

فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: **إذهب فأطعمه أهلك**»، متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(١) شرح المهذب (٦/ ٣٢٣)



فهذا الحديث دليل على فساد صوم من جامع في نهار رمضان متعمداً وهو مقيم غير مسافر، لأن قوله «هلكت» لا يكون إلا عن عمد.

وهل تجب الكفارة على المرأة أو أن الحكم خاص بالزوج فقط؟ فبعض العلماء قال إن الكفارة على الزوج وحده لأنه لم يذكر ذلك في حق المرأة، وفي الحديث قال النبي ﷺ للرجل «**هل تستطيع**»، «**وهل تجد**»، فكأن الكفارة عليه وحده دون زوجه. وقيل: إن المرأة تجب عليها الكفارة كالرجل لعدة مرجحات:

١ - أنها هتكت حرمة الشهر بالجماع.

٢ - أنها طاوعت زوجها في الجماع، فكل منهما فاعل ومشارك.

٣ - لا يصح الإستدلال بعدم ذكر الكفارة في حق الزوجة، لأنه كذلك لم يذكر الأمر بالاغتسال من الجماع، وهو واجب في حقها كالزوج تماما.

٤ - أن بيان الحكم للرجل بيان في حقها، فالتنصيص على الحكم في بعض المكلفين كاف عن ذكره في حق الباقين.

وهذه الوجوه تغني عن الاستدلال برواية «وأهلكت»، فقد ضعّفها الخطابي والبيهقي وعياض وابن حجر، وغيرهم، رحمهم الله[١].

---

(١) فتح الباري (٤/ ١٧٠).




والترتيب في خصال الكفارة واجب، عتق رقبة، فإن لم يجد فصوم شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا، قال أبو بكر ابن العربي رحمه الله «لأن النبي ﷺ نقله من أمر بعد عدمه، وليس هذا شأن التخيير».

والإطعام لابد أن يكون لستين مسكينا، لا يصح إطعام ستة مساكين عشر مرات، قال الحافظ ابن دقيق العيد رحمه الله «أضاف الإطعام إلى ستين فلا يكون ذلك موجود في حق من أطعم ستة مساكين عشرة أيام».

وأما بالنسبة لقضاء اليوم الذي أفسده الزوجان بالجماع هل يصومان يوما مكانه؟ فمذاهب العلماء في هذا ثلاثة:

الأول: يجب القضاء لعموم قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ (١٨٥)﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي زيادة في أحد ألفاظ الحديث «**وصم يوما مكانه**»، رواه أبو داود.

الثاني: لا قضاء عليه، لأن النبي ﷺ لم يأمر بذلك، وزيادة «**وصم يوما مكانه**»، ضعيفة، ضعّفها ابن عدي، وأبو يعلى الخليلي، والعلائي، وعبدالحق الإشبيلي، وكذلك ابن القيم[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]: «وأما أمره للمجامع بالقضاء فضعيف، ضعّفه غير واحد من الحفاظ، وقد ثبت هذا الحديث من غير

(١) تهذيب السنن (٣/ ٢٧٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٢٥).



وجه في الصحيحين من حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما، ولم يذكر أحد أمره بالقضاء، ولو كان أمره بذلك لما أهمله هؤلاء كلهم، وهو حكم شرعي يجب بيانه، ولما لم يأمره به دل على أن القضاء لم يبق مقبولا، وهذا يدل على أنه كان متعمدا للفطر ولم يكن ناسيا ولا جاهلا».

فهؤلاء يرون أن الفطر انجبر بالكفارة.

الثالث: أن المجامع في نهار رمضان إن كفّر بالصوم دخل فيه القضاء، وإلا فلا، لاختلاف الجنس، وهذا إختيار الأوزاعي رحمه الله.

وتكلم العلماء في حق المجامع إذا كان فقيرا ولم يستطع الصيام، هل تبقى في ذمته أو تسقط عنه؟

قال الأثرم للإمام أحمد: «أطعمه عيالك»، أتقول به؟ قال: نعم إذا كان محتاجا، ولأنه حق مالي يجب لله على وجه الطهرة للصائم، فلم يجب كالعاجز عن صدقة الفطر، وفي رواية أخرى عن أحمد تبقى في ذمته.

وفي رواية إبراهيم بن الحارث قال الإمام أحمد: يأكلها إذا أطعم عنه غيره، ويمتنع في غير كفارة الوطء في الصيام أن يأكل منها، وروى عنه أبو الحارث: إن كل الكفارات لا بأس بأكلها إذا كُفرت عنه[١] .

(١) انظر شرح العمدة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.




والكفـارة المغلظة إنما هي في حق من جامع أهله في نهار رمضان دون ما سـواه، فلو جامع فـي القضاء أو النذر أو الكفارة لـم تجب عليه الكفارة المغلظـة، نـص عليـه الإمـام أحمد، وهـذا قول سـائر الأئمة كذلـك، قال الحافـظ ابن عبدالبـر رحمه اللـه[1] «وأجمعوا علـى أن المجامع في قضاء رمضـان عامدا لا كفارة عليه حاشـا قتـادة وحده، وأجمعـوا أن المفطر في قضـاء رمضان لا يقضيه، وإنما عليـه ذلك اليوم الذي كان عليه من رمضان لا غيره، إلا ابن وهب فإنه جعل عليه يومين قياسا على الحج».

٧ - **الحجامـة**: ذهـب الحنابلـة وتبعهم اسـحاق بن راهويـة إلى القول بالافطـار مـن الحجامـة، وأوجبوا عليه القضـاء، وبه قال ابـن خزيمة وابن المنـذر من الشـافعية، وابن حبان، لحديـث «أفطر الحاجـم والمحجوم»، وهـو مـروي من حديث جماعة مـن الصحابة منهم: شـداد بن أوس، وأبي هريرة، وعائشـة، وأسـامة بن زيد، وعلي، وأبي موسـى، ومعقل بن سنان، وابن عباس، ورافع بن خديج، رضي الله عنهم أجمعين.

وخالفهم الجمهور، وقالـوا بعدم الفطر من الحجامة لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ احتجم وهو صائم، رواه البخاري، قال الإمام الشافعي وابن عبدالبر إنه ناسخ لحديث شداد بن أوس رضي الله عنه، لأنه

(١) التمهيد (٧/ ١٨١).





فـي ألفاظه «عام الفتح»، وهو في السـنة الثامنة من الهجرة، وإنما سـمع ابن عباس رضي الله عنهما من النبي ﷺ عام الفتح، وقد جاء التصريح بذلك في بعض طرقه، وأجاب ابن القيم رحمه الله بأن ابن عباس رضي الله عنهما إنما أخذها عن الصحابة، والذي فيه سـماعه من النبي ﷺ لا يبلغ عشـرين قصة كمـا قال غير واحد من الحفاظ[1]، وأمـا رواية «عام الفتح» فقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[2]: «فأنا لم نرها صريحة في شيء من الأحاديث».

واسـتدل من قال بالنسخ كذلك بحديث أبي سـعيد الخدري رضي الله عنـه قال: أرخـص النبي ﷺ في الحجامـة للصائم، رواه النسـائي وصحح إسناده ابن حزم، وقال: إن الرخصة إنما تكون بعد العزيمة، فدل على نسخ الفطر بالحجامة. وأجيب بأن البخاري رجح وقف خبر أبي سعيد الخدري رضـي الله عنه[3]، وأن الرخصة قد تأتي أحيانا بـدون تقدم النهي والعزيمة كما في رخصة القبلة للصائم. واستدلوا كذلك بحديث أنس رضي الله عنه قال: أول ما كرهت الحجامة للصائم أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه احتجـم وهو صائم، فمر به رسـول اللـه ﷺ فقال: **أفطر هـذان،** ثم رخص النبي ﷺ بعد في الحجامة للصائم، رواه الدارقطني.

(١) تهذيب السنن (٣/ ٢٥٠).
(٢) التلخيص الحبير (٢/ ١٩١).
(٣) العلل الكبير (١/ ٣٦٧).




وأجيب بضعف هذا الخبر، وأنه لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة، ولا هو في المصنفات المشهورة[1] وبأن في إسناده خالد بن مخلد القطواني، قال أحمد بن حنبل: له أحاديث مناكير، وفي إسناده أيضاً عبدالله بن المثنى الأنصاري، قال النسائي: ليس بالقوي، وقال أبو داود: لا أخرّج حديثه.

ولو سُلم صحة هذا الحديث لم يكن فيه حجة، لأن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قُتل في غزوة مؤتة، وهي قبل الفتح.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «في متنه ما ينكر، لأن فيه أن ذلك كان في الفتح، وجعفر قُتل قبل ذلك».

على كل حال حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ احتجم وهو محرم يغني عن الاستدلال بحديث أبي سعيد وأنس رضي الله عنهما، فحديث ابن عباس رضي الله عنهما في صحيح البخاري.

وقد ثبت عن جمع من الصحابة الحجامة وهم صائمون، فقد روى عبدالرزاق باسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يحتجم وهو صائم في رمضان ثم تركه لأجل الضعف.

وذكر البخاري تعليقا مجزوما به عن أم علقمة قالت: كنا نحتجم عند عائشة رضي الله عنها ونحن صيام، فلا ننهى.

(١) تنقيح التحقيق (٢/ ٤٨٠).



وروى البخاري في صحيحه عن ثابت قال: سُئل أنس بن مالك رضي الله عنه أكنتم تكرهون الحجامة للصائم؟ قال: لا، إلا من أجل الضعف.

قال الإمام الشافعي رحمه الله[1] «والذي أحفظ عن الصحابة والتابعين وعامة أهل العلم أنه لا يفطر أحد بالحجامة».

وقد تكلم العلماء في حكم خروج الدم بغير حجامة، فقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[2] «وفي معنى إخراج الدم بالحجامة إخراجه بالفصد ونحوه مما يؤثر على البدن كتأثير الحجامة، وأما خروج الدم بالرعاف أو السعال أو الباسور أو قلع السن أو شق الجرح أو تحليل الدم أو غرز الإبرة ونحوها فلا يفطر، لأنه ليس بحجامة ولا بمعناها إذ لا يؤثر في البدن كتأثير الحجامة».

وهذه المفطرات لا تبطل الصوم إلا من فعلها قاصدا متعمدا، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «**من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه**»، متفق عليه.

ومن أكل معتقدا بقاء الليل أو غروب الشمس فهذا صيامه صحيح ولا شيء عليه، ففي صحيح البخاري من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي

(١) اختلاف الحديث ص١٩٧.
(٢) مجالس رمضان ص ٦٧.




الله عنهما قالت: أفطرنا في عهد النبي ﷺ يوم غيم ثم طلعت الشمس، ولم تذكر أن النبي ﷺ أمرهم بالقضاء، لأنهم كانوا جاهلين بالوقت، ولو أمرهم بالقضاء لنُقل، لأنه مما تتوفر الدواعي على نقله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته «حقيقة الصيام»: «إنه نقل هشام بن عروة عن أبيه عروة أنهم لم يؤمروا بالقضاء».

❊ ❊ ❊




الدرس الثاني
شهر الطاعات

لاشك أن أهل الخير يفرحون بمواسم الطاعات إذا أقبلت، وذلك لما يجتنونه من حلاوة الإيمان بفعل الطاعات، وما يحصل لهم من تحقيق العبودية لله والتأله له، وقرة العين والفرح بإتيان الطاعات وأنواع القربات.

فموسم رمضان موسم طاعات وخيرات: صيام، وقيام، واعتكاف، وزكاة، وصدقة فطر، وعمرة فيه تعدل حجة، وتلاوة قرآن.

فباغي الخير يتحرّاه وينتظر قدومه ويسأل الله أن يبلّغه رمضان، لأنه يعلم ما في هذا الشهر من الخير والفضائل، فالمؤمن يفرح بالطاعات وتقرّ عينه بها، قال النبي ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**»[1].

وقال تعالى في شأن نزول القرآن: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

قال معلى بن الفضل رحمه الله: «كانوا يدعون الله تعالى سته أشهر أن يبلغهم رمضان ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم».

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (ص ٤٦٩ - رقم ٣٣٩١ - ٣٣٩٢).




وقال يحيى بن أبي كثير رحمه الله: «كان من دعائهم: اللهم سلمني إلى رمضان وسلم لي رمضان وتسلمه مني متقبلاً»[1].

والتابعي إذا قال: «كانوا» فإنما يريد الصحابة الذين يُقتدى بهم، فهكذا كان هدي سلفنا الصالح، تحرٍّ لشهر رمضان وانتظاره، والتهيؤ له، ثم اغتنامه بالأعمال الصالحة.

ومع ما في هذا الشهر من الفضائل والطاعات فإنه شهر تُقسم فيه أرزاق الخلق، وتُقدّر فيه مقادير سنتهم كاملة كما قال تعالى عن ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٣ - ٤]، فتقدّر مقادير الخلق في ليلة القدر لحول كامل، فلذلك يحرص أهل الخير على الاستقامة والطاعة والدعاء في الشهر كله، وفي ليلة القدر أكثر.

فإن من نجح وصلح في هذا الشهر حفظه الله في سائر السنة، ومن ضيّع هذا الشهر فتراه يجد الخسران في عامه كله إلا أن يتوب الله عليه.

قال ابن القيم رحمه الله فيما يجتنيه العبد إذا صلحت له جمعته ورمضانه وحجه: «فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرغون فيه للعبادة ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا، فيوم الجمعة يوم عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضان

(١) لطائف المعارف (ص ١٥٦).

في الشـهور، وسـاعة الإجابة فيه كليلـة القدر في رمضـان. ولهذا من صح له يومُ جمعته وسـلم سـلمت له سـائر جمعته، ومن صحَّ له رمضان وسلم سـلمت له سـائر سـنته، ومن صحَّت له حجته وسـلمت له، صحَّ له سـائر عمـره، فيوم الجمعة ميزان الأسـبوع، ورمضان ميـزان العام، والحج ميزان العمر»(1).

ولذلـك يفرح أهل الخير بقدوم شـهر الخير والطاعـة، ويُهنيء بعضهم بعضاً بقدوم شهر رمضان، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «كان النبـي ﷺ يبشّـر أصحابه بقدوم رمضان كما خرّجه الإمام أحمد والنسـائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يُبشـر أصحابه يقول: «**قد جاءكم شـهر رمضان شـهر مبارك كتب الله عليكم صيامه، فيه تُفتح أبواب الجنـان، وتغلـق فيه أبواب الجحيم، وتُغل فيه الشـياطين، فيـه ليلة خير من ألف شهر من حُرم خيرها فقد حُرم**».

قـال بعض العلمـاء: هذا الحديث أصـل في تهنئة النـاس بعضهم بعضاً بشهر رمضان.

كيف لا يُبشر المؤمن بفتح أبواب الجنان؟!

كيف لا يُبشّر المذنب بغلق أبواب النيران؟!

(1) زاد المعاد (1/ 398).




كيف لا يُبشّر العاقل بوقت تُغل فيه الشياطين؟!

من أين يُشبه هذا الزمان زمان؟!

وفي حديث آخر: «**أتاكم رمضان سيد الشهور فمرحباً به وأهلاً**».

جاء شهر الصيام بالبركات فأكرم به من زائر هو آت

وروي أن النبي ﷺ كان يدعو ببلوغ رمضان فكان إذا دخل رجب يقول: «**اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلّغنا رمضان**» أخرجه الطبراني وغيره[1]».

فهذا شهر يحبّه ويفرح ويبتهج به أهل الخير، وأما أهل الشر فينفرون منه لما ألفوه من ترك الواجبات وركوب المحرمات، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «وهؤلاء السفهاء يستثقلون رمضان لاستثقالهم العبادات فيه من الصلاة والصيام، فكثير من هؤلاء الجهال لا يُصلي إلا في رمضان، وكثير منهم لا يجتنب كبائر الذنوب إلا في رمضان، فيطول عليه ويشقّ على نفسه مفارقتها لمألوفها فهو يعدُّ الأيام والليالي ليعود إلى المعصية، وهؤلاء مصرون على ما فعلوا وهم يعلمون، فهم هلكى، ومنهم من لا يصبر على المعاصي فهو يواقعها في رمضان»[2].

(١) لطائف المعارف (ص ١٥٥ - ١٥٦).
(٢) لطائف المعارف (ص ١٥٤).





فالقلـوب القاسـية، والقلوب اللاهية، والقلوب التي غمرتها الشـهوات المحرمـة، واللهـو المحرم والمعاصي تُعرض عن اللـه ولا تُقبل إليه، تُدبر فـي وقت يُقبل فيه الناس، تُصرّ فيه علـى الذنوب في وقت يُقلع فيه الناس. قلـوب لا تتعـرض لرحمه الله التي وسـعت كل شـيء، قلـوب مريضة، قد أظلهـا شـهر تتنزل فيه الرحمـات وتُغفر فيه الـزلات: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

يا ذا الذي ما كفاه الذنب في رجب * حتى عصى ربه في شـهر شـعبان**
لقـد أظلّـك شـهر الصوم بعدهمـا * فـلا تـصيّـره أيضاً شـهر عصيان**

قال تعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

قـال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله: «يخبـر تعالى بمنّته على عبـاده المؤمنيـن بفرضه عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السـابقة؛ لأنه مـن الشـرائع الكبار التي هـي مصلحة للخلق في كل زمـان، وفي هذا حث للأمة أن ينافسـوا الأمم في المسـارعة إليه وتكميله، وبيان عموم مصلحته، وثمراته التي لا تسـتغني عنها جميـع الأمم؛ ثم ذكر حكمته بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فـإن الصيـام مـن أكبر أسـباب التقـوى؛ لأن فيـه امتثال أمـر الله واجتناب نهيه.




فالصيـام هـو الطريق الأعظم للوصـول إلى هذه الغاية التي فيها سـعادة العبـد في دينه ودنياه وآخرتـه، فالصائم يتقرب إلى الله بترك المشـتهيات؛ تقديماً لمحبة ربه على محبة نفسه، ولهذا اختصه الله من بين الأعمال حيث أضافه إلى نفسـه في الحديث الصحيح، وهو من أعظم أصول التقوى، فإن الإسلام والإيمان لا يتم بدونه.

وفيه من حصول زيادة الإيمان، والتمرن على الصبر والمشقات المقربة إلـى رب العالميـن، وأنـه سـبب لكثـرة الطاعات مـن صلاة وقـراءة وذكر وصدقة وغيرها ما يحقق التقوى، وفيه من ردع النفس عن الأمور المحرمة من أقوال وأفعال ما هو من أصول التقوى.

ومنها: أن في الصيام من مراقبة الله بترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه – لعلمه باطّلاع ربه عليه – ما ليس في غيره، ولا ريب أن هذا من أعظم عون على التقوى.

ومنها: أن الصيام يُضيّق مجاري الشيطان «فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم»، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل معاصي العبد.

ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك وحمله على مواسـاة الفقراء المعدمين، وهذا كله من خصال التقوى.



ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبر أنها ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ (١٨٤)﴾ [البقرة: ١٨٤] أي: قليلة وسهلة، ومن سهولتها أنها في شهر معين يشترك فيه جميع المسلمين؛ ولا ريب أن الاشتراك هذا من المهونات المسهلات، ومن ألطاف المولى ومعونته للصائمين، ثم سهّل تسهيلاً آخر فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ (١٨٤)﴾ [البقرة: ١٨٤] وذلك للمشقة - غالباً - رخص الله لهما في الفطر.

ولما كان لابد من تحصيل العبد لمصلحة الصيام أمرهم أن يقضياه في أيام أخر، إذا زال المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ (١٨٤)﴾ [البقرة: ١٨٤] دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان كاملاً كان أو ناقصاً، وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة عن أيام طويلة حارة كالعكس»[1].

رمضان شهر مبارك اجتمعت فيه أنواع العبادات والطاعات التي لا تكاد تجتمع جميعاً في غيره من الأوقات، صيام وقيام واعتكاف وزكاة وصدقة فطر، وتلاوة قرآن وعمرة في رمضان تعدل حجة كما جاء في صحيحي البخاري ومسلم.

(١) تيسير اللطيف المنان (ص ٧٣ - ٧٤)،






وهـذه العبـادات والطاعـات قلمـا تجتمـع في شـخص واحد فـي غير رمضان، فإن النبي ﷺ سأل أصحابه يوماً: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِماً؟**» قـال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: أنا يارسـول اللـه، قال النبي ﷺ: «**مَنْ اتَّبَـعَ مِنْكُـمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**» قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: أنا يارسـول الله، قال النبي ﷺ: «**مَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضاً**» قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: أنا يارسول الله، قال: «**مَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِيناً؟**» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال النبي ﷺ: «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ كيفَ شَاءَ**»(١).

فهذا الحديث دالٌّ على اجتماع الفضائل كلها في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وعلى اسـتباقه للخيرات رضي الله عنه، ولـم يشـارك أحد أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه يومها فيما كان قائماً به من الطاعات والعبادات.

والنـاس طبقـات فـي عباداتهم وطاعاتهم، بحسـب مـا هيّأهـم الله له، وبحسـب ما يزاولونه من مجاهدة أنفسـهم لحملها على أصناف العبادات، والسعيد من ضرب من كل عبادة بسهم.

فالإمـام مالك رحمه الله إمام دار الهجرة الـذي كتب الله له هذا القبول العظيم لم يكن مشهوراً بكثير صيام ولا صلاة، ولكنه قد بذل نفسه للتدريس

(١) رواه مسـلم، كتـاب فضائـل الصحابة، باب مـن فضائل أبي بكـر الصدّيق رضـي الله عنه (ص ١٠٥١ رقم ٦١٨١).





ونشر العلم، فكتب إليه عبدالله العمري العابد الزاهد يعظه وينصحه في ذلك ويحثّه على العبادة، فكتب إليه الإمام مالك رحمه الله: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصلاة، ورب رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصدقة، ورُبّ رجل فُتح له في الصوم ولم يُفتح له في الصلاة والصدقة، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه. انتهي كلامه رحمه الله.

وما قاله الإمام مالك رحمه الله هو عين الواقع والصواب، فالله عز وجل قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فكما أننا نجد في الواقع فلاناً غنيَّاً وفلاناً فقيراً، كذلك الله عز وجل طبع بعض خلقه على حب العبادات البدنية كالصلاة والصيام، فتجدها يسيرةً عليه يُقبل عليها ما لا يُقبل على بذل المال وإنفاقه في وجوه البر، ومن الناس من هو بضد ذلك تماماً ترى يده منبسطة جدَّاً ببذل المال يُبادر إلى بذل المال في وجوه الخير، كلما علم بحاجة مسلم بادر إلى قضائها وهو طيب النفس منشرح الصدر بهذه النفقة، وربما لا تجد له هذا النشاط في نوافل الصيام والصلاة، فهذه منح إلهية.

فأورد الإمام مالك رحمه الله هذه الحقيقة لنُقيّم الناس وفق معيار العدل والإنصاف ونعرف لكل مطيع وعابد فضله.






ثم قال الإمام مالك للعمري: «وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه»، وهذا الذي قاله الإمام مالك رحمه الله قاله على سبيل التواضع، وإلا فلا شك أن ما عليه الإمام مالك رحمه الله من نشر العلم أفضل من تأله العمري في نفسه، فعبادات العمري وطاعاته ثمرتها وعائدتها خاصة به، ونشر العلم الذي مارسه الإمام مالك ثمرته ومصلحته متعدية لكل المسلمين، بل ما زال المسلمون يستفيدون من علوم الإمام مالك رحمه الله التي نشرها وتوارثتها الأمة إلى يومنا هذا.

رمضان مدرسة في التربية على القيام بأنواع العبادات والطاعات، ومداومة فعلها شهراً كاملاً لا شك أنها دربة مهمة ومناسبة للزومها بعد ذلك بحيث تكون سجيةً للمسلم.

قال رجل لحماد بن سلمة رحمه الله: الرجل يُحبَّب إليه الصلاة، وآخر يُحبَّب إليه الجهاد، وعدَّد خصالاً من خصال الخير، فقال: هذه كلها طرقٌ إلى الله أحبَّ أن تُعْمَر(١).

ولعل من أعظم أسباب إدراك هذه الطاعات هو التجاء العبد إلى الله أن يجعله من السابقين للخيرات، ومن المقيمين لأنواع الطاعات، وصدق

(١) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (٣/ ٤٣٦ - رقم ٤٥). موسوعة ابن أبي الدنيا.

الالتجاء إلى الله يفتح ما انغلق من الأبواب ويُيسر العسير: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣].

كما أن أداء العبادات على وجه التلذذ بها، وتحقيق العبودية والشكر لله لا على سبيل إبراء الذمة فقط هو من أعظم أسرار لزوم أنواع الطاعات، ولذلك قال النبي ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**»، وكان يأمر مؤذنه أن يُنادي بالصلاة، ويقول عليه السلام: «**أَرِحْنَا بِالصَّلاةِ يَا بِلَال**»(١).

وكان ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويقول: «**أَفَلَا أَكُونْ عَبْداً شَكُوراً**»(٢).

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: «ومن كانت قرة عينه في الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة»(٣).

والعبادة والطاعة لو لم تكن من سجاياك، فمع الدربة والمزاولة لها والصبر عليها يُيسرها الله بعد ذلك حتى تألفها وتقرّ عينك بها، لذلك قال بعض الزهاد: «عالجت قيام الليل سنة، وتنعمت به عشرين سنة»(٤).

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٦٤، ٣٧١)، وصححه الألباني رحمه الله.
(٢) رواه البخاري، كتاب باب قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (ص ٨٥٦ - رقم ٤٨٣٧)، ومسلم، كتاب صفة المنافقين (ص ١٢٢٧ - رقم ٧١٢٤).
(٣) عدة الصابرين (ص ٨٣).
(٤) عدة الصابرين (ص ١٩١).




فالحاصل أن الجوارح تنطبع بما عوّدتها عليه، قال سليمان بن طرخان التيمي رحمه الله: «إن العين إذ عوّدتها النوم اعتادت، وإذا عوّدتها السهر اعتادت».

والناس في الحقيقة عندنا فيهم حُبّ للخير، لكن الكسل وما استروحوا إليه من الدعة والراحة قطع عليهم أبواباً من الطاعات والعبادات.

والنفس إذا لم تشغلها بطاعة الله شغلتك بمعصيته.

قال تعالى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر: ٣٦ – ٣٧]، قال ابن القيم رحمه الله: «ولم يذكر واقفاً، إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة»(١).

فالبعض إنما يُؤتى من همته الضعيفة؛ ولذلك كان النبي ﷺ يتعوّذ من العجز والكسل كما في صحيح البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ لأن العجز والكسل قاطع عن كل خير، كما أن العزيمة جالبة لكل خير.

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «فالعزم والثبات هما السبب الأكبر لنيل المطالب المتنوعة، ومن دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إنِّي**

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٢٠).



أَسْـأَلُكَ الثَّبَـات فِـي الأمـرِ، وَالعِزِيمَـةَ فِـي الرُّشْـدِ»، لأن بالأمرين يحصل الكمال للعبد.

العزيمـة علـى الرشـد التي هو أمـور الخير كلهـا، ثم الثبـات على ذلك، والنقـص إما من عدم العزيمة، أو العزيمة على ما ليس برشـد، وهي الأمور التي لا نفع فيها في الدين ولا في الدنيا، أو عدم الثبات الذي سببه التردد وعدم التصميم، فعلى من شرع في عمل رشد نافع أن يُوطّن نفسه على تكميله من كل وجه، ويُوجه له وجهته الظاهرة والباطنة، ولا يسـتبطيء النتيجة النافعة، بل يُثابر عليه مثابرة الجازم الذي لا مثنوية عنده ولا تلوّم»[1].

وليحذر المسـلم مـن الصوارف التي تصـدّه عن طاعة اللـه، وكثير منها يرجـع إلى التوسـع فـي المباحات، والفضل من كل شـيء، قـال ابن القيم رحمـه الله: «وأكثر المعاصي إنمـا تولدها من فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملّان ولا يسأمان بخلاف شهوة البطـن، فإنه إذا امتلأ لـم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسـان فلو تُركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما مُتسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات، وكان السـلف يُحذّرون مـن فضول النظر كما يُحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: «ما شـيء أحوج إلى طول السـجن من اللسـان»،

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص ١٦٦).

وأمـا فضـول الطعام فهو داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشـر فإنه يُحرّك الجوارح إلى المعاصي ويُثقلها عن الطاعات وحسبك بهذين شر.

فكـم مـن معصيـة جلبها الشـبع وفضـول الطعـام، وكم مـن طاعة حال دونها، فمن وُقي شرَّ بطنه فقد وقي شرَّاً عظيماً، والشيطان أعظم ما يتحكم مـن الإنسـان إذا ملأ بطنه من الطعام، ولهذا جاء فـي بعض الآثار: «ضيِّقوا مجـاري الشـيطان بالصوم»، وقال النبـي ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شـرَّاً من بطـن**» ولـو لم يكن في التملـي من الطعام إلا أنه يدعو إلـى الغفلة عن ذكر الله عز وجل وإذا غفل القلب عن ذكر الله ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعـده ومنَّاه وشـهَّاه، وهام به في كل واد، فإن النفس إذا شـبعت تحركت وجالـت وطافـت على أبواب الشـهوات، وإذا جاعت سـكنت وخشـعت وذلّت.

وأما فضول المخالطة فهي الداء العضال الجالب لكل شـر، وكم سلبت المخالطة والمعاشـرة من نعمة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسـيات وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بقدر الحاجة»[1].



(١) بدائع الفوائد (١/ ٨٢٠ - ٨٢١).



الدرس الثالث
حقيقة الصيام والقيام

الناس إذا أقبل رمضان همّمهم تتفاوت، فمنهم من همّه في التزود من أنواع الطعام، وإذا أفطر لم يوازن بين ما يحتاجه بدنه وما ينبغي له من الاستعداد لصلاة التراويح، لدرجة أنه يتمنى أن تتخفف الصلاة إلى أقل ما يكون لأن بدنه أثقله عن القيام، وهذا الصنف هداه الله لو أكل على وجه الإعتدال، وتخفف لصلاة القيام، وأخذ حظه من الطعام بعد ذلك لكان خيراً له، فإن غذاء التقوى خير، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧]، وزاد الصلاة أقوى زاد للمحافظة على الإيمان وزيادته والنهوض لسائر أنواع الطاعات وترك المحرمات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «إن الصلاة قوت القلوب، كما أن الغذاء قوت الجسد لا يتغذى باليسير من الأكل، فالقلب لا يقتات بالنقر في الصلاة، بل لابد من صلاة تامة تقيت القلوب».

فالصلاة حياة للقلوب وقوة للأبدان، وتكفير للسيئات، ورفعة في الدرجات، وقوة في النهوض لأعمال الدين والدنيا، وزيادة في الإيمان، وصيانة عن المعاصي، وعون على القيام بالمشاق، قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ

(١) القواعد النورانية الفقهية ص٦٨.




وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٤٥]، والنبي ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة(1).

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله(2): «ولولا الصلاة التي تتكرر على المؤمنين في اليوم والليلة، لتذكرهم بالله، ويتعاهدون فيها قراءة القرآن، والثناء على الله، ودعاءه، والخضوع له الذي هو روح الذكر، لولا هذه النعمة لكانوا من الغافلين».

نحن نقوم الليل في رمضان جماعة في التراويح وفي العشر الأواخر، والبعض فقط يُفكّر في تكفير سيئاته، وهذا حق مشروع قال النبي ﷺ: «**من قام رمضان إيماناً وإحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**» متفق عليه، وفوق هذا القصد قصد أسمى وهو تحقيق العبودية لله، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فنحن نحتاج إلي تكميل أنفسنا في طاعاتنا وعباداتنا ومقاصدنا ونياتنا، فإن نبينا ﷺ كان يقوم الليل حتى تتفطّر قدماه، فتقول له عائشة رضي الله عنها: «قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر»، فيقول النبي الزكي النقي التقي صلوات الله وسلامه عليه: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»(3).

---

(١) رواه أحمد ومحمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة.
(٢) تيسير اللطيف المنّان ص١٨٥.
(٣) رواه البخاري (رقم ١١٣٠)، ومسلم (رقم ٧١٢٦).

والناس لا ريب أنهم يتفاضلون في الطاعات، وتتفاضل مقاماتهم في العبودية، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾[فاطر: ٣٢].

والإيمان أيها المسلمون ليس بالتمني ولا بالتحلي، كما قال الحسن البصري رحمه الله، ومقامك أيها المسلم في العبودية لله على قدر تحققك بها، قال أبو سعيد الخزاز رحمه الله[١]: «علامة العبودية ثلاث: الوفاء لله على الحقيقة، والمتابعة للرسول ﷺ في الشريعة، والنصيحة لجميع الأمة».

نحن في صيامنا نُسّر بما يعود علينا من مطعوم ومشروب عند الفطر، وهذا لا شك أنه فرح شرعي إذا لم يكن فيه سرف واستعملت المطعومات في طاعة الله، قال النبي ﷺ: «للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة يوم لقاء ربه» رواه البخاري ومسلم، لكن استلذاذنا بحلاوة الإيمان وفعل الطاعة على أكمل وجه لابد أن يكون هو فرحنا الأعظم، وفوق فرحنا بأكل الملذوذات، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «إن قوي الإيمان يجد في قلبه من ذوق حلاوته ولذة طعمه واستحلاء آثاره، والتلذذ بخدمة ربه وأداء حقوقه وحقوق عباده التي هي موجب الإيمان

(١) الزهد الكبير للبيهقي (ص٣٠٦ – رقم ٧٣٨).
(٢) تيسير اللطيف المنّان ص ٤٣.




وأثره ما يزري بلذات الدنيا كلها بأسرها، فإنه مسرور وقت قيامه بواجبات الإيمان ومستحباته، ومسرور بما يرجوه ويؤمله من ربه من ثوابه وجزائه العاجل والآجل، ومسرور بأنه ربح وقته الذي هو زهرة عمره وأصل مكسبه، ومحشو قلبه أيضاً من لذة معرفته بربه ومعرفته بكماله وكمال بره، وسعة جوده وإحسانه ولذة محبته والإنابة إليه الناشئة عن معرفته بأوصافه، وعن مشاهدة إحسانه ومنّه، فالمؤمن يتقلّب في لذات الإيمان وحلاوته المتنوعة، ولهذا كان الإيمان مسلياً عن المصيبات مهونا للطاعات ومانعاً من وقوع المخالفات، جاعلاً إرادة العبد هواه تبعاً لما يحبه الله ويرضاه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وقد وصف النبي ﷺ بالطعم والذوق والوجد والحلاوة ما في القلوب من الإيمان، فقال في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن العباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي الله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبياً**»، فهذا ذائق طعم الإيمان، وهو ذوق بباطن قلبه، يظهر أثره إلى سائر بدنه».

نبينا ﷺ حذّرنا أن يكون صيامنا وقيامنا عادة وجدنا الناس وأهلنا يجتمعون على فعله ففعلناه، فقال ﷺ كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**من صام رمضان إيماناً وإحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه**» متفق عليه.

(١) جامع المسائل المجموعة الأولى ص١٢٢.





قال الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله[1]: «إن الواجب على المسلم أن يصوم إيماناً واحتساباً لا رياء ولا سمعة ولا تقليدا للناس أو متابعة لأهله أو أهل بلده، بل الواجب عليه أن يكون الحامل له على الصوم هو إيمانه بأن الله قد فرض عليه ذلك، واحتسابه الأجر عند ربه في ذلك، وهكذا قيام رمضان يجب أن يفعله المسلم إيماناً واحتسابا لا لسبب آخر، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»، «ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه»».

فشأن المسلم أن يستبق الخيرات في شهر الطاعات طلبا لتكفير السيئات ورفعة الدرجات، ويزكي نفسه حقيقة لا يطلب أن يزكيه الناس بما يرونه من صيامه وقيامه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾[النساء: ٤٩].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[2]: «أي إذا كانوا إنما حملهم على تزكية نفوسهم ومدحها، خوف أن لا يعرف مقدارهم ومنزلتهم فليعلموا أن الله هو المزكي لمن يشاء من خلقه، وهو الذي تزكى بترك القبائح وفعل الخيرات، والله تعالى شكور حكيم، فإن كانوا أزكياء حقيقة فلابد أن يظهر الله ذلك وإن لم يظهروه، فإنه لا يظلم فتيلا».

(١) مجموع الفتاوى البازية (ص١٥/ ١٦).
(٢) المواهب الرّبانية من الآيات القرآنية ص٢٧.




كثير من الناس يستقبل رمضان بشراء أنواع الأطعمة، وهذا لا بأس فيه إذا لم يكن فيه سرف، ولم ينس حق إخوانه الفقراء والمساكين، ولم تكن نهمته في الطعام تلذذا، وإنما يقصد بذلك التقوي به على طاعة الله، لكن أكثرنا إلا من شاء الله ورحم يغفل عن إستقبال رمضان بالتوبة النصوح، قال الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله مبينا صفة إستقبال رمضان[1]: «أن يستقبله المسلم بالفرح والسرور والاغتباط وشكر الله أن بلّغه رمضان، ووّفقه فجعله من الأحياء الذين يتنافسون في صالح العمل، فإن بلوغ رمضان نعمة عظيمة من الله، ولهذا كان النبي ﷺ يبّشر أصحابه بقدوم رمضان مبيّناً فضائله وما أعد الله فيه للصائمين والقائمين من الثواب العظيم، ويشرع للمسلم استقبال هذا الشهر الكريم بالتوبة النصوح والاستعداد لصيامه وقيامه بنية صالحة وعزيمة صادقة».

مقصود الصيام الصدق مع الله وإخلاص العمل له ظاهراً وباطناً، لا يكفي من ذلك عمل الجوارح الظاهرة، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، ثم بيّن سبحانه مقصود ذلك: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة: ١٨٩]، وتأمل تنبيه النبي ﷺ على هذا في خصوص الصيام والقيام: «من صام رمضان إيماناً وإحتساباً»، «**من قام رمضان إيماناً وإحتساباً**»، قال بن القيم رحمه الله[2]: «قيامه بصورة العبودية الظاهرة مع

(١) مجموع الفتاوى البازية (١٥/ ٩ - ١٠).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤٦ - ١١٤٧).



تعرِّيـه عن حقيقة العبودية الباطنـة مما لا يُقرِّبه إلى ربه، ولا يوجب له ثوابه وقبول عمله، فإن المقصود إمتحان القلوب وابتلاء السـرائر، **فعمل القلب هو روح العبودية ولُبُّها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسـد الموات بلا روح، والنية هي عمل القلب الذي هو مَلِكُ الأعضاء**».

الصيام شـعار للفضائل والصلاح وحسـن الخلق لذلـك قال النبي ﷺ: «**فإن سـابه أحد أو شـاتمه فليقل إني صائم**»، فمن شُـهر بالضجر والغضب فليجعل رمضان رياضة له على ترك ذلك والاتصاف بضده من الحلم وسعة الصـدر، قال العلامة محمد البشـير الإبراهيمي رحمه اللـه[1]: «لا يتوهمَّن المسـلم أن الصـوم هو مـا عليه العامّـة اليوم من إمسـاك تقليدي عن بعض الشـهوات في النهار، يعقبـه انهماك في جميع الشـهوات بالليل، فإن الذي تشـاهده من آثار هـذا الصوم العرفـي إجاعة البطن، وإظمـاء الكبد، وفتور الأعضاء، وانقباض الأسـارير، وبذاءة اللسـان، وسـرعة الانفعال، واتخاذ الصوم شـفيعاً فيما لا يحب الله من الجهر بالسـوء مـن القول، وعذراً فيما تبدر به البوادر من اللجاج والخصام والأيمان الفاجرة!!

كلا، إن الصـوم لا يكمل ولا تتم حقيقته، ولا تظهر حكمته ولا آثاره إلا بالفطام عن جميع الشـهوات الموزَّعة على الجوارح، وللأذن شـهوات في

(١) آثار العلامة الإبراهيمي (٣/ ٤٧٦).




الاستماع، وللعين شهوات في امتداد النظر وتسريحه، وللسان شهوات في الغيبة والنميمة، ولذّات في الكذب واللغو التزوير: وإن شهوات اللسان لتربو على شهوات الجوارح كلها، وإن له ضراوة بتلك الشهوات لا يستطيع حبسه عنها إلا الموفَّقون من أصحاب العزائم القويّة، وأن تلك الضراوة هي التي هوّنت خطبه حتى على الخواص فلم يعتبروا صوم اللسان من شروط الصوم، وأعانهم على ذلك التهوين تقصير الفقهاء في تعريف الصوم، وقصرهم إياه على الإمساك عن الشهوتين، وافتتانهم بالتفريعات المفروضة، وغفلتهم عما جاء في السنَّة المطهرة من بيان لحقيقة الصوم وصفات الصائم».

ومع الأسف في هذه الأيام يفتعل البعض الأذى للصائم ليضجره عوضا عن أن يعينه على الطاعة، وما هذا شأن الصحابة خيار الخلق رضي الله عنهم بعد النبيين عليهم السلام، فقد كان المفطرون من الصحابة يخدمون الصائمين ليدركوا أجرهم وثوابهم.



الدرس الرابع
الدربة على الطاعات

مـن لم يعتد الصيام طوال العام ربما يجد مشـقة في أول يوم يصومه من رمضـان، لكنه مع التصبر والمصابرة يألف هذه العبادة، ولا ينقضي الشـهر إلا وهو قد ألفه لا يجد له كلفة.

قال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه اللـه[1]: «الصيام لا يكلّف من وفّقـه اللـه، ولهـذا حثّ النبـي ﷺ على السـحور وتأخيره، فكأن الإنسـان قـدّم غداءه وأخّر عشـاءه، فإذا تسـحّر، مضـى معظم النهار أو كله، ونفسـه لا تطلب شـيئاً، ولهذا إذا تمرن الإنسان عليه، لم يكلفه، حتى إن الناس في آخر رمضان لا يتكلفون منه، بل إذا طلع، فقدوه، لإلفهم إياه».

فالسـعيد من يتلمح مثل هذا ويستعمله في سائر أنواع الطاعات المفرّط في فعلها، فإنه إذا بدأ في فعلها فإن الشـيطان ينازعه في ذلك، ويُثقّلها عليه ويوسـوس له أنها نوافل حتى يضيّعها، فإذا بادر إلى فعلها، واسـتذكر كيف أن نظائـر هـذه الطاعات كالصيّام يسـرّها الله له حتى ألـف فعلها بل وفرح بفعلها أوجب له ذلك الصبر على الطاعات.

فالأعمـال بأنواعها الدينيـة والدنيوية لابد لها من صبـر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

(١) شرح عمدة الأحكام (٢/ ٦٠٢)




[آل عمران: ٢٠٠]، وقال النبي ﷺ: «**وانتظار الصلاة إلى الصلاة ذلك الرباط ذلكم الرباط**»[١].

وكذلك الشأن في قيام الليل، فإن من يبدأ قيام الليل في رمضان ولم يكن من عادته قيامه فإنه يجد لذلك كلفة، فإذا جاهد نفسه وألزمها هذه الطاعة فقد سلك بها إلي سعادتها، وإذا غلبه هواه وآثر الكسل والدعة ضيّع هذه الطاعة العظيمة خصوصاً في رمضان التي هي من موجبات تكفير السيئات.

وإعلم أيها المسلم أنك إذا صدقت مع الله وبذلت الأسباب وجاهدت نفسك على قيام الليل هوّنه الله عليك، ويسرّه لك حتى يكون من أحب الطاعات إليك.

قال ابن القيم رحمه الله[٢]: «أوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه على عباده، وشرائعه التي شرعها هي قرة العيون، ولذة القلوب، ونعيم الأرواح وسرورها، وبها شفاؤها، وسعادتها، وفلاحها، وكمالها في معاشها ومعادها».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[٣]: «من الأمور المهمة لطالب العلم أن يتخذ من ليله وقتاً ولو قليلاً يصلي فيه ويتهجّد، فيعتني به ويتعود عليه».

(١) رواه مسلم (رقم ٥٣٤).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٧٧).
(٣) وصايا وتوجيهات لطلبة العلم (١/ ٥٠٧).





وقال[1]: «فإذا عوّد نفسه على ذلك وكرّره ألفه وصار خلقا له وعادة».

وقال ابن القيم رحمه الله مبيناً أثر الدربة على الطاعات في تصييرها سجايا[2]: «أن يعوِّد باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة الظفر فتقوى حينئذ همّته، فإن من ذاق شيء قويت همّته في تحصيله، والاعتياد كممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تجد قوى الحمّالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد، بخلاف البزّاز والخيّاط ونحوهما، ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقويَ فيه باعث الشهوة، ومتى عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد».

فالصيام مدرسة في تكميل الإنسان لما يتجمل به الصائم من الصبر على طاعة الله وعن محارمه، وما يزكي القيام إخلاص المؤمن في مناجاة ربه خصوصاً إذا صار هذا خلقاً له في سائر دهره فيناجي ربه خلوة في غير حضور الناس كما هو الشأن في رمضان، فتزكو نفسه بالإخلاص، ويكون صادق الوعد مع ربه في مناجاته فيلزم عهده وميثاقه في طاعته في النهار، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله معلقاً على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١ - ٢][3]: «نبّه الله تعالى فيها على حال رسوله

(١) وصايا وتوجيهات لطلبة العلم (١/ ٥٠٨).

(٢) عدّة الصابرين ص٦٧.

(٣) المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص١٥ - ١٦.




ﷺ وكمالـه، وإتمـام نعمـة الله عليـه، وكم بين ابتـداء أمـره وانزعاجه من الوحي، وتدثره من شـدة ما يلقى، وبين آخر أمره حين أتم الله أموره كلها، ولذلك أمره بتكميل نفسه وتكميل غيره، وأرشده إلى ما ينال به ذلك: وهو القيـام التام على وجه النشـاط والتعظيـم لربه، وتكبيره فـي باطنه، وتطهير أعمالـه وثيابه الظاهـرة، وترك كل شـر ودنس، واسـتعمال روح الأعمال، وهو الإخلاص في كل شيء، حتى في العطاء، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: ٦]، ثم أرشده إلى ما يعينه على كل الأمور، وهو الصبر لوجه الله، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ٧]».

والصيـام يـدرّب الإنسـان على الصبـر الذي ينـال به كل خيـر، ويضيّق مجاري الشـيطان فيمسـك الإنسـان عن الشـر، ويتدرّب الإنسـان على أن يعيش للأمه لا لنفسـه، فهو إن جاع أو عطش بإختياره لله، استشـعر حاجة فقراء المسلمين الذين ألزمهم قضاء الله وقدره الجوع طوال العام.

قال الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله(١): «ويجب على المسلم أن يصون صيامـه وقيامه عمّا حرّم الله مـن الأقوال والأعمال، لأن المقصود بالصيام هو طاعة الله سـبحانه، وتعظيم حرماته، وجهاد النفس على مخالفة هواها فـي طاعة مولاهـا، وتعويدها الصبر عمّا حرّم اللـه، وليس المقصود مجرد ترك الطعام والشـراب وسائر المفطرات، ولهذا صحّ عن النبي ﷺ أنه قال:

(١) مجموع الفتاوى البازية (٤ – ١٥).



«الصيام جُنَّة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل إني صائم»، وصح عنه ﷺ أنه قال: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

فعُلم بهذه النصوص وغيرها أن الواجب على الصائم الحذر من كل ما حرَّم الله عليه والمحافظة على كل ما أوجب الله عليه، وبذلك يُرجى له المغفرة والعتق من النار وقبول الصيام والقيام».

وقال الراغب الأصبهاني رحمه الله[1]: «فالمتدّرب في فعل الخير المتقوي فيه قد يصير بحيث يكون له من الله تعالى واق يحفظه من الأفعال القبيحة، ويحثه على الأفعال الحسنة، وهذا معنى العصمة، وعلى ذلك نبّه تعالى في صفة أوليائه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]، وكذلك قال: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]، والمتدرب بفعل الشر المتقوي فيه قد يصير بحيث يكون له بما ارتكبه من القبائح باعث يبعثه على الأفعال القبيحة، ويحثه على الأفعال السيئة، ويسدُّ عليه طرق الأفعال الحسنة، وعلى ذلك نبّه تعالى في صفة أعدائه بقوله: ﴿لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧]».

---

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص١٨٨ -١٨٩.




وشأن المسلم أن يكون ذا عزم في طاعة ورشد، ولذلك كان النبي ﷺ يسأل ربه ذلك ويقول: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد»(١).

وإياك أن تكون لك همّة في شؤونك الدنيوية وحظوظك الشهوانية، ولا تكون لك همّة في فعل الطاعات وإستباق الخيرات فتكون ممن قال الله فيه: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ۝٦٣﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وتكون والعياذ بالله كمن يجيب دعوة الوليمة ولا يجيب دعوة الأذان، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب ليحُطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذَّن لها، ثم آمر رجلاً فيؤَّم الناس، ثم أخالف إلي رجال فأُحرِّق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقا سمينا، أو مرماتين حسنتين - لشهد العشاء»(٢). والمرماتان اللحم الزهيد بين الضلوع.

فتفكر عبدالله في آفات الكسل وعاقبته فيما يقطعك عن الخير فإن ذلك من أسباب تشميرك للفوز بالجنة، فإن النبي ﷺ قال: «ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة».

---

(١) رواه أحمد

(٢) رواه البخاري كتاب الأذان باب وجوب صلاة الجماعة (ص١٠٦ - رقم ٦٤٤)، ومسلم كتاب المساجد باب فضل صلاة الجماعة (ص٢٦٣ - رقم ١٤٨١).

فكسل يقطعك عن الجنة لا خير فيه، فاتركه وإلزم العمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩]، فالجنة لا تنالها بالتمني ولا بالتحلي ولكن بالعمل.

فالكسل يقطع الإنسان عن خيري الدنيا والآخرة، واستثقال الطاعات والتأخر عنها شعبة من شعب النفاق فاحذره، قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦]، والعبد بنفسه يختار الكسل على أداء حق الله وسلوك طريق الجنة، فلا يزال يتأخر عن الخير حتى ينقطع عنه، والعياذ بالله، قال النبي ﷺ: «**لا يزال أقوام يتأخرون حتى يؤخرهم الله**»[(١)].

فبادر إلى أداء الفرائض واستباق الخيرات وفعل الطاعات واقهر دواعي البطالة والكسل تكن عاقبتك جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال ابن القيم رحمه الله في كيفية المبادرة إلى الطاعات[(٢)]: «وهذه لا تتم إلا بثلاثة أشياء: **أحدها**: أن يكون العود طيباً، فأما إذا كانت الطبيعة جافية

(١) علقه البخاري بصيغة التمريض كتاب الأذان باب الرجل يأتم بالأمام، ورواه مسلم كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف (ص ١٨٥ - رقم ٩٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) الرسالة التبوكية ص٩٠




غليظة يابسة تعسُرَ عليها مزاولة ذلك علماً وإرادةً وعملاً، بخلاف الطبيعة المنقادة الليّنة السلسة القياد، فإنها مستعدة إنما تريد الحرث والبذر.

الثاني: أن تكون النفس قوية غالبة قاهرة لدواع البطالة والغي والهوى، فإن هذه أعداء الكمال، فإن لم تقو النفس على قهرها وإلا لم تزل مغلوبة مقهورة.

الثالث: علم شأن بحقائق الأشياء، وتنزيلها منازلها، يميّز به بين الشحم والوَرَمَ، والزجاجة والجوهرة».

فلا أظنك أيها المسلم تريد لنفسك أن تنغمس في نار جهنم غمسة واحدة، فضلاً عن أن تمكث فيها، كل ذلك لإيثار الكسل على الجد في طاعة ربك وأداء حقه.

ولا يتأتى لك عبدالله القيام إلى الطاعات إلا بمخالفة النفس فيما تدعو إليه من إيثار البطالة والكسل على الطاعة والعمل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١]، فإقامة النفس على طاعة الله، وأطرها على ذلك بمجاهدتها عن دواعي الخمول والكسل هو الجهاد في طاعة الله، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال[1]: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله**».

(١) رواه أحمد (٦/ ٢١ - ٢٢)، والترمذي كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً (رقم ١٦٢١)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه العلامة الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٢/ ٨١ - رقم ٥٤٩).





فالإنسان إذا أقبل على الله أقبل الله عليه ويسرّ له فعل الطاعات، وهيأ له أسباب إلف الطاعة ومحبتها فصارت قرة عين له، لا يرى لها كلفة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ - ٧]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[1]: «ولهذا مدح الله من نهى النفس عن الهوى، وذلك يدلّ على أن الهوى يميل إلى ما هو ممنوع منه، وأن من عصى هواه كان محموداً عند الله عز وجل».

وقال أيضاً[2]: «إن الدين هو الطاعات التي تصير عادة وديدنا وخلقاً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وفسره ابن عباس رضي الله عنهما بالدين».

فمن أعظم الأمور على تيسير أداء الطاعات هو الإستعانة بالله على ذلك، فالشأن إذا أن تستعين بالله وتستهديه وتدعوه أن ييّسرك لكل خير، وأن يجنبّك كل شر، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧]، والنبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «يا معاذ! إني أحبك، فلا تدعنَّ أن تقول في كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[3]،

---

(١) فتح الباري (١/ ٥٨).
(٢) فتح الباري (١/ ١٠١).
(٣) رواه أحمد وأبو داود وصححه ابن خزيمة والألباني.



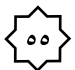

ولذلك نقول في صلاتنا في كل ركعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، فنحن نستعين بالله على طاعته وعبادته، فلا حول ولا قوة إلا بالله، والعبد يجد أثر هذه الكلمة في قضاء حوائجه وطاعة ربه، قال ابن القيم رحمه الله[1]: «هذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال الصعبة، وتحمُّل المشاق، والدخول على الملوك، ومن يُخاف، وركوب الأهوال.

ولها أيضاً تأثير عجيب في دفع الفقر، كما روى ابن أبي الدنيا عن الليث ابن سعد عن معاوية بن صالح عن أسد بن وداعة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله مائة مرة في كل يوم لم يصبه فقر أبداً».

وكان حبيب بن مسلمة يستحب إذا القي عدوا، أو ناهض حصنا قول: لا حول ولا قوة إلَّا بالله، وإنّه ناهض يوما حصنا فانهزم الروم، فقالها المسلمون وكبرَّوا، فانصدع الحصن».

❊ ❊ ❊

(١) الوابل الصيّب ص١٨٧.



الدرس الخامس
مدرسة في الإخلاص

رمضان مدرسة في الإخلاص، فالصيام سرٌّ بين العبد وربه لا يطّلع عليه إلا الله عز وجل، كما أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَان إيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِر لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ قَامَ رَمَضَان إيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِر لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[2].

وهذان الحديثان دالان على أن الإخلاص يُكفّر الذنوب، قال أبو حازم رحمه الله[3]: «عند تصحيح الضمائر تُغفر الكبائر، وإذا عزم العبدُ على ترك الآثام أتته الفتوح».

والعمل الصالح له شرطان: الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة للنبي ﷺ كما قال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل رحمه الله: «أخلصه وأصوبه». وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥]. فقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، هذا شرط الإخلاص، وقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾، هذا شرط

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان (ص٩ - رقم ٣٨)، ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (ص٣٠٨ - رقم ١٧٨١).
(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان (ص٩ - رقم ٣٧)، ورواه مسلم كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (ص ٣٠٨ - رقم ١٧٧٩).
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية (١/ ١٧٥ - رقم ١٤).

المتابعة، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴿١٢٥﴾ ﴾[النساء: ١٢٥]، فقوله، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ هذا شرط الإخلاص، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ هذا شرط المتابعة.

والنية شأنها عظيم، فهي أصل العمل وروحه، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الله لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكم وَأَجْسَادِكم، ولَكِنْ يَنظر إِلَى قُلُوبِكمْ**»، ونوح عليه السلام، لما أراده قومه أن يطرد من آمن به لأنهم فقراء، أجابهم عليه السلام بقوله كما ذكر الله عنه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[هود: ٣١]، وفي صحيح مسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهنَّ أن النبي ﷺ لما ذكر الجيش الذي يغزو الكعبة فيُخسف به، فقالت أمهات المؤمنين: كيف يُخسف بهم وفيهم من ليس منهم، قال: «**يُبْعَثون عَلَى نِيَّاتِهم**».

والنية الصالحة تُنمي العمل كما قال النبي ﷺ: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ ونِيَّة**»، رواه البخاري ومسلم، وقال عبدالله بن المبارك رحمه الله: «رب عمل صغير تُعظمه النية، ورب عمل كبير تُصغره النية»(١).

والإخلاص يُنمي العمل الصالح لصاحبه حتى بعد وفاته، فهذا الإمام البغوي رحمه الله قال عنه الحافظ الذهبي رحمه الله: «بُورك له في تصانيفه لقصده الصالح»(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٠).

(٢) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٢٥٨).





وهذا الإمام مالك رحمه الله لما صنَّف كتابه «الموطأ» صنَّف غيره نظير كتابه من بعض الوجوه فأُخبر الإمام مالك بذلك، فقال: «يبقى ما كان لله»، قال أبو موسى المديني رحمه الله معلقاً: «فصار كتاب مالك مثل الشمس في الشهرة وكثرة النسخ، وكتاب غيره قلَّ من يعرفه، ويعزُّ وجوده»(١).

والنية مفتاح لكل خير فإنها تُصيّر العادات عبادات وطاعات فينقلب العبد بذلك بإذن الله بحسنات كالجبال؛ لذلك قال داود الطائي رحمه الله: «رأيت الخير كله إنما يجمعه حُسن النية».

والنبي ﷺ أرشد أمته إلى أهمية استحضار احتساب النية فيما يزاوله الإنسان من أموره المعيشية وحياته الضرورية، وأنه بذلك يصير عبادة بعد أن كان صاحبه غافلاً عن ذلك، فالنبي ﷺ لما زار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في مرضه قال له: «**حَتَّي مَا تَجْعل فِي فيِّ امْرَأَتِكَ صَدَقَة**»(٢).

والإنسان الصالح نيته صالحة، فظاهره وباطنه سواء، قال مطرف رحمه الله: «إن العبد إذا استوت سريرته وعلانيته، قال الله: هذا عبدي حقّاً»(٣).

والناس طبقات باعتبار توافق الظاهر والباطن: صنف ظاهره وباطنه

---

(١) إتحاف السالك (ص ١٤٢).
(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحِسْبة (ص ١٣ - رقم ٥٦).
(٣) رواه وكيع في الزهد (٢/ ٨٤٨).




سواء، وهؤلاء هم المؤمنون المتقون، وصنف ظاهرهم الإيمان وبواطنهم تنطوي على الكفر، فهؤلاء هم المنافقون حقّاً، وصنف ظاهرهم وباطنهم سواء في الغالب، إلا أنه تقوم بهم أحياناً، بعض شعب النفاق العملي لا الاعتقادي، فهؤلاء خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

والسلف الصالح كانوا حريصين على تجريد الإخلاص لله وحده، وإخفاء العمل طلباً لصيانته عما يفسده من الرياء والسمعة، قال محمد ابن واسع رحمه الله: «لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بلّ ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته»[1].

وقال أيضاً: «إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به».

وقال أبو حازم سلمة بن دينار: «اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك»[2].

ولشدة حرص السلف على إخفاء أعمالهم وإيهام عدم القيام بالطاعة أصلاً، فقد كان أيوب السختياني يقوم الليل كله، فيخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته، كأنه قام تلك الساعة[3].

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٠٠)
(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٧).



والتحديث بالطاعة قد لا يدلّ على فساد النية إذا سلم من آفة الكبر والعجب والفخر، وقصد غرضاً صحيحاً كالتحدث بنعمة الله، فالنبي ﷺ قال لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**أَلَمْ أُخْبَرُ أَنَّك تَقُومُ اللَّيلَ وتَصومُ النَّهَارَ**» متفق عليه، وقال عمرو بن ميمون الأودي رحمه الله: «مَن قام لورده من الليل فلا بأس أن يُحدّث به الثقة من إخوانه»(١).

وأحياناً قد يُظهر العبدُ العملَ لغرض صالح وهو حمل الناس وتنشيطهم على هذا الفعل فهذا حسن، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١]، والصحابي الذي تصدَّق بُصرة من مال على قبيلة مضر لما نزلت بهم الفاقة فلما رآه الصحابة تتابعوا في الصَّدقة عليهم فقال النبي ﷺ: «**مَن سَنَّ سُنَّة حسنةً فَلَهُ أجرهاَ وأجْر مَنْ عَمل بِهَا مِنْ دُونَ أنْ ينقص مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئاً**»(٢).

وقد يتحدث المسلم بطاعته من باب إظهار نعمة الله، فهذا ابن المنكدر كان يقوم في جوف الليل فيقول: كم من عين الآن ساهرة في رزق، وكان يتوضأ من الليل فيرفع صوته بذكر الله، فيقول أهله أو غيرهم: لِمَ ترفع صوتك؟ فقال: جاري هذا يرفع صوته بالبلاء، وأنا أرفع صوتي بالنعمة والعافية(٣).

---

(١) تفسير القرآن للسمعاني (٦/ ٢٤٦).
(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة (ص ٤١٠ - رقم ٢٣٥١).
(٣) تاريخ ابن أبي خيثمة (٢/ ٢٦٢).

والإنسان أبصر بسريرته من غيره، فإذا تعبَّد لله وقصد وجهه، فإن الشيطان يُوسوس له ليبطل عبادته من جهة القصد فيوقعه في الرياء، أو يُوسوس للمخلص أنه مرائي حتى يدع العمل، فالمؤمن في جهد وبلاء مع شيطانه، فليجرد العمل لله وليدحر وساوس الشيطان ولا يدع العمل.

قال عبدالرحمن بن شريح رحمه الله: «مَن قام إلى شيء من الخير لا يريد به إلا الله ثم عرض له من يريد أن يرائيه بذلك أعطاه الله بالأصل ووضع عنه الفرع، ومن قام إلى شيء من الخير لا يريد به إلا المراءاة ثم فكَّر أو بدا له يحول آخر ذلك لله أعطاه الله الفرع ووضع عنه الأصل»(١).

وهنا لا بد من توضيع الإشكال في أحاديث ربما توهم البعض أنها تنافي الإخلاص، منها حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فوالله إن محمداً يُعطي عطاء من لا يخاف الفقر، فقال أنس رضي الله عنه: «إن كان الرجلُ ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يُسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»(٢).

قال الوزير ابن هبيرة رحمه الله: «وفي هذا الحديث أيضاً النهي عن التنقير عن مقاصد التائبين والاقتناع منهم بما يُظهرونه، ثم التلطف في

(١) قيام الليل لابن أبي الدنيا (١/ ٣٠٢ - رقم ٢٧٨) موسوعة ابن أبي الدنيا.
(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب في سخائه ﷺ (ص ١٠٢١ - رقم ٦٠٢١).



غرس الإخلاص في قلوبهم بالتدريج والتعليم رجاء أن يصيروا إلى ما يُحب المؤمن، وقد لا يفطن إبليس لإفساد هذا التوصل الحسن؛ لأن الشيطان يرى إسلام من يُسلم أو توبة من يتوب لملاحظة حال من الدنيا يوهن إسلام المسلم وتوبة التائب، فلا يحرص على إغواء المسلم أو التائب عن هذا الإسلام والتوبة المعروفين، ويري العالم أن يغش حصولهما في قربهما منه بحيث تنالهما سهام الموعظة، وتبلغهما قوارع تذكيره، وتبصيرهما الحق بعينه، فإذا بدا لهما الحق في كمال صورته وصباحة وجوهه، عاد كل واحد منهما خصماً للشيطان مخلصاً في خصومته له، فحينئذٍ يرى الشيطان خسران صفقته في كونه رضي منهما بذلك الإسلام والتوبة الموسومين، راجياً أن يهلكهما بما جعله الله عز وجل سبب فلاحهما، فهذا معنى قولنا: وقد لا يفطن إبليس لإفساد هذا التوصل الحسن، وهذا دليل على أن إسلام المسلم لعاجل الدنيا يُسمى مسلماً، ومثل هذا إن مات في مهلة النظر فإن له ما للمسلمين»[1].

وكما أن النبي ﷺ تألف الأعرابي بما أعطاه من غنم فإن الأنبياء من قبله كانوا يُحركون الناس بالدنيا إلى الدين، قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]، قال قتادة رحمه الله:

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ٣٣٧).




«علم أن القوم أصحاب دنيا فحرّكهم بها ليؤمنوا»[1].

وتجوز إضافة أعمال البر إلى أربابها، وليس ذلك بقادح في إخلاصهم، ففي الصحيحن من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: وفيه قوله: «مسجد بني زريق»، وبوّب عليه البخاري باب جواز قول مسجد بني فلان، وقال الحافظ ابن الملقن رحمه الله: «وليس إضافة المسجد إلى بني زريق إضافة تمليك وإنما هي إضافة تمييز»[2].

وتحسين العمل كذلك إن قصد به إتقان العمل لا الرياء كان طاعةً وقربةً.

فالنبي ﷺ لما أخبر أبا موسى الأشعري رضي الله عنه سروره وإعجابه بقراءته، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «لو أعلم أنك تستمع لقراءتي لحبّرته لك تحبيراً»[3]، وكذلك جودة التحضير للدروس إذا كان الشيخ محتسباً على أنها عبادة ويبذل أقصى جهده لتبليغ شرع الله ورفع الجهل عن المسلمين فهذا عمل صالح، وإن قصد الرياء وأن يُقال: «عالم» فهذا أول من تسعّر بهم النار يوم القيامة كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) تفسير القرآن للسمعاني (٦/ ٥٦).

(٢) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١٠/ ٣٥٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن (ص٩٠٣ – رقم ٥٠٤٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (ص ٣٢١ – رقم ١٨٥٢).



ولكـن مع هذا فينبغي للعبد أن يتحفظ ويسـدّ كل طريق قد يفسـد النية، فـإن القلب قد يكون صحيحاً فلا تزال ترد عليـه الواردات والخواطر حتي ربما شاب النيّة شائبة خفية، فالسعيد من احتاط لدينه.

قال أبـو عبدالله الأنطاكـي: «اجتمع الفضيل والثـوري، فتذاكروا، فرَّق سـفيان وبكي، ثم قال: «أرجو أن يكون هـذا المجلس علينا رحمة وبركة، فقـال لـه الفضيـل: لكني يا أبـا عبدالله أخـاف أن لا يكون أضـرَّ علينا منه، ألسـت تخلصـت إلي أحسـن حديثك وتخلصـت أنا إلي أحسـن حديثي، فتزينت لي، وتزينت لك؟

فبكى سفيان، وقال: أحييتني أحياك الله»»[1].

وقـال الربيع بن صبيح: «كنا عند الحسـن، فوعـظ فانتحب رجل، فقال الحسن: أما والله ليسألنك الله يوم القيامة ما أردت بهذا»[2].

وعـن الحسـن البصري قال: قال رسـول اللـهﷺ: «**مَا مِـنْ عَبدٍ يخطب خطبة إلَّا والله عز وجل سَـائله عَنْهَا يَـوم القِيامَة مَا أَرَادَ بِهَا**»[3]، فكان مالك إذا حدّث بهذا الحديث بكى، حتى ينقطع، ثم يقول: تحسبون أن عينيَّ تقرُّ بكلامي عليكم، وأنا أعلم أن الله سائلي عنه يوم القيامة ما أردت به.

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٣٩).
(٢) رموز الكنوز (١/ ٥٨٨).
(٣) رموز الكنوز (١/ ٥٨٨).




وقال سفيان الثوري رحمه الله: «البكاء عشرة أجزاء، جزء لله وتسعة لغير الله، فإذا جاء الذي لله في العام مرة فهو كثير»[1].

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[2]: «البكاء نوعان: بكاء متكلف ومصطنع، فهذا لا يفيد، والتباكي غير البكاء المصطنع، بعض الناس لا يبكي بل يجعل صوته كأنه يبكي، وليس التكحل بالعينين كالكحل، وبكاء آخر من لين القلب، وهذا مفيد، لأنه صادر من القلب ومن الإيمان».

وأحياناً قد يشعر الإنسان ببعض من يراه ويشاهده أنه يتكلف في تحسين ظاهره مما قد لا يتوافق مع باطنه، وقد تكلّم الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله في شأن من يتعاطى الخشوع ظاهراً مجرد صورةً دون حصوله حقيقةً، فقال: «ومتى تكلف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه، كان ذلك خشوع النفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه، كما قال بعضهم: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع»، فمن أظهر خشوعاً غير ما في قلبه فإنما هو نفاق على نفاق»[3].

والنية قد يحتفّ بها من القرائن ما يُفصح عنها، فهذا النبي ﷺ لما اعتكف

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٥٨).
(٢) تفسير سورة المائدة (٢ / ٢٨١ - ٢٨٢).ؤ
(٣) الخشوع في الصلاة (ص١٣ - ١٤).



بادرت إحدى نسائه فضربت لها خباءً في المسجد لتعتكف، فتبعتها سائر نساء النبي ﷺ فضربن أخبية لهن، فقال النبي ﷺ: «**آلبِر أَرَدتُنَّ؟**»[1].

والسلف مع صلاح بواطنهم كانوا يتهمون نياتهم، قال شعبة رحمه الله: «ما شيء أخوف عندي من أن يُدخلني النار من الحديث»، قال الحافظ الذهبي رحمه الله معلقاً: «كل من حاقق نفسه في صحة نيته في طلب العلم يخاف من مثل هذا، ويودُّ أن ينجو كفافاً»[2].

وإصلاح النية أمر شاق ليس باليسير؛ لذلك قال سفيان الثوري رحمه الله: «ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نيتي؛ لأنها تتقلب عليَّ»، وقال يوسف بن أسباط: «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد»[3].

ولا يعارض هذا ما جاء عن بعض السلف أن تجريد الإخلاص لله وحده أيسر من مصانعة المخلوقين، قال أبو حازم سلمة بن دينار رحمه الله: «لا يُحسن عبد فيما بينه وبين الله، إلا أحسن الله فيما بينه وبين العباد، لمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها، إنك إذا صانعته مالت الوجوه كلها إليك، وإذا استفسدت ما بينه شنئتك الوجوه كلها»[4].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتكاف، باب الأخبية في المسجد (ص٣٢٦ - رقم ٢٠٣٤)، ومسلم، كتاب الاعتكاف، باب متى يدخل مَن أراد الاعتكاف معتكفه (ص٤٨٣ - رقم ٢٧٨٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢١٣).
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٠٠).

فتجريد الإخلاص لله يسير باعتبار أنك تصانع وجهاً واحداً لا شريك له، تعرف ماذا يريد منك، والمشقة في ذلك ظاهرة لمجاهدة الخواطر الشيطانية التي ترد على القلب، وأما مراءاة الناس فهي أشق؛ لأن الناس لا يرضيهم شيء، وما يرضيهم اليوم يُسخطهم غداً، وأهواءهم كثيرة متقلبة، فمن جعل قصده ونيته تبعاً لأهواء الخلق أصابه الشقاء الدنيوي والأخروي، فهذا المراد بالمشقة، وضدّه اليسر في إرضاء الواحد الأحد الذي لا شريك له. والعبد معان على الإخلاص، والنية الصالحة ثمراتها عظيمة، فقد روى أبو نعيم في الحلية والخطيب في تاريخ بغداد من حديث النواس بن سمعان مرفوعاً: «نية المؤمن خير من عمله، ونية الفاجر شرّ من عمله»، وروى القضاعي كما في مسند الشهاب من حديث أنس مرفوعاً بلفظ: «نية المرء أبلغ من عمله».

وقال يحيى بن أبي كثير رحمه الله: «تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل»[(١)].

قال في معناه الحافظ العلائي رحمه الله: «فُسر ذلك بأن المؤمن يُخلّد في الجنة وإن كان مدة عمله الصالح متناهية؛ لأن نيته كانت لو أبقى أبد الآباد مستمراً على الإيمان، فجوزي على ذلك بالخلود في الجنة، كما أن الكافر مخلد في النار، مقابلة لنيته أنه لو عاش ما عاش مستمراً على الكفر»[(٢)].

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٠).
(٢) المجموع المذهب (١/ ٧٠).

من أجل هذا يرى بعض العلماء أن تجريد الإخلاص لله عز وجل أجلّ الطاعات وأفضلها، قال يوسف بن أسباط رحمه الله: «إيثار الله عز وجل أفضل من القتل في سبيله»[1].

ومن ثمرات حسن النية أنها تكفيك عدوان الظالمين والباغين، قال أبو حازم المديني رحمه الله: «لا تعادين رجلاً ولا تناصبه حتى تنظر إلى سريرته بينه وبين الله، فإن يكن له سريرة حسنة، فإن الله لم يكن ليخذله بعداوتك، وإن كانت له سريرة رديئة فقد كفاك مساوئه، ولو أردت أن تعمل به أكثر من معاصي الله لم تقدر»[2].

❊ ❊ ❊

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص».
(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٩٨).




الدرس السادس
الـذِّكْـر

ذكر الله حياة القلوب قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۝١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وهو من أسباب طمأنينة القلوب وانشراح الصدور، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، وذكر الله أكبر من كل شيء كما قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ۝٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها»(١).

وذكر الله من أجلّ الطاعات وأفضل العبادات، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا عَملَ آدميٌّ عَمَلاً أَنْجَى لَهُ مِن عَذَابِ اللهِ مِن ذكر الله تَعَالَى»**(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»**؟ قَالُوا: بَلَى يَارسُول الله. قَالَ: **«ذِكْرُ اللهِ»**(٣).

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٨).
(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣٩) وصحّحه الألباني.
(٣) رواه أحمد (٦/ ٤٤٧).



والذاكـرون الله هم السـابقون، فعن أبي هريرة رضـي الله عنه عن النبي ﷺ أنـه قال: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً، وَالذَّاكِرَاتُ**»[1].

ومـن يذكر الله يذكره الله وكفى بذلك فضلاً ونعمة لمن يعقل ذلك قال تعالـى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وفي الصحيحيـن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ فيما يرويه عن ربِّه: «**إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»[2].

وذكـر الله يُكفرّ الذنوب ويحط الخطايـا حطّاً، ففي الصحيحن أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»[3].

والله عز وجل أمر موسى عليه السلام وهو كليمه أن لا يفتر عن ذكره هو وأخـاه هارون، قـال تعالى مخاطباً إياهـم: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾ [طه: ٤٢]، أي: لا تفترا عن ذكري.

---

(١) رواه مسـلم، كتـاب الذكر والدعاء والاسـتغفار، بـاب الحث على ذكر اللـه (ص١١٦٦ - رقم ٦٨٠٨).

(٢) رواه البخـاري، كتـاب التوحيد، بـاب ويحذركم الله نفسـه (ص١٢٧٣ - رقم ٧٤٠٥)، ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل ذكر الله (ص١١٦٩ - رقم ٦٨٣٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح (ص ١١١٢ - رقم ٦٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح (ص ١١٧١ - رقم ٦٨٤٢).




ولا أحد يستغني عن ذكر الله، فهذا زكريا، جعل الله آيته أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة، فصمت لسانه عن كل شيء إلا عن ذكر الله، قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: «لو كان أحد يستغني عن الذكر لكان زكريا، قال الله عنه: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١].

وذكر الله من أسباب الثبات أمام أعداء الله إنسيهم وجنيهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

قال ابن القيم رحمه الله في أثر الذكر في مواجهة الأعداء: «ويُفرِّق أيضاً ما اجتمع على حربه من جند الشيطان، فإن إبليس لا يزال يبعث له سريَّة، وكلما كان أقوى طلباً لله سبحانه وتعالى وأشد تعلقاً به وإرادة له كانت السَّريَّة أكثف وأعظم شوكة، بحسب ما عند العبد من مواد الخير والإرادة، ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر»[(١)].

والعبد يجتهد أن يلازم ذكر الله على كل أحواله، قالت عائشة رضي الله عنها إن النبي ﷺ يذكر الله على كل أحواله[(٢)].

---

(١) الوابل الصيب (ص١٥٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (ص١٦٠ - رقم ٨٢٦).

وذكر الله عز وجل من صفات عباده المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ومع هذا ينبغي للمسلم أن لا يغفل عن ذكر أول النهار وآخره لئلا يُكتب من الغافلين، قال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الروم: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [غافر: ٥٥]، والإبكار: أول النهار، والعشي: آخره.

قال مجاهد لقي الزبير عبيد بن عمير، فقال: أين كنت؟ قال: كنت متصبحا! قال: ما بلغك أن الأرض ضجت إلى ربها من نوم العلماء عليها قبل طلوع الشمس؟![1].

وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه: جئتك اليوم بعد صلاة الصبح فلم أجدك، فحسبتك نائما، فقال: ما أحب أن تحسبني أنام في ذلك الوقت، فإن الصحابة كانوا لا ينامون بعد صلاة الصبح حتى يعلموا من أين تطلع الشمس[2].

وقال سالم بن عبدالله: يكره الكلام بعد الصلاة إلى طلوع الشمس، ولقد رأيت نافعا، وموسى بن ميسرة، وسعيد بن أبي هند يتفرقون بعد أن يطلع

(١) الدعاء المأثور للطرطوشي ص ١٥٠.
(٢) الدعاء المأثور للطرطوشي ص ١٥٢.




الصبح، فيجلسون للذكر وما يكلم أحد منهم صاحبه اشتغالا بذكر الله[1].

فالسلف لا يعدلون بذكر الله بعد الفجر شيء أبداً، قال الأوزاعي رحمه اللـه: «كان السـلف إذا صـدع الفجـر أو قبله كأنمـا على رؤوسـهم الطير، مقبليـن على أنفسـهم حتى لو أن حميماً لأحدهم غـاب عنه حيناً ثم قدم ما التفت إليه، فلا يزالون كذلك حتى يكون قريباً من طلوع الشـمس، ثم يقوم بعضهـم إلى بعـض فيتحلّقون، وأول مـا يفيضون فيه أمـر معادهم وما هم صائرون إليه، ثم يتحلقون إلى الفقه والقرآن»[2].

وقـال ابن القيم رحمه الله: «ومن المكروه عندهم - أي: عند السـابقين بالخيـرات - النـوم بيـن صلاة الصبح وطلوع الشـمس، فإنـه وقت غنيمة، ولليسـر في ذلك الوقت عند السـالكين مزية عظيمة، حتى لو سـاروا طول ليلهم لم يسـمحوا بالقعود ذلك الوقت حتى تطلع الشمس، فإنه أول النهار ومفتاحـه، ووقـت نزول الأرزاق، وحصول القسـم، وحلـول البركة، ومنه ينشـأ النهار، وينسـحب حكم جميعه علـى حكم تلك الحصـة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر»[3].

وكذلـك يجب الاعتنـاء بآخر النهار قبل غروب الشـمس لأنـه به يُختم عمـل الإنسـان، فليُختـم بعمل صالح وبذكـر الله حتى لا يُكتـب العبد من

(١) الدعاء المأثور للطرطوشي ص ١٥٢.

(٢) إنارة الفكر (ص ٩٥).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٦٩ - ٣٧٠)، ط - دار الحديث - القاهرة.





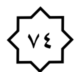
الغافليـن، قـال ابن المبارك رحمه اللـه: «بلغنا أنه من ختم نهـاره بذكر الله كُتب نهاره كله ذكراً».

قال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله: «وهذه من الآداب التي ينبغـي للعبد أن يراعيها حق رعايتهـا، وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، خصوصاً طَرَفَي النهار، مخلصاً خاشـعاً متضرعاً، متذللاً ساكناً، متواطئـاً عليه قلبه ولسـانه، بـأدب ووقار، وإقبـال على الدعـاء والذكر، وإحضـار لـه بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يسـتجيب دعاء من قلب غافل لاه»[1].

وذكر الله هو عبودية القلب، وهو مفتاح الخير كله، فإن العبد إذا كر الله استنار قلبه بذكر الله، وذهبت عنه الغفلة، ورحلت عنه الوساوس، وأصبح القلب حيّاً صالحاً، فتنبعث الجوارح على الإتيان بطاعة الله وعبادته.

قـال ابـن القيم رحمه الله: «إن الذكر شـجرة تُثْمـر المعارف والأحوال التي شـمَّر إليها السـالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم لثمرتها، فالذكر يثمر المقامـات كلها من اليقظة إلـى التوحيد، وهو أصل كل مقام وقاعدته التي ينبنـي ذلك المقـام عليها، كما يُبنى الحائط على أُسِّـه وكما يقوم السـقف

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٩٢).






على حائطه. وذلك أن العبد إن لم يستيقظ لم يُمكنه قطع منازل السير، ولا يستيقظ إلا بالذكر كما تقدم، فالغفلة نوم القلب أو موته»[(١)].

والذكر من أيسر العبادات وأسهلها فليس فيه مال يُبذل ولا أعناق تُضرب ولا مشقة تُكابد، بل هي كما قال النبي ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وبحمده، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»[(٢)].

ومع أن هذه العبادة خفيفة ميسرة إلا أنها ثقيلة في الميزان كما قال النبي ﷺ: «**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ**»، رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

فالحقيقة: المغبون من أجهد نفسه فيما يلهيه عن ذكر الله ونسي ذكر الله الذي يسّره لعباده، فمن رغب عن الخير فهو الذي أبعد نفسه، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۝٦٧﴾ [التوبة: ٦٧].

وذكر الله براءة من النفاق، فإن المنافقين كما نعتهم الله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢]، قال كعب: «من أكثر ذكر الله بريء من النفاق».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «فمن أكثر ذكر الله، فقد باينهم في أوصافهم، ولهذا خُتمت سورة المنافقين بالأمر بذكر الله، وأن

(١) الوابل الصيب (ص١٥٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ونضع الموازني القسط ليوم القيامة} (ص ١٣٠٥ - رقم ٧٥٦٣).



لا يُلهي المؤمن عن ذلك مال ولا ولد، وأن من ألهاه ذلك عن ذكر الله، فهو من الخاسرين.

قال الربيع عن أنس، عن بعض أصحابه: علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لن تحب شيئاً إلا أكثرت ذكره»[1].

والإنسان لو تزاحمت عليه الطاعات أو تشعبت فذكر الله جماع الخير كله، فعن عبدالله بن بسر رضي الله عنه قال: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أتشبث بِهِ، قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللهِ عز وجل**»[2].

ونحن قد ذكرنا أن العبد لو تشعبت عليه الطاعات فإن الذكر جماعها، والذكر أنواع، فأفضله كلمة التوحيد، والحمد يجمع كل أنواع الذكر لأنه وصف المحمود بصفات الكمال محبةً وتعظيماً وإجلالاً، ويدخل في ذلك كلمة التوحيد دخولاً أوليّاً.

ومن الأذكار ما هو أولى بحق بعض الناس لحاجته إليه أكثر من غيره، فقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار»؟

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥١٦).
(٢) رواه أحمد (٤/ ١٨٨)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر (ص٧٧١ – رقم ٣٣٧٥)، وصحَّحه ابن حبان (٢/ ٩٢).






فقــال: إذا كان الثـوب نقيّـاً فالبخور ومـاء الورد أنفع له، وإن كان دنسـاً فالصابون والماء الحار أنفع له، فكيف والثياب لا تزال دنسة؟!»[1].

وكذلك قال العلماء: الذكر المضاعف أفضل من الذكر المفرد، قال ابن القيم رحمه الله: «تفضيل سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشـه ومداد كلماته على مجرد الذكر بسـبحان الله أضعافا مضاعفة، فإن ما يقوم بقلب الذاكر حين يقول سبحان الله وبحمده عدد خلقه من معرفته وتنزيهه وتعظيمه لله من هذا القدر المذكور من العدد أعظمُ مما يقوم بقلب القائل سـبحان الله فقط. وهذا يُسـمَّى الذكر المضاعف وهو أعظم ثناءً من الذكر المفرد»[2].

ومـن اللافـت جدّاً أن ننبِّـه أن الأعمال والطاعات كلهـا تنقطع إذا دخل أهـل الجنة الجنة، وأهل النار النار، إلا الذكر فإن أهل الجنة يُلهمون الذكر والتسبيح كما جاء في صحيح مسلم، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه اللـه: «الذكـر لا فراغ له ولا انقضـاء، والأعمال تنقطع بانقطـاع الدنيا، ولا يبقـى منها شـيء في الآخرة، والذكـر لا ينقطع، المؤمن يعيـش على الذكر ويموت عليه، وعليه يُبعث»[3].

❊ ❊ ❊

(١) الوابل الصيب (ص٢٣٣).
(٢) المنار المنيف (ص٢٦ - ٢٧).
(٣) لطائف المعارف (ص٣٠٣).



الدرس السابع
فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه

فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»(١).

فهذا الحديث وما في معناه فيه بيان حقيقة الصيام وهي كما جاء في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣]، فليس المقصود بالصيام الدربة على ترك شهوة البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، بل المقصود تحقيق التقوى في ترك المحرمات وفعل الطاعات.

فالانكفاف عن الطعام والشراب المقصود منه تضييق مجاري الشيطان، فتضعف لذلك الأسباب الموجبة لتسلط الشيطان التي تحصل عادة مع الشبع والبطر.

والمقصود من الصيام وحصول الجوع أن يستكين العبد فلا يبغي ولا يظلم ولا يؤذي غيره، هذا هو المفروض أن يكون الجوع قد أسكنه.

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم (ص ٣٠٦ - رقم ١٩٠٣).




والمقصود من الصيام هو أن يتخلى القلب لذكر الله، ويلين وتذهب عنه القسوة التي غالباً ما تحصل مع الشبع، قال المروذي للإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله: «يجد الرجل من قلبه رقّة وهو يشبع؟ قال: ما أرى»[1].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «ما شبعت منذ عشرين سنة»، قال البيهقي رحمه الله معلقاً: «وهذا لأن الشبع يُقسي القلب، ويغطي بعض العقل، ويُثقل البدن من الاجتهاد في العبادة، وهو عند أهل الحقائق غير محمود»[2].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: «فضول الدنيا خسران يوم القيامة»[3].

فالصادق مع الله هو الذي إذا ذهبت عنه أسباب المعصية ومعارضات الطاعة أقبل إلى الله مبادراً ومسابقاً إلى فعل الخيرات، مغتنماً هذه المنح والأسباب، متعرضاً لرحمة الله مبتغياً فضله ورضوانه.

فالشياطين في رمضان تُصفّد، وأبواب النيران تُوصد، وتُفتح أبواب الجنان، ويجتمع الناس على الطاعات ومن أعظمها قيام الليل، فهل يُعقل أن يكون الرجل تقيّاً، ويكون رمضانه كسائر الشهور؟!!

تثاقل عن الطاعات، إقامة على المحرمات، بغي واستطالة وأذى لعباد الله المؤمنين.

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٦٩).
(٢) مناقب الشافعي (٢/ ١٦٧).
(٣) سير السلف الصالحين (٣/ ١١٠٣).





فمـن الغريب العجيـب أن يكفّ العبد عن الطعام والشـراب، ولا يكفّ عن لحوم المسلمين!!

قـال الحافـظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «قال بعض السـلف: أهون الصيام ترك الشـراب والطعام، وقال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: إذا صمت فليصم سـمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجـار، وليكـن عليك وقار وسـكينة يوم صومـك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

إذا لـم يكن في السـمع مني تصـاون وفي بصري غضَّ وفـي منطقي صمت

فحظي إذاً من صومي الجوع والظما فإن قلت أني صمت يومي فما صمت.

وقـال النبـي ﷺ: «**رب صائم حظّـه من صيامه الجـوع والعطش، ورب قائم حظّه من قيامه السهر**».

وسـر هـذا: أن التقرب إلى اللـه تعالى بترك المباحـات لا يكمل إلا بعد التقـرب إليـه بترك المحرمات فمـن ارتكب المحرمات ثم تقـرب إلى الله تعالـى بترك المباحات كان بمثابة مـن يترك الفرائض ويتقرب بالنوافل وإن كان صومـه مجزئـاً عند الجمهور بحيـث لا يؤمر بإعادتـه، لأن العمل إنما يبطـل بارتـكاب ما نُهـي عنه فيه لخصوصـه دون ارتكاب ما نُهـي عنه لغير معنى يختص به هذا هو أصل قول جمهور العلماء.




وفـي مسـند الإمـام أحمـد أن امرأتين صامتا فـي عهد النبـي ﷺ فكادتا أن تموتـا مـن العطش فذُكر ذلك للنبي ﷺ فأعرض، ثـم ذُكرتا له فدعاهما فأمرهمـا أن تتقيـآ فقاءتا ملء قدح قيحـاً ودماً وصديداً ولحمـاً عبيطاً فقال النبـي ﷺ: «**إن هاتيـن صامتا عمـا أحل الله لهما وأفطرتـا على ما حرم الله عليهمـا، جلسـت إحداهما إلى الأخـرى فجعلتا تأكلان فـي لحوم الناس**» ولهـذا المعنى والله أعلم ورد في القرآن بعد ذكر تحريم الطعام والشـراب علـى الصائم بالنهار ذكر تحريم أكل أموال النـاس بالباطل فإن تحريم هذا عام في كل زمان ومكان بخلاف الطعام والشـراب فكان إشـارة إلى أن من امتثـل أمر اللـه في اجتناب الطعام والشـراب في نهار صومـه فليمتثل أمره فـي اجتناب أكل الأموال بالباطل فإنه محرم بكل حال لا يُباح في وقت من الأوقات»[(١)].

ولو أخذنا نزن الأمور بموازين السلف فيما يُعد من فضول الكلام لعلمنا حقيقة ما نحن فيه من التفريط، والتهاون بأمر الكلام.

قـال عطـاء رحمه اللـه: «كانـوا يكرهون فضـول الـكلام، وكان يَعُدّون فضـول الكلام مـا عدا كتاب اللـه أن تقـرأه، أو أمراً بمعـروف، أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك بما لا بدّ لك منه»[(٢)].

(١) لطائف المعارف (ص١٦٣ - ١٦٤).
(٢) الآداب الشرعية (١/ ٤١).





فياله من معيار دقيق، فما الذي جعل هؤلاء القوم يملكون زمام ألسنتهم، ويحكمون وثاقها، فلا تنطلق إلا بكلام الله، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو في ضرورات الأمور المعيشية؟!

إنه الإيمان والتقوى والخوف من الله الذي ملأ قلوبهم حقّاً حتى زجرهم عن إطلاق ألسنتهم فيما حرم الله.

وهل أوقع الناس في المهالك والعطب إلا التهاون في أمر اللسان، فتخرج الكلمة ولم يُلق لها بالاً، وهي عند الله عظيمة.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخطِ اللهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفاً**».

وغيبة الناس، والطعن فيهم، إنما هي أخلاق اللئام السفلة، قال عدي ابن حاتم رضي الله عنه: الغيبة مرعى اللئام.

وقال أبو عاصم النبيل رحمه الله: لا يَذكر في الناس ما يكرهونه إلا سفلةٌ لا دين لهم[1].

وقال العلامة السعدي رحمه الله: «فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتليء من مساويء الأخلاق»[2].

(١) الآداب الشرعية (١/ ٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٠١).






وقد حذَّر الله من الغيبة والنميمة ونفّر منها أشد التنفير، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «شبه أكل لحمه ميتاً، المكروه للنفوس غاية الكراهة، باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً فاقد الروح، فكذلك فلتكرهوا غيبته وأكل لحمه ميتاً»(١).

ووعيد غيبة الناس أليم شديد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟، قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ**»(٢).

والغيبة من كبائر الذنوب، فهذه عائشة رضي الله عنها قالت عن صفية رضي الله عنها: إنها قصيرة، فقال لها النبي ﷺ: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَ بِهَا الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**»(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٦٧).
(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة (ص ٦٨٨ - رقم ٤٨٧٨)، وقال أبو داود: وحدثناه يحيى بن عثمان عن بقية، ليس فيه أنس.
(٣) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة (ص ٦٨٨ - رقم ٤٨٧٥)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب حديث: «لو مزج بها ماء البحر» (ص٥٦٩ - رقم ٢٥٠٢، ٢٥٠٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.



وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**».

فقوله ﷺ: «**وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ**» أي: ما يُعذبان في أمر شاقٍّ عليهما، وإن كان هو من كبائر الذنوب، ومن أسباب عذاب القبر، كما أشار إلى ذلك شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله في مجالس شهر رمضان ص ٧١.

ومما يدلّ على أن الغيبة والنميمة من كبائر الذنوب سوى ما تقدم، ما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَا يَدخُل الجَنَّة قَتَّات**»، وفي لفظ: «**نَمَّام**».

وكل هذا الوعيد الشديد في الغيبة والنميمة لما يترتب عليه من الفساد والضرر للمجتمع، فالغيبة والنميمة تُفرّق بين الأخ وأخيه، والزوج وزوجه، وتجعل الناس متباغضين متعادين، إذا التقوا حصلت الوحشة والنفرة والكراهية.

قال يحيى بن أبي كثير رحمه الله: «يفسد النمام في يوم ما لا يُفسده الساحر في شهر»[(١)].

(١) تفسير السمعاني (٦/ ٢١).




ولذلك نجد الشارع قد أغلق كل طريق يفضي إلى الغيبة والنميمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**»(١).

واعلم أن خوض الرجل فيما لا يعنيه أمارةٌ على سخط الله عليه، قال معروف الكرخي رحمه الله: «علامة مقت الله عز وجل العبد أن تراه مشتغلاً بما لا يعنيه من أمر نفسه»(٢).

ومع ما زجر الشارع عن الكلام المحرم من الغيبة والنميمة ونحوه، فإنه أمر بأن لا نقول إلا الخير، قال تعالى: ﴿**وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣]، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتُ**».

فهكذا ينبغي أن تُعوّد لسانك أن لا تقول إلا خيراً، وكلما هّمت نفسك الأمارة بالسوء بقول الباطل وغيبة الناس فالجمها وازجرها وراغمها على قول الخير.

قال عبدالله بن المبارك رحمه الله: «إذا ما همَّمت بالنطق في الباطل فاجعل مكانه تسبيحاً»(٣).

---

(١) رواه مسلم في مقدمة صحيحه (ص٨ - رقم٧).
(٢) مختصر الحجة على تارك المحجة (٢/ ٤٣٣).
(٣) تهذيب اقتضاء العلم العمل (ص٥٠).



نحـن في زمـن كثرت فيه الفتن، والإنسـان بشـر لابد أن يُلمَّ بشـيء من الذنـوب ممـا كتبه الله عليه مما هو من لوازم بشـريته وانتفـاء العصمة عنه، فالعاقل يشـتغل بعيوبه عن عيوب الناس، ولذلك قيل للرَّبيع: «ما نراك تذمُّ أحداً؟ فقال: ما أنا على نفسي براض فأتفرَّغ من عيبها إلى غيرها، إن الناس خافوا الله تعالى على ذنوب العباد وأمنوه على ذنوبهم»[(١)].

ولقد أحسن القائل:

لسانك لا تَذْكُرْ به عورة امرئٍ * فكلك عوراتٌ وللناس ألسنُ**

ولعلنا فـي مثل هذا الزمان الذي تزينت فيه المعاصي، وسـهل مقارفتها علـى وجه لا نظيـر له فيما أعلم أحـرى أن نُعمل قول النبي ﷺ: «**لَيَسَـعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيَتِكَ**»[(٢)].

قـال الفضيـل بن عياض رحمـه الله: «ليـس هذا زمـان كلام، هذا زمان تضرّع، وبكاء، واستكانة، ودعاء كدعاء الغريق، إنما هذا زمان احفظ لسانك واخف مكانك، ويصلحك علم قليل، وخذ بما تعرف ودع ما تُنكر»[(٣)].

قـال ابن فرحـون المالكي رحمه الله: «فاتق الله وليردنك عيب نفسـك

(١) غالية المواعظ (ص٥٤٢).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٤٨)، والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان (ص ٥٤٨ – رقم ٢٤٠٦)، وقال: حديث حسن، حسَّنه العلامة الألباني رحمه الله.

(٣) مختصر الحجة (٢/ ٤٨٣).




عن عيوب الناس، ولا تكن كمثل الذباب الذي لا يقرح على المواضع السليمة من الجسد ولا يترك عليها، ويقع على الجروح فينكيها»[1].

فعليك بخاصة نفسك، والزَمْ وصيَّة النبي ﷺ الجامعة لابن عباس رضي الله عنهما حين قال له: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعك**»، فقوله «**مَا**» هنا اسم موصول، المعنى: احرص على الذي ينفعك، فتفيد العموم، أي: أحرص على كل ما ينفعك.

ولا تغترّ بكثرة من هان عليه الكلام فتكون من الهالكين، فلنا في سلفنا الصالح أسوة حسنة في كفّ الألسنة وترك الخوض فيما لا يعنيهم.

قال أحمد بن حنبل رحمه الله: «ما رأت عيناي مثل وكيع، يحفظ الحديث جيداً، ولا يتكلم في أحد»[2].

وقال الضحاك بن مخلد أبو عاصم النبيل رحمه الله: «منذ عقلت أن الغيبة حرام، ما اغتبت أحداً قط»[3].

وقال الإمام البخاري رحمه الله: «أرجوا أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً»[4].

---

(١) الزاهر في بيان ما يجتنب من الخبائث الصغائر والكبائر (ص٢٣١).
(٢) تهذيب الكمال (٣٠/ ٤٧٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٨٢).
(٤) تحفة الإخباري (ص٢٠٤).



وقال بعضهم: صحبتُ الربيع بن خثيم عشرين عاماً، ما سمعت منه كلمةً تُعاب[1].

وقال عبدالرحمن بن مهدي في حماد بن سلمة رحمه الله: «أحسن ملكة نفسه ولسانه، ولم يُطلقه على أحد، ولا ذكر خَلْقاً بسوء، فسلم حتى مات»[2].

واحذر مجالس الغيبة، فإذا خاض القوم في غيبة أحد فلا تخض معهم، وأنكر عليهم، وإذا عجزت عن ذلك فاخرج من هذا المجلس فإنه مجلس سوء.

قال العلامة محمود الآلوسي رحمه الله: «الأشبه أن يكون حُكُم من استمع الغيبة كحكم من اغتاب إذا كان له قدرة على دفعها، ولذا قالوا: إن الإنكار على المغتاب واجب، فقد روى جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا مِنَ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَءاً مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، وَإِلَّا خَذَلَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنَ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتِهِ، إِلاَّ نَصَرَهُ اللهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ**»»[3].

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٥٩).
(٢) تهذيب الكمال (٧/ ٢٦٤).
(٣) غالية المواعظ (ص٥٤٠).




واعلـم أن الغيبـة تتغلـظ بحسـب المغتاب، قـال والدنـا العلامة محمد الصالـح العثيميـن رحمـه اللـه: «والغيبـة تختلـف آثامها باختـلاف آثارها وعواقبها، فمثلاً: اغتياب العلماء أشـدّ من اغتياب العوام، واغتياب الأمراء يعنـي ولاة الأمور أشـد مـن اغتيـاب العوام، واغتيـاب الأمـراء يعني ولاة الأمور أشـد مـن اغتياب من دونهـم، وبهذا نعـرف أن هذه النشـرات التي تـوزّع بين النـاس الآن أنها من الغيبة، وأن نشـرها بين النـاس من كبائر من الذنـوب، وأن الإنسـان يأثم بها إثمـاً عظيماً؛ لأنها تُوجـب أن يكره الناس من اغتيبوا في هذه الأوراق والنشرات، وأن يتمردوا عليهم، وتوجب أيضاً إيغـار الصدور، وإحداث الفتن، فهي – والعيـاذ بالله – غيبة لولاة الأمور، وهـي من أكبـر الآثام في الغيبـة، فالذي ينشـرها أو يصورهـا ويوزعها آثم فاعـل كبيـرة – والعياذ بالله – عليه إثمها وإثم كل من تأثر بها – نسـأل الله السـلامة والعافية –، لأن هذه الأمور لا شـك أنها داخلة في الغيبة: «**ذكرك أخاك بما يكره**» ثم ما مصدر هذا الكلام؟ من قال: إن هذا الكلام صحيح؟ من يقول إنه صحيح؟ ولذلك يوجد في بعض النشـرات أشـياء كلها كذب، فقد شـاهدناها نحن أنها كذب وليسـت بصحيحة فتكون جامعة بين الغيبة والبهتان – والعياذ بالله–.

وثالثاً: ماذا يترتب على نشـر هذه الأوراق، هل تصلح الأمور؟ هل يقلع الناس عما وُصفوا به في هذه النشـرات؟ أبداً لا يزيد الأمر إلا شـدة، لذلك

نـرى أن توزيـع مثل هذه النشـرات في غيبـة ولاة الأمور نرى أنـه من كبائر الذنـوب، وأن الإنسـان آثـم إذا نشـرها، أو صوّرها، أو وزعهـا بين الناس، لمـا فيها مـن انطباق حقيقـة الغيبة عليهـا، لأن حقيقة الغيبـة «**ذكرك أخاك بمـا يكره**»، وهذا لا شـك أنه من ذكرك أخاك بمـا يكره، ثم يتولد على هذه الغيبة مفاسد عظيمة، ليست كما لو اغتبت زيداً أو عمراً، فالأمر يكون عليه شـخصياً، لكن هـذا يترتب عليه أنه ضـرر على المغتاب شـخصياً، وضرر على الأمن؛ لأنه يوجب إيغار الصدور، وكراهية ولاة الأمور، فنحن نحذر من كبيرة من كبائر الذنوب»[(١)].

ولله در الحافظ السخاوي رحمه الله فإنه لمّا كتب في التاريخ أعرض عن نشر ما يُنسب إلى الملوك والسلاطين من المعايب، وبيّن رحمه الله السبب الباعث لذلك، حيث أفاد أنه تركه ديانةً لا رغبة ولا رهبةً من مخلوق، حيث قال رحمه الله: «ذكر أناس من الملوك والأكابر يُضاف إليهم شرب الخمر، وفعل الفواحش مما تصحيحه عنهم عزيز، وهو متردد بين إشـاعة الفاحشة إن صحَّ، أو القذف إن لـم يصح، سـيما ويتضمن التهوين على أبناء جنسهم فيما هم فيه من الزلل»[(٢)].

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥١ - ٥٢).
(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ (ص٤٨).




فتأمـل مـا ذكره الحافظ السـخاوي رحمه الله من مفاسـد نشـر عورات المسـلمين «يتضمـن التهوين علـى أبناء جنسـهم فيما هم فيه مـن الزلل»، فترقيق المعاصي للمسلمين شر عظيم، ومن سعى في ذلك فعليه أوزار من هوَّن عليهم تلك المعاصي والقبائح، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «فإن ظهور عوراتهم وهن في الإسلام»[1].

فالحاصل أن الناس بشر وما من أحد إلا وفيه عيب، فالغيبة والنميمة إذا انتشـرت في مجتمع أفسدته، فالأمر كما قال سعيد بن المسيب رحمه الله: «فإنه ليس من شـريف ولا عالم ولا ذي فضل يعني من غير الأنبياء إلا وفيه عيـب، لكن من الناس من لا ينبغي أن تُذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه، وُهب نقصه لفضله»[2].



(١) الفرق بين النصيحة والتعيير (ص٣٠).
(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ (ص٧٠).

الدرس الثامن
لعلكم تتقون

ذكر الله حكمة فرض الصيام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣]، فالله عز وجل ما فرض الفرائض ليتكثر بنا من قلة، ولا ليتعزز بنا من ذلة، بل فرضها لتزكو نفوسنا وتحقق التقوى. فالله غني عن جوعنا وعطشنا، وغني عن صيامنا وقيامنا واعتكافنا وجهادنا وحجنا وذبائحنا، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٧]، فالمقصود هو امتحان العبد فإذا انقاد واستسلم لله عز وجل تحقق التقوى واجتنى العبد ثمراتها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

والتقوى هي وصية الله للأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: ١٣١]، وهي وصية النبي ﷺ لأمته، وكان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، ولما خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع يوم النحر وصى الناس بتقوى الله، وبالسمع والطاعة لأئمتهم.




وفي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه لما وعظ الناس، وقالوا لـه: كأنها موعظة مُودِّع فأوصنا، قال: «أُوصِيكُم بِتَقَوَى الله، وَالسَّمَعِ وَالطَّاعَةِ».

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه الطويل، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي، قَالَ: «**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ الأَمْرِ كُلِّهِ**»، وفي الترمذي عن يَزِيد ابْن سَلَمَةَ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِي رضي الله عنه فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي سَمِعْتُ مِنْكَ حَدِيثاً كَثِيراً أَخَافُ أَنْ يُنْسِيَنِي أَوَّلَهُ آخِرُهُ، فَحَدِّثْنِي بِكَلِمَةٍ تَكُونُ جِمَاعاً قَالَ: «**اتَّقِ اللهَ فِيمَا تَعْلَمُ**».

ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها، كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يقول في خطبته: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبدالله: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنه من اتقاه وقاه.

واستعمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً على سرية، فقال له: أوصيك بتقوى الله الذي لابد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة.

وكتب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله إلى رجل: أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن



الواعظيـن بها كثير، والعاملين بهـا قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين، كما نقل ذلك كله ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١ / ٤٠٤ - ٤٠٦).

وقد تكلّم السلف بعبارات كثيرة في معنى التقوى، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «المتقون الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهـدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به»، وقال الحسـن البصري رحمـه الله: «المتقون اتَّقوا مـا حُرِّم عليهم، وأدَّوا ما افتُرض عليهم»، وقال عمـر بـن عبدالعزيز رحمـه الله: «ليس تقـوى الله بصيام النهـار، ولا بقيام الليـل، والتخليط فيما بيـن ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حـرَّم الله، وأداء مـا افترض الله، فمـن رُزق بعد ذلك خيراً، فهو خير إلـى خير»، وقال طلق ابن حبيب رحمه الله: «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله».

وقـال ابن مسـعود رضـي الله عنه فـي قوله تعالـى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال: «أن يُطاع، فلا يُعصى، ويُذكر، فلا يُنسـى، وأن يُشكر، فلا يُكفر».

قـال ابن رجب رحمـه الله: «وشـكره يدخل فيه فعل جميـع الطاعات، ومعنـى ذكره فلا يُنسـى: ذكر العبد بقلبـه لأوامر الله في حركاته وسـكناته وكلماته فيمتثلها، ولنواهيه في ذلك كله فيجتنبها»[١].

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠١ - ٤٠٢).




قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه»[1].

وقال أيضاً: «ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهي أعلى درجات التقوى، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة: ١ - ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]»[2].

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله في الفرق بين البر والتقوى، فقال: «وأما عند اقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ٢﴾ [المائدة: ٢]، فالفرق بينهما فرقٌ بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٩ - ٤٠٠).





لنفسها، فإن البرَّ مطلوب لذاته، إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح لـه بدونه كما تقدم. وأما التقـوى فهي الطريق الموصلة إلى البر والوسـيلة إليـه ولفظهـا يدل على هذا فإنها فَعْلى، من وقـى يقي، وكان أصلها وقْوى، فقلبـوا الواو تاءً، كما قالوا تُـراث من الوراثة، وتُجاه من الوجه، وُتخمة من الوخـم، ونظائـره. فلفظها دال على أنها من الوقاية فإن المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية، فالوقاية من باب دفع الضر، والبرُّ من باب تحصيل النفع، فالتقوى كالحمية والبر كالعافية والصحة»[1].

والتقـوى تحمل علـى فعل الطاعات، وتحجز من فعـل المنكرات، قال أبو وائل: علمت أن المتقي ذو نهية، أي: تقواه تنهاه عن الفاحشة.

والمؤمنـون المتقون، ومفاتيح للخير مغاليق للشـر، قال جبير ابن نفير: كَانَ أَبُـو الدَرْدَاء رضي الله عنه يَقُولُ لِلنَّاس: «نَحْنُ أَعْرَفُ بِكُمْ مِنَ البَيَاطِرة بالـدَّواب قَـدْ عَرَفْنَا خِيَارَكُم مِنْ شِـرارِكم، أما خياركم فالـذي يُرجَى خَيرُه ويُؤمَنُ شَـرُّه، وَأَمَّا شِـرارُكُمْ فَالَّذِي لَا يُرجى خَيْره وَلَا يُؤمن شَـره وَلَا يُعتَق مُحرَّرُه»[2].

وهذا الذي ذكره أبو الدرداء رضي الله عنه في تصنيف الأخيار والأشرار

---

(١) الرسالة التبوكية (ص١٠ – ١١).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٨٦ – رقم ١٥٩)، وصحَّحه الألباني في المشكاة (٤٩٩٣).

هو حقيقة التقوى، فالتقوى هي كما سبق: كفّ الأذى، وبذل الندى، ولذلك قال النبي ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**».

فأصحاب النفوس الزكية يحبون الخير للناس، ويكفون شرورهم عن الخلق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومن أحب أن يُلحق بدرجة الأبرار، فلينو في كل يوم تطلع فيه الشمس نفع الخلق، فيما يسر الله من مصالحهم على يديه، وليطع الله في أخذ ما حلّ، وترك ما حرّم، وليتورع عن الشبهات ما استطاع، فإن طلب الحلال والنفقة على العيال باب عظيم لا يعدله شيء من أعمال البر»(١).

وقد بيّن غير واحد من السلف حقيقة التقوى من لزوم الطاعة وصنع المعروف، وكفّ الأذى عن المسلمين، فقال عبدالله بن عون: «أحب لكم يا معشر إخواني ثلاثة: هذا القرآن تتلونه آناء الليل والنهار، ولزوم الجماعة، والكفّ عن أعراض المسلمين»(٢).

وقال أبو علي الحسن بن علي الجوزجاني: «من علامات السعادة على العبد: تيسير الطاعة عليه، وموافقة السُّنة في أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح، وحُسن أخلاقه مع الإخوان وبَذْلُ معروفه للخلق، واهتمامه للمسلمين، ومراعاته لأوقاته»(٣).

---

(١) شرح حديث جبريل (ص٦٠٩).
(٢) حلية الأولياء (٣/ ٤١).
(٣) الاعتصام (١/ ١٥٢).



فالمتقون علاماتهم معروفة ظاهرة، من علاماتهم:

١ - **لزوم السُّـنة ومجانبة البدعة،** قال الشاطبي رحمه الله[١]: «الولاية لا تحصل لتارك السُّنة».

٢ - **لـزوم الطاعة،** فعن أبي موسـى الأشـعري رضي الله عنـه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الأَشْعَرِيِّينَ بِالقُرْآنِ حِنَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُو بِالنَّهَارِ**»[٢].

وقال عبدالله بن مسـعود رضي الله عنـه: «إن للإيمان بيوتاً، وإن للنفاق بيوتاً، وإن بيوت بني مقرّن من بيوت الإيمان»[٣].

ويحيـى بن معين رحمـه الله أخذ بركاب محمد بن عبدالجبار القرشـي الهمذاني فقيل له في ذلك، فقال: «ألا أفعل هذا برجل لا نراه إلا راحلاً في طلب العلم، أو وارداً من غزو، أو صادراً عن حج»[٤].

وقال الشـعبي رحمه الله: «إن كان أهل بيت خُلقوا للجنة، فهم أهل هذا

(١) الاعتصام (١/ ١٥٧) ط - مكتبة التوحيد.
(٢) رواه البخـاري، كتـاب المغـازي، باب غزوة خيبـر (ص ٧١٨ - رقم ٤٢٣٢)، ومسـلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين (ص١١٠٠ - رقم ٦٤٠٧).
(٣) تاريخ ابن أبي خيثمة (٣/ ١٦).
(٤) تهذيب الكمال (٢٠/ ٥٨٧).




البيت: علقمة بن قيس، والأسود»[1].

فبيوت المتقين معروفة، بيوت طاعة، وستر، وتلاوة قرآن، وخير.

٣ - **كف الأذى عن المسلمين**: وهذا من أوضح علامات المتقين، قال الحسن البصري رحمه الله: «إن لأهل التقوى أعلاماً يُعرفون بها: صدقُ الحديث، ووفاء بالعهد، وصلة الرَّحم، وحسُن الجوار، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة الغائلة للناس، وحسن الخلق، وسعة الحلم، واتباع العلم»[2].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «لا يكون العبد من المتقين حتى يأمنه عدوه»[3].

٤ - **الحرص على الوقت**: فالتقي يعرف أن وقته ظرف لفعل الطاعات، وأن الأعمال تُرفع كل يوم، فيحسن اغتنام الأوقات ليوافي ربه بموجبات الرضا، قال الحسن البصري رحمه الله: «ابن آدم، نهارك ضيفك، فأحسن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل يذمّك»[4].

(١) تهذيب الكمال (٢٠/ ٣٠٦).
(٢) الزهد لهناد (٢/ ٥٠٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٧).
(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ١٨٦).



٥ - الخوف من عدم قبول الأعمال: وهذا ما نعت الله به المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، يَا بِنْتَ الصِّدِيق، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يُخَافُ اللهَ عز وجل**»[١].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله في شأن خير هذه الأمة: «وكانوا يتَّهمُون أعمالهم وتوباتهم، ويخافون أنْ لا يكونَ قد قُبِلَ منهم ذلك، فكان ذلك يُوجِبُ لهم شدَّة الخوف، وكثرةَ الاجتهاد في الأعمال الصالحة. قال الحسن: أدركتُ أقواماً لو أنفق أحدهم ملءَ الأرض ما أَمِنَ لِعظم الذنب في نفسه.

وقال ابنُ عون: لا تَثِقْ بكثرة العمل، فإنَّك لا تدري أَيُقبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك، فإنَّك لا تدري كُفِّرَتْ عنك أم لا، إنَّ عملك مُغَيَّبٌ عنك كله»[٢].

٦ - الخوف من الذنوب: قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه، فقال به هكذا»[٣].

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٠٥)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنين (ص٧١٨ - رقم ٣١٧٥).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٣٨).
(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة (ص ١٠٩٧ - رقم ٦٣٠٨).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «إن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان فلا يأمن العقوبة بسببها، وهذا شأن المؤمن دائم الخوف والمراقبة، يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيء»(١).

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في عيونكم من الشعرة كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»(٢).

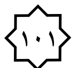
قال ابن أبي جمرة رحمه الله: «إن قلب الفاجر مظلم، فوقوع الذنب خفيف عنده ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وُعظ يقول: هذا سهل»(٣).

وقال ابن القيم رحمه الله: «والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن، ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية الجد في العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن»(٤).

٧ - محاسبة النفس: عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نُفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيّ**»(٥).

---

(١) فتح الباري (١١/ ١٠٥).
(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب مما يُتَّقى من محقرات الذنوب (ص١١٢٥ - رقم ٦٤٩٢).
(٣) فتح الباري (١١/ ١٠٥).
(٤) الجواب الكافي (ص٥٧).
(٥) رواه أحمد (٤/ ١٢٤).





وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيّنوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»[1].

وقال الحسن رحمه الله: «لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه ما أردت بكلمتي؟ وما أردت بأكلتي؟ وما أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قُدُمَا، لا يحاسب نفسه».

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: «لا يكون العبد تقيّاً، حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً من الشريك لشريكه، ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوَّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك».

وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه، ثم يقول: «حسِّ يا حُنَيفُ! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟».

وقال مالك بن دينار رحمه الله: «رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟! ألست صاحبة كذا؟! ثم زَّمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله، عز وجل وكان لها قائداً».

(١) رواه أحمد في الذهد (ص١٤٩).






قال ابن القيم رحمه الله: «وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكَّر فيها نقصاً تداركه، إما بقضاء أو إصلاح. ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية. ثم يُحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عمَّا خُلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى. ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشته يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابُدَّ أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان: لمن فعلته؟ وديوان: كيف فعلته؟

فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: ٦ - ٧]، وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب: ٨].

فإذا سُئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟»[1].

والتقوى ثمراتها عظيمة في الدنيا والآخرة، وعاقبتها خير وفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]، قال ابن القيم رحمه الله: «والمراد

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٦٥ - ١٦٦).



العاقبـة في الدنيا قبل الآخرة، لأنه ذكر ذلك عقيب قصة نوح، ونصره على قومه، فقـال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]، أي عاقبـة النصـر لك ولمن معك، كما كانت لنوح، ومن آمن معه.

وكذلـك قولـه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]، وقـال تعالـى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقـال: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال إخباراً عن يوسـف، أنه نُصر بتقـواه وصبره، فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩]، والفرقـان: هو العـز والنصر، والنجاة، والنور الذي يُفرّق بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢ – ٣].

وقـد روى ابن ماجه وابن أبي الدنيـا عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَوْ عَمِلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِهَذِهِ الآيَةِ لَوَ سِعَتْهُمْ»(١).

***

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩١٧ – ٩١٨).

الدرس التاسع
أحكـــام الـزكـــاة

أمر الله المؤمنين بأداء الزكاة فرضا وحتماً، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ (١١٠)﴾[البقرة: ١١٠]، وهي ركن الإسلام الثالث، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا**»، رواه البخاري(١).

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن وقال: «**ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فإن هم أطاعو لذلك، وإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**»، متفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢): «فمن آكد العبادات الصلاة، وتليها الزكاة، ففي الصلاة عبادته، وفي الزكاة الإحسان إلى خلقه».

(١) جرى عمل أكثر الناس عندنا إخراج الزكاة في رمضان، وهذا طيب، لأن المتصدق عليه في رمضان أكمل حالاً في الغالب منه في سائر الشهور. ومن كان حوله في غير رمضان وأراد أن يوقت في رمضان يمكنه تقديم زكاته في رمضان، ثم يكون حولاً له سائر الأعوام.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٦)

ومـن رفـق الله بعبـاده وتخفيفـه ورحمتـه أنه لـم يجعل الـزكاة في كل أصنـاف أموالهـم، ولا فـي قليله، بل فـي أصناف محـددة إذا بلغت نصابا، ومقدار الزكاة في ذلك يسـير جداً يكون سـببا في تطهير صاحبه من الشـح وتزكية نفسـه وتربيته على البذل والجود والعطاء ونفع الناس، ويكون سببا في حفظ المال من الآفات وسببا في نمائه.

قـال ابن القيم رحمه اللـه[1]: «إنه - الله - جعلها فـي أربعة أصناف من المـال، وهي أكثـر الأموال دورانا بيـن الخلق، وحاجاتهـم إليها ضرورية، أحدهـا، الـزرع والثمـار، الثانـي: بهيمـة الأنعام: الإبـل، والبقـر، والغنم. الثالث: الجوهـران اللذان بهما قوام العالم، وهما الذهب والفضة. الرابع: أموال التجارة على اختلاف أنواعها».

وأدلـة أنواع ما تجب فيه الزكاة وأنصبتها ومقادير ما يجب إخراجه كثيرة، إلا أننا نستطيع أن نذكر الحديث الجامع لذلك وهو حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس فيما دون خمسـة أوسـق صدقة، ولا فيما دون خمس ذود صدقة، ولا فيما دون خمس أواق صدقة».[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3]: «افتتح مالك رحمه الله «**كتاب الـزكاة**» فـي موطئه بذكر حديث أبي سـعيد رضـي الله عنه، لأنـه أصح ما

(١) زاد المعاد ص١٩٩.
(٢) رواه مسلم كتاب الزكاة باب ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة (ص٣٩٣ - رقم ٢٢٦٣.
(٣) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٩).




روي في الباب، وكذلك فعل مسلم في صحيحه، وفيه ذكر نصاب الورق، ونصاب الإبل، ونصاب الحب والثمر، ثم الماشية والعين».

وقال ابن المنذر رحمه الله[1]: «أجمع أهل العلم على أن الزكاة تجب في تسعة أشياء: في الإبل، والبقر، والغنم، والذهب، والفضة، والبر، والشعير، والتمر، والزبيب، إذا بلغ كل صنف منها ما تجب فيه الزكاة».

وأول شروط وجوب أداء الزكاة الإسلام قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴿٥٤﴾ ﴾ [التوبة: ٥٤].

قال العلامة محمد بن عبدالله الزركشي رحمه الله[2]: «ومن شروط الوجوب الإسلام أيضاً، بلا نزاع، أي وجوب الأداء، إذ الزكاة قربة وطاعة، والكافر ليس من أهلها، ولافتقارها إلى نية، وهي ممتنعة من الكافر، أما الوجوب في الذمة بمعنى العقاب في الآخرة فنعم».

والكافر يعاقب في الآخرة على عدم أداء الزكاة وسائر فرائض الإسلام لأنها من حقوق كلمة التوحيد، لذلك قاتل أبو بكر الصدّيق والصحابة رضي الله عنهم المرتدين الذين امتنعوا من أداء الزكاة.

قال ابن القيم رحمه الله[3]: «**شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة** <u>بالتصديق بجميع</u> أخباره وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، هو تفصيل لا

(١) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٩).
(٢) شرح مختصر الخرفي (٢/ ٤١١).
(٣) بدائع التفسير (٥/ ٢٤٣).





إلـه إلا الله، فالمصدق بها على الحقيقة الـذي يأتي بذلك كله، وكذلك لم تحصـل عصمة المال والدم على الإطـلاق إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصـل النجاة من العـذاب على الإطلاق إلا بها وبحقهـا، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها».

والـزكاة لابـد لها من النية حيـن إخراجها ولا تدخلهـا النيابة بغير ذلك، لأن الله فرّق بين نوعي دافعي الزكاة بحسـب نياتهم، فمن أداها بنية الزكاة طيّبة بها نفسـه فهي زكاة، ومن أداها مغرما فهي غير مقبولة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[الروم: ٣٩]، وقال تعالـى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴿٩٨﴾ ﴾[التوبة: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴿٩٩﴾ ﴾[التوبة: ٩٩]، وفي حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال رسـول الله ﷺ في الزكاة: «من أعطاها مؤتجراً بها فله أجرها»، رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

ومن هنا تكلم العلماء فيمن يقوم بإخراج زكاة الشركات المساهمة، قال سـماحة المفتي العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله(١): «لا ريب أنـه لابد فـي إجزاء إخراجها من نية المالك عند إخراجها أو من يقوم مقامه مـن وكيلـه إن كان جائز التصرف أو من يلي ماله إن كان غير جائز التصرف كوالـده ووصيـه ونحوهما، وحيـث كان الأمر كما يغلب علـى الظن وكما

(١) مجموع رسائل وفتاوى سماحة المفتي محمد بن ابراهيم آل الشيخ (٤/ ١١٨ – ١١٩).




يتسامع من بعض أهل السهمان عدم رضاهم بتولي مجلس إدارة الشركة لتفريق الزكاة فإنه لا يجزئ إخراج مجلس إدارة الشركة لها، لعدم الإذن من المساهمين في ذلك، بل يدفع ربح سهمان المساهمين إليهم كاملاً غير محسومة منه الزكاة، ليتولى أرباب السهمان إخراج تلك الزكاة إلى مستحقيها بأنفسهم إن كانوا جائزي التصرف أو من يلي أموال القاصرين منهم بالنية».

أما الصبي والمجنون فيخرج زكاة أموالهم وليهما، لأن الزكاة حق المال فتجب على الصغير والكبير، لا يشترط لها بلوغ مالك المال، يدل لذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن، وفيه «**إن الله افترض عليهم صدقة أموالهم تؤخذ من أغنيائهم، وتُرد على فقرائهم**» متفق عليه.

قال البغوي رحمه الله[1]: «قال: «**صدقة أموالهم**»، دليل على أن الطفل الغني يلزمه الزكاة».

وفي مناظرة أبي بكر لعمر بحضرة الصحابة رضي الله عنهم في قتال مانعي الزكاة، قال الصدّيق رضي الله عنه: «وإن الزكاة حق المال» متفق عليه، وهذا إجماع من الصحابة على أن الزكاة حق المال، كلهم أقر الصدّيق على ذلك.

(١) شرح السنة (٥/ ٤٧٣).



قال العلامة محمد بن عبدالله الزركشي الحنبلي رحمه الله[1]: «واعتمد أحمد رحمه الله على أقوال الصحابة، فقال في رواية الأثرم: خمسة من أصحاب رسول الله ﷺ يزكون مال اليتيم.

وفي الموطأ بلغه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اتجروا في مال اليتيم لا تأكله الصدقة، وفيه أيضاً عن القاسم بن محمد قال: كانت عائشة رضي الله عنها تليني أنا وأخا لي يتيمين في حجرها، فكانت تخرج من أموالنا الزكاة.

وروى الأثرم نحو ذلك عن علي، وابن عمر، وجابر رضي الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة.

إلا رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي معارضة بروايته الأخرى، ولأن الزكاة من حقوق المال، فوجبت على الصبي والمجنون، كنفقة قريبهما وزوجتيهما، وبهذا فارقت الصلاة والحج، لتعلقها بالبدن، ونية الصبي تضعف عنها».

ومن شروط الزكاة الملك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «ولابد في الزكاة من الملك».

ومن هنا نص العلماء على أنه لا زكاة في بيت مال المسلمين، فموارد

(١) شرح الزركشي على مختصر الخرقي (٢/ ٤١٤ - ٤١٥).
(٢) القواعد النورانية (١/ ٢٥٨).

الدولة المودعة في بيت مال المسلمين لا زكاة فيها، قال العز بن عبدالسلام رحمه الله[1]: «لا زكاة في بيت المال».

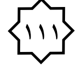
ويلتحق بهذا الكلام في الأوقاف هل يجب فيها الزكاة؟

قال العلامة المفتي محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله[2]: «إن كان الوقف على معيّنين وبلغت حصة كل منهم نصاباً وجبت فيه الزكاة، والذي يخرجها مالكها، أو وكيله بنية الزكاة، فلا تجزي بدون نية، لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**».

وإن كان الوقف على غير معيّن كالموقوف على الفقراء والمساجد والمدارس والأربطة ونحو ذلك من أعمال البر فلا زكاة فيه، لأن من شروط الزكاة تمام الملك».

ومن شروط الزكاة حولان الحول على المال، وقد جاء هذا الشرط صريحاً منطوقا به في حديث علي رضي الله عنه، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانت لك مائتا درهم - وحال عليها الحول - ففيها خمسة دراهم، وليس عليك شيء حتى يكون لك عشرون ديناراً، وحال عليها الحول، ففيها نصف دينار»، رواه أبو داود وصححه البخاري.

(١) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام (٢/ ٢٩٣).
(٢) فتاوى ورسائل سماحة العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ (٤/ ١٩).



وسنة النبي ﷺ الفعلية دالة على اشتراط الحول للزكاة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «الحول شرط في وجوب الزكاة في العين والماشية كما كان النبي ﷺ يبعث عماله على الصدقة كل عام، وعمل بذلك الخلفاء في الماشية والعين، لما علموه من سنته».

وأما الزروع والثمار فحولها وقت حصادها، قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ ١٤١﴾ [الأنعام: ١٤١]، فالزرع قبل الطيب يكون علفاً لا قوتا ولا طعاما، فإذا طاب وحان الأكل الذي أنعم الله به وجب الحق الذي أمر الله به، إذ بتمام النعمة يجب شكرها، ولابد من الوسق وهو الوزن والكيل لأن مقادير الزكاة أنصبة محددة من الله، فوزن الزرع والثمر من ضروريات ولوازم إخراج الزكاة ليتم شكر النعمة.(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ ١٤١﴾ [الأنعام: ١٤١]، لا يدل على وجوب الزكاة في كل ما خرج من الأرض، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله(٣): «هو مخصوص نوعاً، ومقدّر كمّاً».

ومن الأدلة فرضية زكاة الزروع والثمار قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ ٢٦٧﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ودليله من السنة قول النبي ﷺ: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**»، متفق عليه

(١) مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٠٤).
(٣) الشرح الممتع (٦/ ٧٢)




قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «المراد به الحبُّ الذي يقتـات ويدّخـر، فكل مكيل مدّخر مـن تمر أو حب ففيه الزكاة، بشـرط أن يبلغ خمسة أوسق، أي: ثلاثمائة صاع بصاع النبي ﷺ».

فالوسـق سـتون صاعاً، وخمسـة أوسـق ثلاثمائـة صاع، وهو اثنا عشـر وستمائه كيلو غرام[2].

وقـال ابن قدامة رحمه الله في شـرط زكاة الـزروع والثمار[3] «أن يكون مما يدّخر، لأن جميع ما اتفق على زكاته مدّخر، ولأن غير المدخر لا تكمل ماليته، لعدم التمكن من الانتفاع به في المال».

وقال ابن القيم رحمه الله[4]: «ولم يكن من هديه أخذ الزكاة من الخيل، والرقيق، ولا البغال ولا الحمير، ولا الخضروات، ولا المباطخ، والمقاثي والفواكـه التي لا تكال ولا تدّخر إلا العنـب والرطب فإنه كان يأخذ الزكاة منه جملة، ولم يكن يفرق بين ما يبس منه وما لم ييبس، والخضروات ليس فيها زكاة.

وعن معاذ رضي الله عنه أنه كتب إلى النبي ﷺ يسأله عن الخضروات،

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٦/ ١٣٤).
(٢) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٦/ ١٣٣).
(٣) الكافي (٢/ ١٣٢).
(٤) زاد المعاد ص٢٠٠





وهـي البقـول؟ فقـال: ليس فيهـا شـيء» رواه الترمـذي وقال: إسـناد هذا الحديث ليس بصحيح، وليس يصح في هذا الباب شيء[1].

وقـال الترمذي رحمه الله[2] «والعمل علـى هذا عند أهل العلم أنه ليس في الخضروات صدقة».

ووجـه حجية ذلك كما قال ابن أبـي العز الحنفي رحمه الله[3]: «وقولهم في مثله حجة لاستمرارهم على ما كانوا عليه في زمن النبي ﷺ في ذلك».

قـال الحافـظ ابن كثيـر رحمه اللـه[4]: «ولمـا تناظر أبو يوسـف ومالك بالمدينة بحضرة الرشيد في مسألة الصاع، وزكاة الخضروات، احتج مالك بما اسـتدعى به من تلك الصيعان المنقولة عن آبائهم وأسـلافهم، وبأنه لم يكن الخضروات يخرج منها شيء في زمن الخلفاء الراشدين.

فقال أبو يوسف: لو رأى صاحبي ما رأيت، لرجع كما رجعت».

وما لـم يكن فيه زكاة من أنواع الخضروات والفواكه فإن الزكاة في قيمته إذا بلـغ نصاباً، قال الزهري والحسـن: «تُزكى أثمان الخضر إذا بيعت وبلغ الثمن مائتي درهم، وقاله الأوزاعي في ثمن الفواكه».[5]

(١) جامع الترمذي ص١٦٤
(٢) جامع الترمذي ص١٦٤
(٣) التنبيه على مشكلات الهداية (٢/ ٨٦٦).
(٤) البداية والنهاية (١٠/ ١٩٥)، وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله «وهذا إنصاف منه».
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٠٢).




وفي وقت إخراج الزكاة لابد من التنبيه إلى أن نماء المال المتصل له حكمه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وربح المال مضموم إلى أصله، يزكي الربح لحول الأصل، وإذا كان الأصل نصابا عند الجمهور، وإن كان الأصل دون النصاب فتمَّ عند الحول نصابا بربحه ففيه الزكاة عند مالك رحمه الله، وإن كان معه عرض للتجارة ثم ملك ما يكمل النصاب فعليه الزكاة».

والدليل على أن نماء المال المتصل له حكمه حديث الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار، فأحد الثلاثة استعمل أجيراً على فرق من أرز، فذهب وتركه، فعمل إلى ذلك الفرق فزرعه، فصار من أمره فاشترى به بقراً، فلما جاء العامل يطلب أجره، أعطاه البقر كلها.[2]

ويجوز تقديم الزكاة إذا بلغ المال نصابا ولم يأت الحول بعد لمصلحة تقتضي ذلك كما لو كان في بعض النواحي فاقة ومجاعة أو يكون المسلمون في جهاد يحتاجون في ذلك إلى زكوات المسلمين، والدليل على ذلك تقديم العباس رضي الله عنه زكاته سنتين، قال العلامة محمد بن عبدالله الزركشي الحنبلي رحمه الله[3]: «تعجيل الزكاة داخلة في سلك تقديم الحكم بعد وجود سببه وقبل وجود شرطه، ويُشترط لتقديم الزكاة قبل الحول تمام النصاب ليوجد سبب الزكاة».

(١) مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٥).
(٢) رواه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار (ص رقم ٣٤٦٥).
(٣) شرح الزركشي على مختصر الخرقي (٢/ ٤٢٤).





وحذر العلماء من تأخير إخراج الزكاة، فقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «التعجيل فيه فائدة للمستحقين للزكاة، أما التأخير فهو على العكس، فيه ضرر على الدافع، وضرر على المدفوع إليه، فإن المال قد يتلف، ويتعلق الشيء بذمة من وجب عليه».

وإن كان في تأخير بعض الزكاة لاكلها مصلحة لا تحايلاً ولا بخلاً، كما يحصل لكبار التجار في الخليج يقصدهم المحتاجون والقائمون على إغاثة المحتاجين من المسلمين من أقطار الدنيا فلا بأس بهذا، لكن يُميّز هذا المال الزكوي عن سائر ماله في حساب خاص، ويكتب ذلك في حساباته ويُعلم خاصته وأهله، والله أعلم.

أما مقدار زكاة الذهب والفضة فهو ربع العشر، فعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم، وليس عليك شيء حتى يكون عليك عشرون ديناراً، وحال عليها الحول ففيها نصف دينار، فما زاد فبحساب ذلك، وليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول**»[2]

(١) فتح ذي الجلال والإجرام بشرح بلوغ المرام (٦/ ١٢٩).

(٢) رواه أبو داود كتاب الزكاة باب في زكاة السائمة (ص٢٣٢ - رقم ١٥٧٢)، وسبق الكلام في صحته.



وجاء في حديث أنس رضي الله عنه في الكتاب الذي كتبه له أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه في فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين، وأمر الله بها رسوله ﷺ «وفي الرقة ربع العشر».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله(١): «فائدة معرفتنا بربع العشر أنه واحد من أربعين أن يسهل استخراج الزكاة من النقدين، فإذا أردت أن تستخرجها من النقدين فاقسم ما عندك على أربعين، فما خرج فهو الزكاة.

فمثلاً: أربعون مليونا زكاتها مليون، تحصل بقسمة أربعين على واحد».

والدينار المراد به في الحديث الدينار الإسلامي ووزنه يبلغ أربعة غرامات وربع، فعلى هذا العشرون دينار تعادل خمس وثمانون غراماً من الذهب الخالص.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله(٢): «وقد حررناه فبلغ خمسة وثمانين غراماً من الذهب الخالص، فإن كان فيه خلط يسير فهو تبع لا يضر، لأن الذهب لابد أن يجعل معه شيء من المعادن لأجل أن يقويه ويصلبه، وإلا لكان لينا».

---

(١) الشرح الممتع (٦/ ١٠٢).

(٢) الشرح الممتع (٦/ ١٠٣).



والفضة مقدار نصابها وزنا جاء مصرحا به في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «**ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة**»، رواه مسلم.

والأوقيـة أربعون درهمـا، قال شـيخنا العثيمين رحمه اللـه[1]: «الدينار يسـاوي أربعة غرامات وربعاً، والدرهم يساوي سـبعة أعشار المثقال، فإذا ضربت سـبعة أعشـار في مئتي درهم يكـون الناتج مئه وأربعيـن مثقالاً من الغرامـات، وإذا ضربت في أربع غرامات وربع يخرج خمسـمائه وخمسـة وتسعون غراماً».

والأوراق النقدية أثمان تجب فيها الزكاة كالذهب والفضة.

قـال شـيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه اللـه[2]: «إن الأوراق النقدية تعتبر من الفلوس، لأنهما عوض عن النقدين يُصرف بها النقدان».

وأيهما يعتبر في نصاب النقدين: الذهب أو الفضة؟

المعتبر الأحـظ للفقراء، فإن كان ثمن أحدهما في وقت وجوب إخراج الزكاة على من ملك النقدين يبلغ نصابا عند صاحب النقدين أخذنا به.

واعتبـار الأحظ للفقراء لا يعارضه حديث معـاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له «**إياك وكرائم أموالهم**»، متفق عليه.

---

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٦/ ٥٤)
(٢) الشرح الممتع (٦/ ٩٨).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «إن بينهما فرق، فحديث معاذ رضي الله عنه فيما إذا وجبت الزكاة فلا تأخذ من أعلى المال، أما هذا فقد وجبت باعتبار أحد النقدين ولم تجب في الآخر، فاعتبرنا الأحوط باعتبار أحد النقدين، وما هو الأحوط؟ هو ما بلغت فيه النصاب إن كان ذهبا فذهب، وإن كان فضة ففضة».

وإعتبار الأحظ للفقراء في إخراج زكاة النقدين إحتياط معتبر شرعاً، لأن النقد عوض عن الذهب والفضة، والنصاب متحقق في أحدهما، وهذا التنبيه نذكره حتى لا يلزمنا أحد بتعميم الإحتياط في كل ما اختلف فيه من فرض بعض الأصناف الزكوية أو مقاديرها المختلف فيها كما في زكاة الزروع.

ومن هنا لا نختار احتياط أبي بكر ابن العربي رحمه الله في زكاة الزروع حيث قال:[2] «أقوى المذاهب وأحوطها للمساكين قول أبي حنيفة وهو التمسك بالعموم».

فإن هذا الترجيح الذي سلكه ابن العربي ظاهر الضعف، فإن قول النبي ﷺ: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**» متفق عليه، وقوله: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العُشر، وفيما سُقي بالنضح نصف العشر» رواه البخاري، بيان لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ۝١٤١﴾ [الأنعام: ١٤١]، فإحتياط ابن العربي إسقاط لبيان النبي ﷺ، وكفى بذلك بيانا لضعف هذا الاحتياط.

(١) الشرح الممتع (٦/ ١٤٧).
(٢) نيل الأوطار (٥/ ١٤٢).



قال ابن بطال رحمه الله[1]: «وقد تناقض أبو حنيفة في هذه المسألة، لأنه استعمل المجمل والمفسر في قوله عليه السلام: «في الرقة ربع العشر»، مع قوله: «ليس فيما دون خمس أواق صدقة»، ولم يستعمله في قوله عليه السلام: «فيما سقت السماء العشر»، مع قوله: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**»، وكان يلزمه القول به».

وأما بالنسبة لزكاة الراتب الشهري فقد قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[2]: «المشهور من المذهب - الحنبلي - كما نص عليه في المنتهى والإقناع وغيرهما أنه يبتدي حولا لكل مقبوض منها على حدته، تشبيها وقياسا على ما يحصل بالميراث.

واختار الشيخ تقي الدين أن جميع أنواع الأجر المقبوضة، أنه لا يشترط فيها تمام الحول، بل يزكيها لتمام حول ماله الذي حال عليه الحول أولاً.

وقول الشيخ هو الصحيح، لأن الأجر المقبوضة جارية مجرى مكاسب الأموال الموجود أصلها، وهي أموال نامية، ومن حكمة الشارع إيجاب الزكاة في الأموال النامية، فالمرتبات التي تقبض على الوظائف والقيام بالأعمال، وكذلك الجعالات بمنزلة الأجر المقبوضة.

---

(١) شرح صحيح البخاري (٣/ ٥٣٠).
(٢) مجموع مؤلفات العلامة عبدالرحمن السعدي (٢٥/ ٣٠).




فالـذي أرى أنك إذا جـاءك رمضان تنظر ما عندك وما بقـى فتزكيه، وما استهلك في هذه المدة، مدة كل حول، فلا زكاة فيه».

وتكلم كذلك العلامة السعدي رحمه الله في زكاة الأموال التي في ذمم النـاس فقال[1]: «أما الذي له أموال متفرقة بيـن أيدي الناس، أو في ذممهم مـن جهة زكاته، فالذي في ذمم المعسـرين الذين ليـس لهم وفاء، لا تجب زكاته، والذي عند غيرهم وفي ذمم الموسرين، فعليه زكاته إذا تم حوله».

وعروض التجارة فيها الزكاة.

والدليل على وجوب الزكاة في عروض التجارة القرآن والسنة والإجماع، قـال تعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ ﴿٢٦٧﴾ ﴾[البقرة: ٢٦٧]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «فـالأول يتضمـن زكاة التجارة، والثاني: يتضمـن زكاة ما أخرج الله لنا من الأرض».

والدليل من السـنة حديـث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: «ليـس على المسـلم في عبـده ولا فرسـه صدقة»، رواه مسـلم، فهذا الحدث له دلالتان: دلالة منطوق، ودلالة مفهوم.

(١) الفتاوى السعدية ص ٢٠٤.
(٢) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٥).



دلالـة منطوق أن أمـوال القنية لا تجب زكاتها، ودلالة مفهوم مخالفة أنا ما أُعد للتجارة ففيه الزكاة.

قـال ابن الملقن رحمه اللـه[١] «هذا الحديث أصل في أن أموال القنية لا تجـب زكاتها، لكن قال العلماء: لا يصير المـال للقنية إلا بالنية، ولا يصير للتجارة أيضاً إلا بالنية، وزكاته متعلقة بقيمته لا بعينه».

وعن سمرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يأمرنا أن نخرج الزكاة مما نعده للبيع»، رواه أبو داود[٢].

وأما الإجماع فقد روي عن حمّاس قال: مر بي عمر رضي الله عنه، فقال: أد زكاة مالك، فقلت: مالي إلا جعاب وأدم، فقال قومها، ثم أد زكاتها[٣].

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله[٤] «اشـتهرت القصـة بلا منكر، فهي إجماع».

وقـال ابن المنـذر رحمه الله «أجمع عامة أهـل العلم على وجوب زكاة التجارة».

(١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥/ ٥٣ – ٥٤).
(٢) رواه أبو داود
(٣) .رواه أبو عبيد في الأموال (٢/ ٨١،٨٠ – رقم ١١٢١، ١١٢٢)، وإسناده ضعيف.
(٤) مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٥).




وهنا لابد من التنبيه إلى أن الخلاف الواقع بعد إجماع الصحابة في زكاة عروض التجارة لا يعتد به، فالعبرة بالإجماع السابق، قال ابن الملقن رحمه الله[1] «الظاهرية مسبوقون بالإجماع».

قال عبدالرحمن بن عبدالقاري: كنت على بيت المال، زمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فكان إذا خرج العطاء جمع أموال التجار، ثم حسبها، شاهدها وغائبها ثم أخذ الزكاة من شواهد المال على الشاهد والغائب[2].

ومجرد تصور القول بعدم وجوب الزكاة في عروض التجارة كاف في معرفة ضعفه، فغالب أموال الناس من لدن الصحابة إلى يومنا هذا في التجارة، ونماءها معلوم فتعطيل زكاتها تضييع لأكبر أنواع الأموال الزكوية.

وعروض التجارة تخرج فيها القيمة، لأن البضاعة ليست مقصودة للتاجر، فهو يتجر بما يزيد في ماله ويوجب نمائه، والقيمة تعتبر وقت إخراج الزكاة، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[3] «وتعتبر قيمتها عند تمام الحول، فلا يعتبر ما اشتريت به».

(١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥/ ٥٧).
(٢) رواه أبو عبيد في الأموال (٢/ ٨٠ - رقم ١١٢٠)، وهو حسن.
(٣) شرح عمدة الأحكام (٢/ ٥٦٥).





ونحن إذ نتحدث عن إخراج القيمة في زكاة عروض التجارة، ننبه إلى أن هذا الحكم لا يعمم في سائر الأصناف الزكوية، لأن الواجب إخراج الزكاة من جنس ما وجبت فيه إلا عند الحاجة، يدل لذلك حديث أنس رضي الله عنه أن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه كتب له فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين، والتي أمر الله بها رسوله ﷺ، وفيها «ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة وليست عنده جذعة، وعنده حقة، فإنها تقبل منه، ويجعل معها شاتين إن استيسرتا له، أو عشرين درهما، ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده الحقة، وعنده الجذعة، فإنها تقبل منه الجذعة، ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين»، رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه[1] «وللناس في إخراج القيم في الزكاة ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنها تجزيء بكل حال، كما قاله أبو حنيفة.

والثاني: لا تجزئ إلا عند الحاجة، مثل من يجب عليه شاة في الإبل وليست عنده، ومثل من يبيع عنبه ورطبه قبل اليبس.

وهذا هو المنصوص عن أحمد صريحا، فإنه منع من إخراج القيم، وجوّزه في مواضع للحاجة.

لكن من أصحابه من نقل عنه جوازه، فجعلوا عنه في إخراج القيمة روايتين، واختاروا المنع، لأنه المشهور عنه، كقول الشافعي.

(١) القواعد النورانية (١/ ٢٥٩).




وهذا القول أعدل الأقوال».

فالشريعة فرقت بين ما أُعد للتملك وما أُعد للتجارة، فما أُعد للتملك فليس فيه زكاة، وما أعد للتجارة فهو عروض تجارة تقوّم قيمتها وتخرج زكاتها، فمن اشترى أربع سيارات بقصد التملك لا تجب فيها الزكاة، ومن اشتراها للتجارة فالزكاة في قيمتها.

وكذلك من اشترى عقاراً بقصد التملك وبناؤه والسكنى فيه فليس فيه زكاة، ومن اشتراها بقصد التجارة ففيها زكاة، والدليل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه «**ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة**»، رواه مسلم.

والعقارات المعدة للتملك وتؤجر فالزكاة في ريعها، قال العلامة المفتي محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله[1] «إنما الزكاة في ريعها إذا بلغ نصابا».

والزكاة واجبة في بهيمة الأنعام، عن جابر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**ليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة**»، رواه مسلم، وقال ﷺ: «**وفي صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة شاة**»، رواه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه،

(١) فتاوى ورسائل سماحة المفتي العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ (٤/ ١٠٥).



قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1] «ولا تجب الزكاة في المواشي غير بهيمة الأنعام، وهي هذه الثلاثة: الإبل، والبقر، والغنم، ويشترط فيها: أن تكون للدر والنسل، وأما إذا كانت للتجارة، فإنها عرض زكاتها كزكاة العروض، وكذلك غيرها من المواشي إن كانت للتجارة، ففيها زكاة العروض».

واشتراط السوم لوجوب الزكاة في بهيمة الأنعام أن يكون أكثر الحول، ستة أشهر فما فوق، وذلك من رفق الله بعباده، فإن ملاك الأنعام أسقط الله عنهم زكاة أنعامهم إذا كانوا يعلفونها أكثر الحول لكثرة وشدة المؤنة عليهم، إلا ما أعد للتجارة، فإنها عروض تقوّم بكل حال وتخرج زكاتها.

والدليل على اشتراط السوم في زكاة بهيمة الأنعام حديث أنس في الصحيحين في كتاب النبي ﷺ لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في فرائض الزكاة، وفيه «**وصدقة الغنم في سائمتها**»، فقوله «**سائمتها**» مفهوم صفة، فهذا الحكم يدخل في الإبل من باب أولى، قال شيخنا العثيمين رحمه الله «اشترطت في الغنم وهي تحتاج إلى مؤونة أقل من الإبل كان اشتراطها في الإبل من باب أولى».

(١) شرح عمدة الأحكام (٢/ ٥٦١).



والبقر كالغنم والإبل يشترط فيها السوم لوجوب الزكاة، قال ابن قدامة رحمه الله[1] «لا زكاة في غير السائمة من البقر في قول الجمهور، وحُكي عن مالك أن في العوامل والمعلوفة صدقة كقوله في الإبل، وروي عن علي رضي الله عنه في صدقة البقر، قال: «وليس في العوامل شيء» رواه أبو داود، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال «**ليس في البقر العوامل صدقة**».

وصفة النماء معتبرة في الزكاة، وهذه لا توجد إلا في السائمة، والجواميس كالبقر إجماعاً حكاه ابن المنذر».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[2] «العوامل، ليس فيها زكاة، أي: الإبل التي عند شخص يؤجرها للحمل، وهذه موجودة فيما سبق قبل أن تنتشر السيارات، فتجد الرجل عنده مائة، أو مائتا بعير يؤجرها، فينقل بها البضائع من بلد إلى بلد، وإنما الزكاة فيما يحصل من أجرتها، إذا تم عليها الحول».

وكما اعتبر الشرع كلفة ما ينفقه المسلمون في علف بهائمهم، فلم يوجب الله فيها زكاة إذا كانت تعلف ستة أشهر فما فوق، فإنها

(١) وجاء اشتراط السوم منطوقا به في زكاة الإبل في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، رواه أبو داود والنسائي.
(٢) الشرح الممتع (٦/ ٥٣).



اعتبـرت هـذا المعنى كذلك فـي زكاة الزروع، فما يسـقى منها بلا مؤنة فزكاتـه العشـر، كالذي يتغذى مـن الأنهار والأمطار، وما يسـقى بمؤنة ففيه نصف العشـر.

قال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله[1] «وإذا كان بعض الوقت يسقى بمؤنة، وفي بعضه بلا مؤنة، وجب فيه ثلاثة أرباع العشر».

وزكاة البقـر نصابهـا وما يجـب فيها جاء في حديث علـي بن أبي طالب رضـي اللـه عنـه أن النبي ﷺ قـال: «**وفـي البقر فـي كل ثلاثين تبيـع، وفي الأربعين مسنة[2]، وليس على العوامل شيء**»[3].

أمـا الغنـم فزكاتهـا كما جاء فـي حديث أنس رضـي الله عنـه أن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه عنه كتب له: هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين، والتي أمر الله بها رسوله ﷺ، وفيها: «**وفي صدقة الغنم في سـائمتها إذا كانت أربعين إلى عشـرين ومائة شاة شاة، فإذا ازادت علـى عشـرين ومائة إلـى مائتين ففيها شـاتان، فـإذا زادت علـى مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شـياه، فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شـاة، فإذا**

(١) شرح عمدة الأحكام (٢/ ٥٦٢).

(٢) التبيع ما تم له سنة، والمسنّة: ما تم لها سنتنان.

(٣) رواه أبـو داود فـي كتـاب الزكاة باب في زكاة السـائمة (ص٢٣٢ – رقم ١٥٧٢)، وصححه ابن خزيمـة (رقـم ٢٢٧٠، وقال ابن القطان: سـند صحيح، نصب الرايـة (٢/ ٣٦٠)، وقال النووي رحمه الله «إسـناده حسن أو صحيح»، شرح المهذب (٦/ ٤)، وحسنه الحافظ ابن حجر رحمه اللـه فـي بلوغ المـرام (رقم ٦٧٢). والحديـث روي مرفوعا وموقوفا، قال البخـاري رحمه الله «كلاهما عندي صحيح». جامع الترمذي (ص٦٠).




كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاة شاة واحدة، فليس فيها صدقة، إلا أن يشاء ربها»، رواه البخاري.

وفي الحديث نفسه جاءت فرائض الإبل «**في كل أربع وعشرين فما دونها الغنم، في كل خمس شاة، فإذا بلغت خمسا وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى، فإن لم تكن فابن لبون ذكر، فإذا بلغت ستا وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون أنثى، فإذا بلغت ستا وأربعين إلى ستين ففيها حقة طروقة الجمل، فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة، فإذا بلغت ستاوسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل، فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين بنت لبون، وفي كل خمسين حقة، ومن لم يكن عنده إلا أربع من الإبل فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها**»[1].

وأما بالنسبة للخيل فلا زكاة فيها إلا ما أعد للتجارة لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة**»، رواه مسلم، ولحديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**وعفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق**»، رواه النسائي وأبو داود والترمذي[2].

---

(١) بنت مخاض: بكر لها سنة، بنت لبون: ما تم لها سنتان، حقة: ما تم لها ثلاث سنوات، والجذع: ماتم له أربع سنوات.

(٢) قال الترمذي: صححه البخاري، جامع الترمذي ص١٦٠، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله «إسناده حسن»، فتح الباري (٣/ ٣٨٣).



ولا زكاة في الحمير، فإن النبي ﷺ سئل عن زكاة الحمر، فقال: لم ينزل علي فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧][1].

وأما الحلي فالخلاف في وجوب الزكاة فيها قوي تتجاذبه الأدلة من الطرفين، والترجيح فيها عسر جداً لتكافؤ المرجحات، فالموجبون استدلوا لفرضية الزكاة في الحلي بالعمومات الواردة في وجوبها في الذهب والفضة كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤﴾ [التوبة: ٣٤]، قالوا: فالعموم يشمل الحلي فإنها ذهب وفضة.

وأجاب المخالفون بأن هذا العموم قد جاء ما يخصصه وهو ما كان للقنية ولم يكن للتجارة، والدليل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ليس على المسلم في فرسه ولا غلامه صدقة**»، متفق عليه.

قال أبو عبدالملك[2] «هذا الحديث أصل في المقتنيات كلها أنه لا صدقة فيها».

---

(١) رواه البخاري كتاب المساقاة باب شرب الناس وسقي الدواب من الأنهار ص٣٨١ رقم ٢٣٧١)، ومسلم كتاب الزكاة باب إثم مانع الزكاة (ص٣٩٧ - رقم ٢٢٩٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) التوضيع لشرح الجامع الصحيح (١٠/ ٤٤٨).




وأما بالنسـبة للنصوص الخاصة الواردة في زكاة الحلي فمن أهل العلم مـن يـرى أن أحاديث الطرفيـن كلها ضعيفـة وأنه لا يصح شـيء منها، قال الترمذي رحمه الله[1]: «لا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء».

وهذا الإطلاق من الترمذي انتقده عليه العلماء، فقد صح فيه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهما: أن امرأة أتت النبي ﷺ ومعهـا ابنة لها، وفـي يد ابنتها مسـكتان من ذهب، فقال لهـا: **أتعطين زكاة هذا؟** قالت: لا، قال: **أيسـرك أن يسـورك الله بهما يوم القيامة سـوارين من نار؟** فألقتهما.

والترمـذي أعل هذا الحديث لأن عبدالله بـن المثنى وابن لهيعة روياه عـن عمرو بن شـعيب وهمـا ضعيفان[2]، قال ابـن الملقن رحمـه الله[3]: «وهـذا مـن الترمذي رحمـه الله إنما ذكره لأنه لم يقع لـه الحديث إلا من طريـق المثنـى بـن الصباح وابـن لهيعة عن عمـرو، وإلا فلـه طريقة أخرى صحيحة رواها أبو داود والنسائي من حديث حسين المعلم».

وعن عائشـة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسـول الله ﷺ فرأى في يـدي فتخات من ورق، فقال: **ما هذا يا عائشـة؟** فقلت: صنعتهن أتزين لك

(١) جامع الترمذي ص١٦٤.
(٢) جامع الترمذي ص١٦٤.
(٣) البدر المنير (٥/ ٥٦٥).



يا رسـول اللـه، فقال: **أتؤدين زكاتهـن**؟ قلت: لا، أو ما شـاء الله، قال: **هو حسـبك مـن النار**، رواه أبـو داود والحاكم، وقال الحافـظ ابن حجر رحمه الله[1] «إسناده على شرط الصحيح».

وعن أم سـلمة رضـي الله عنها قالـت: كنت ألبس أوضاحـا من ذهب، فقلـت: يارسـول الله! أكنز هو؟ فقـال: **ما بلغ أن تـؤدي زكاته فزكي فليس بكنز**»، رواه أبو داود، وإسناده ليّن.

وأمـا الدليل الخاص لمن لا يـرى وجوب زكاة الحلي فهو حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «**ليس في الحلي زكاة**»، رواه البيهقي، فهذا لا يصـح مرفوعـاً إلى النبـي ﷺ، قال الحافظ ابن عبدالهـادي رحمه الله[2] «الصواب وقف هذا الحديث على جابر رضي الله عنه».

وعند المقابلة بين النصوص الخاصة للموجبين لزكاة الحلي والمسقطين لها، ترى أن أدلة الموجبين أكثر وأسند.

وأما بالنسـبة للترجيح بفقه الصحابة، فالصحابة فريقان منهم من لا يرى وجوب زكاة الحلي، ومنهم من يوجبه.

قـال الأثرم: سـمعت أبا عبدالله رحمـه الله يقول فـي زكاة الحلي: عن

(١) التلخيص الحبير (٢/ ١٧٨).
(٢) تنقيح التحقيق (٢/ ١٤٢١).






خمسة من أصحاب النبي ﷺ لا يرون فيه زكاة، وهم: أنس، وجابر، وابن عمر، وعائشة، وأسماء، رضي الله عنهم.[١]

وقال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله[٢]: «ومن أوجب الزكاة في الحلي: عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه، وعبدالله ابن عمر رضي الله عنهما»[٣].

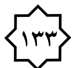
وأما الترجيح بعمل أهل المدينة فقد قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله[٤] «الصدقة واجبة من الورق فيما بلغ خمس أواق ما لم يكن حليا متخذا لزينة النساء بدليل ما انتشر في المدينة عند علمائها من أنه لا زكاة في الحلي».

وما ذكره ابن عبدالبر رحمه الله من عمل أهل المدينة معارض بضده، فقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى رضي الله عنه: مر نساء المسلمين يزكين حليهن[٥].

وقال الزهري وهو من علماء وتابعي أهل المدينة «مضت السنة أن في الحلي الزكاة»[٦].

---

(١) تنقيح التحقيق (٢/ ١٤٢١).
(٢) الاستذكار (٩/ ٧١).
(٣) يبدو عن ابن عمر رضي الله عنهما روايتان في وجوب زكاة الحلي.
(٤) الاستذكار (٩/ ٦٨ - ٦٩).
(٥) المحلي (٦/ ٧٥).
(٦) المحلي (٦/ ٧٦).





وبسبب تجاذب الأدلة من الطرفين في زكاة الحلي قال الإمام الشافعي رحمه الله: «استخير الله في الحلي»، والذي يفتي به مشايخنا الأئمة المجتهدون ابن باز وابن عثيمين رحمهما الله وجوب زكاة الحلي لقوة النصوص الخاصة فيها وكثرتها، والله أعلم.

وأما مصارف الزكاة فهي ثمانية قد دل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: ٦٠].

فهذه مصارف الزكاة، ولا يجب لمن أراد أن يؤدي زكاة ماله أن يستوعب الأصناف كلها، قال العلامة أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله(١) «الأصل في هذا هو الحديث المأثور عن النبي ﷺ حين ذكر الصدقة، فقال: «تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم»، فلم يذكر ﷺ غير صنف واحد. ثم أتاه مال بعد هذا، فجعله في صنف ثان سوى الفقراء، وهم المؤلفة قلوبهم: الأقرع ابن حابس، وعيينة بن حصن، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، قسم فيهم الذهبة التي بعث بها إليه علي رضي الله عنه من أموال أهل اليمن، وإنما الذي يؤخذ من أموالهم الصدقة، ثم أتاه مال آخر فجعله في صنف ثالث وهم الغارمون».

---

(١) الأموال (٢/ ٢٥٨).




علـى كل حال ينبغي في توزيع الـزكاة الاعتبار بمقدار مال الزكاة مع حاجة المسلمين، فإن كان المال كثيراً يستوعب جميع الأصناف فإستيعابهم هـو الأكمـل، وإن كان المـال محدوداً فيقـدم للأحوج كالصدقـة على المجاعات المهلكة، ومـا كان نفعه متعديا خصوصا في حفظ الدين كالجهاد في سبيل الله.

قـال إبراهيـم النخعي رحمه الله[١] «إذا كان المـال ذا مز - كثرة - ففرّقه في الأصناف، وإذا كان قليلاً فأعطه صنفاً واحداً».

وقـال الحافـظ عبدالرزاق الرسـعني رحمه الله[٢]: «اتفـق أهل العلم علـى أنه لا يجوز صرف الزكاة إلى غير هـذه الأصناف الثمانية، من بناء مسجد، أو إصلاح طريق، أو كفن ميت، لأن الله تعالى خصّهم بها بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾، ولفظة ﴿إِنَّمَا﴾ تثبت المذكور، وتنفي ما عداه».

❊ ❊ ❊

(١) الأموال (٢/ ٢٥٥)، وإسناده حسن.
(٢) رموز الكنوز (٢/ ٥٢٧).






الدرس العاشر
السعادة وأسبابها

في الصحيحن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ**»(١). وهذا فرح شرعي؛ لأنه مأذون فيه، وليس فيه مخيلة ولا كبر كحال أصحاب الفرح غير الشرعي كقارون الذي خرج على قومه في زينته ممتلئاً عجباً وفخراً وزهواً، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: ٧٦].

أما فرح الصائم بفطره ففرحه هو بلزومه الطاعة إلى غايتها طاعةً لله، وما يجتنيه من عوائد وثمرات هذه الطاعة في العاجل والآجل، وكذلك رجوع ما مُنع منه مما ألفه من مأكول أو مشروب أو منكوح، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله مبيناً ذلك: «أما فرحة الصائم عند فطره فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومنكح فإذا مُنعت من ذلك في وقت من الأوقات ثم أبيح لها في وقت آخر فرحت بإباحة ما مُنعت منه خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه فإن النفوس تفرح بذلك طبعاً فإن كان ذلك محبوباً لله كان محبوباً شرعاً والصائم عند فطره كذلك فكما أن الله تعالى حرّم على الصائم في نهار الصيام تناول هذه الشهوات فقد أذن له فيها في ليل الصيام بل أحب منه المبادرة إلى تناولها

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صيائم إذا شُتم (ص٣٠٦ - رقم ١٩٠٤)، ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام (٤٦٩ - رقم ٢٧٠٦).




فـي أول الليل فأحبّ عباده إليـه أعجلهم فطراً والله وملائكته يصلون على المتسحرين فالصائم ترك شهواته لله بالنهار تقرباً إلى الله وطاعةً له ويبادر إليهـا فـي الليل تقرباً إلى الله وطاعة له فما تركهـا إلا بأمر ربه ولا عاد إليها إلا بأمر ربه فهو مطيع له في الحالين ولهذا نهى عن الوصال في الصيام فإذا بادر الصائم إلى الفطر تقرَّباً إلى مولاه وأكل وشرب وحمد الله فإنه يُرجى له المغفرة أو بلوغ الرضوان بذلك.

وفـي الحديث: «**إن الله يرضى عن عبده أن يـأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشـربة فيحمده عليها**»، وربما استجيب دعاؤه عند ذلك كما جاء فـي الحديث المرفوع الذي خرجه ابن ماجـه: «**إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد**»[١]. وإن نوى بأكله وشـربه تقوية بدنـه على القيام والصيام كان مُثاباً على ذلك كما أنه إذا نوى بأكله وشـربه تقوية بدنه على القيام والصيام كان مُثابـاً على ذلك كما أنه إذا نوى بنومه فـي الليل والنهار التقوي على العمل كان نومه عبادة. وفي حديث مرفوع: نوم الصائم عبادة[٢].

قالت حفصة بنت سـيرين: قال أبو العالية: الصائم في عبادة ما لـم يغتب أحـداً وإن كان نائمـاً على فراشـه فكانـت حفصة تقول: يا حبـذا عبادة وأنا نائمة على فراشي، خرَّجه عبدالرزاق[٣].

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الصيام، باب في الصائم لا تُرد دعوته (ص٢٤٩ - رقم ١٧٥٣).
(٢) الحلية (٥/ ٨٣).
(٣) المصنف (٤/ ٣٠٧).






فالصائم في ليله ونهاره في عبادة ويستجاب دعاؤه في صيامه وعند فطره فهو في نهاره صائم صابر وفي ليله طاعم شاكر وفي الحديث الذي خرجه الترمذي وغيره[1]: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**»، ومن فهم هذا الذي أشرنا إليه لم يتوقف في معنى فرح الصائم عند فطره فإن فطره على الوجه المشار إليه من فضل الله ورحمته فيدخل في قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]، ولكن شرط ذلك أن يكون فطره على حلال، فإن كان فطره على حرام كان ممن صام عما أحل الله وأفطر على ما حرم الله ولم يُستجب له دعاء.

والآن بعد أن ذكرنا فرح الصائم بفطره، أُعرِّج بذكر أسباب السعادة لنجتهد جميعاً في تحصيلها، فجماعها هو:

١ - **التوحيد**: وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه، ومنها: النور الذي يقذفه الله في قلب

(١) كتاب صفة القيامة، باب حديث «الطاعم الشاكر» (ص٥٦٦ - رقم ٢٤٨٦).




العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويُوسعِّه، ويُفرح القلب، فإذا فُقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج، وصار في أضيق سجن وأصعبه.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «**إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ، انْفَسَح، وَانْشَـرَحَ**»، قَالُـوا: وَمَـا عَلَامَـةُ ذَلِكَ يَا رَسُـولَ اللهِ؟ قَـالَ: «**الْإِنَابَـةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغَرُورِ، وَالاسِتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ**»[(١)].

فيصيب العبد من انشـراح صدره بحسـب نصيبه من هذا النور، وكذلك النور الحسي والظلمة الحسية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضيّقه.

٢ - **العلـم**: فإنه يشـرح الصدر، ويُوسِّـعه حتى يكون أوسـع من الدنيا، والجهل يُورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسـع علم العبد، انشـرح صدره واتسـع، والعلم الذي يجلب السـعادة ويُوجب انشراح الصدور هو العلم النافع.

٣ - **محبة الله**: للمحبة تأثير عجيب في انشـراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حسّ به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشدّ كان الصدر أفسح وأشرح.

---

(١) سـاق الحافظ ابن كثيـر رحمه الله طرق هذا الحديث عند قولـه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعـام: ١٢٥]، ثـم قـال: «فهذه طرق لهذا الحديث مرسـلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً». تفسير القرآن (٣/ ٣٣٦).





٤ - **الكرم**: فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدراً، وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدراً، وأنكدهم عيشاً، وأعظمهم همّاً وغمّاً، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً للبخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد، كلما هـمَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت حتى يجرَّ ثيابه ويُعْفي أثره، وكلما همَّ البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها، ولم تتسع عليه[1].

٥ - **إخراج دغل القلب**: من الصفات المذمومة التي تُوجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يُخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

٦ - **ترك فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم**: فإن هذه الفضول تستحيل آلاماً وغموماً وهموماً في القلب، تحصره وتحبسه وتُضيّقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها.

٧ - **العمل الصالح والإيمان**: قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب مثل البخيل والمتصدق (ص٢٣٣ - رقم ١٤٤٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل (ص٤١٢ - رقم ٢٣٥٩).




أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

٨ - **الإيمان بالقضاء والقدر**: قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن: ١١].

وفي صحيح مسلم من حديث صُهيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ**»(١)، قال النبي ﷺ: «**مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**»(٢).

فالمؤمن يحتسب الأجر فيما يصيبه، والكافر لا يُفكر إلا في الخلاص منها فقط، فالآلام تصيب المؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال تعالى: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء: ١٠٤].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير (ص١٢٩٥ - رقم ٧٥٠٠).
(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٤١).

٩ - الاشتغال بالأمور النافعة: فإنها تُلهي القلب عما يُقلقه، فمن الأدوية الناجعة نسيان السبب الذي يُكدر ويُقلق، والاشتغال بالأعمال المهمة.

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله: «إذا نام المرء خرج عن الدنيا ونسي كل سرور وكل حزن، فلو رتَّب نفسه في يقظته على ذلك لسعد السعادة التامة»[1].

١٠ - اجتماع الفكر كله على الاهتمام بعمل اليوم: فيكون العبد ابن يومه يجمع قلبه على إصلاح يومه، قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢١].

١١ - توطين النفس على تقدير أسوأ الاحتمالات: فإن توطين النفس على احتمال المكاره يهوّنها ويزيل شدتها، خصوصاً إذا أشغل نفسه بمدافعتها بحسب مقدوره.

١٢ - مجاهدة النفس: على تجديد قوته المقاومة للمكاره، مع اعتماده على الله وحسن الثقة به.

١٣ - التوكل على الله: فالمتوكل على الله قوي القلب لا تؤثر فيه المكدرات، واثق بالله مطمئن القلب، يتمثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٢].

---

(١) مداواة النفوس (ص١٤).

١٤ - شغل القلب بالله وحده: قال أبو محمد عبدالله بن أبي جمرة رحمه الله: «قال بعض أهل التوفيق: إذا نزلت بي نازلة من أي نوع، كانت المهمة فيها إلى الملجأ، فلا أبالي بها»(١).

١٥ - توطين النفس على أن لا تطلب الشكر إلا من الله: فلا تبال بمن لم يشكرك على معروفك، لأن معروفك ومعاملتك وإحسانك للخلق إنما هي مع الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩].

١٦ - توطين النفس على المزعجات الكبيرة والتافهة: فبعض ذوي الهمم العالية يوطّنون أنفسهم عند وقوع الكوارث والمزعجات على الصبر والطمأنينة، لكن عند الأمور التافهة البسيطة يقلقون، فالحازم يوطّن نفسه على الأمور القليلة والكبيرة.

١٧ - ترك الالتفاف إلى الناس: فإن هذا من أعظم ما يريح النفوس، قال خالد بن معدان الكلاعي: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى الناس في جنب الله أمثال الأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أحقر حاقر(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) بهجة النفوس (٢/ ٧١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٩)، وكثير من هذه الأسباب ذكرها ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد (٢/ ٢٣ - ٢٨)، وابن سعدي رحمه الله في الوسائل المفيدة للحياة السعيدة.




الدرس الحادي عشر
عمارة الوقت

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: تسحرنا مع النبي ﷺ ثم قام إلى الصلاة، قلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية[١].

قال الحافظ ابن حجر[٢]: «قال المهلب وغيره: فيه تقدير الأوقات بأعمال البدن، وكانت العرب تقدر الأوقات بالأعمال، كقولهم: قدر حلب شاة، وقدر نحر جزور، فعدل زيد بن ثابت عن ذلك إلى التقدير بالقراءة إشارة إلى أن ذلك الوقت كان وقت العبادة بالتلاوة، ولو كانوا يقدرون بغير العمل لقال مثلا قدر درجة أو ثلث أو خمس ساعة، وقال ابن أبي جمرة: فيه إشارة إلى أن أوقاتهم كانت مستغرقة بالعبادة».

فمن دروس رمضان الواضحة الجليّة هو اغتنام الوقت بالطاعات، حيث إنك ترى أهل الخير نهارهم صيام، وليلهم قيام، يغتنمون كل فرصة في قراءة القرآن وطاعة الرحمن، فلو استمر الناس على هذه الحال من ترتيب يومهم في ملازمة الطاعات لأدركوا خيراً كثيراً.

ولعل الإنسان إذا تأمل في حقائق مضاعفة الحسنات عموماً للمسلمين وهو من خصائص هذه الأمة كما قال القرافي، ولا حظ أيضاً مضاعفتها

(١) رواه البخاري (رقم ١٩٢١)، ومسلم (رقم ٢٥٥٢).
(٢) فتح الباري (٤/ ١٣٨).




أكثر في رمضان خصوصاً ليلة القدر يعلم السر في ذلك، وهو أن هذه الأمة أعمارها قصيرة بالنسبة لسائر الأمم فجعل الله لها عوضاً في ذلك وهو مضاعفة حسناتها، فليلة القدر وهي ليلة واحدة العمل الصالح فيها يعدل عمل ثلاث وثمانين سنة مما سواها.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ**»[1].

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ: إِمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْراً، وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ**».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فيه إشارة إلى أن المعنى في النهي عن تمني الموت والدعاء به هو انقطاع العمل بالموت، فإن الحياة يتسبب منها العمل، والعمل يحصل زيادة الثواب، ولو لم يكن إلا استمرار التوحيد فهو أفضل الأعمال، ولا يرد على هذا أنه يجوز أن يقع الارتداد والعياذ بالله تعالى عن الإيمان لأن ذلك نادر، والإيمان بعد أن تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وعلى تقدير وقوع ذلك - وقد وقع لكن نادراً - فمن سبق

(١) رواه الحاكم (٤/ ٣٠٦)، وصححه ووافقه الحافظ الذهبي.





له في علم الله خاتمة السوء فلا بد من وقوعها طال عمره أو قصر، فتعجيله بطلب الموت لا خير له فيه ويؤيده حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لسعد: «**ياسعد إن كنت خلقت للجنة فما طال من عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك**» أخرجه بسند لين، ووقع في رواية همام عن أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد ومسلم: «**وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً**»، واستشكل بأنه قد يعمل السيئات فيزيده عمره شرّاً، وأجيب بأجوبة: أحدها: حمل المؤمن على الكامل وفيه بعد، والثاني: أن المؤمن بصدد أن يعمل ما يُكفر ذنوبه إما من اجتناب الكبائر، وإما من فعل حسنات أخر قد تقاوم بتضعيفها سيئاته، وما دام الإيمان باق فالحسنات بصدد التضعيف والسيئات بصدد التكفير»[1].

وكذلك يتفاضل الناس في الدار الآخرة بسبب ما فضّل الله به بعضهم على بعض من زيادة الأعمال الصالحة التي قاموا بها لما عُمّروا أكثر من غيرهم.

فعن عبيد بن خالد رضي الله عنه - وكان من أصحاب النبي ﷺ - قال: «آخَى النَّبيّ ﷺ بينَ رَجُلَين فَاستُشْهِدَ أحدهمَا، وَبَقِيَ الآخر بَعْدَهُ عَاماً، ثُمَّ مَاتَ فاتَّبعنَا جَنَازَته، وَمَعْنَا نَبيّ الله ﷺ، فَجعلَنَا نَدْعُو اللهَ وَنَرغبُ إليهِ أَنْ يُلحقَهُ بِصَاحِبِهِ»!

(١) فتح الباري (١٠/ ١٣٠ - ١٣١).




فقـال النبـي ﷺ: «**أيهما تعدُّون أفضـل؟**» فقلنا: الله ورسـوله أعلم! ثم قلنا: الشـهيد أفضلهمـا! فقال النبي ﷺ: «**ألا تعدون لهـذا فضيلته: صلاته، وعمله بعد عمله! لما بينهما أبعدُ مما بين السماء والأرض**»(١).

فهـذان رجلان كل واحد منهما قضى نحبه، ووافى ربه بأعمال صالحة، ومنزلة من قُتل شهيداً في سبيل الله دون منزلة الآخر الذي مات على فراشه مع أنه عمّر أكثر منه بعام فقط.

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله: «وَالَّذِي فِيهِ من ذَلِك: الْإِبانـة عَن فضل صَالح الْأَعْمَـال، وَأَن الْفَاضِل من النَّاس إِنَّمَا يفضل غَيره بِفضـل زِيَادَة أَعمالـه الصَّالِحَة على عمل من فَضله. وَذَلِكَ أَن النَّبِي ﷺ لما ذكر لَهُ أَمر الرجلَيْن اللَّذين اسْتشْـهد أَحدهمَا، وعاش الآخر بعده سنة، قَالَ فِـي الَّـذِي عَاشَ بعد صَاحبه: «**أَلَيْسَ قـد أدْرك رَمَضَان وصامه، وَصلى كَذَا وكَذَاَ سَجْدَة**» فَلَمَّا قَالُوا لَهُ: بلَى!

قَالَ: «**فَلَمَّا بَينهمَا أبعد مِمَّا بَين السَّمَاء وَالْأَرْض**»»(٢).

وعـن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: «**نِعْمَتَانِ مَغبـونٌ فِيهِمَا كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّة وَالفَرَاغ**»(٣).

---

(١) رواه أحمـد (١/ ١٦٣)، والنسـائي في «عمـل اليوم والليلة» رقم ٨٣٨، وابـن ماجه (٢٩٨٩ - ٣٩٢٥)، وصحَّحـه ابـن حبان والألباني فـي «صحيح الترغيب والترهيـب» (رقم ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩).

(٢) تهذيب الآثار: الجزء المفقود (ص ٣٧٢ - ٣٧٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الصحة والفراغ (ص ١١١٣ - رقم ٦٤١٢).

قال العلامة عبدالحميد بن باديس رحمه الله: «إن كثيراً من الناس يكونون في صحة من أبدانهم وفراغ من أشغالهم ولا يعمرون أوقاتهم الفارغة بطاعة الله، ولا يستعملون أبدانهم الصحيحة فيها، فتضيع عليهم تلك الأوقات، وتلك الصحة باطلاً فيخسرونهما، ولا يستفيدون منهما فيكون ما خسروه منهما نقصاً في حظهم من حياتهم، وإذا كانت الحياة هي أغلى شيء على الإنسان يحافظ عليه، ولا يبذل شيئاً منه إلا بحقه، فهؤلاء الذين نقصوا حظهم في حياتهم هم أعظم المغبونين.

فعمر الإنسان أنفس كنز يملكه، ولحظاته محسوبة عليه، وكل لحظة ثمرة معمورة بعمل مفيد، فقد أخذ حظه منها وربحها، وكل لحظة تمرّ فارغة، فقد غُبن حظه منها وخسرها. وكذلك بدنه فهو أنفس آلة عنده، وإنما فائدة الآلة بالعمل، فإذا كانت الآلة في عمل فهو ربح وزيادة، وإذا كانت في بطالة فهو في نقص وخسران، فالرشيد هو من أحسن استعمال ذلك الكنز الثمين، وتلك الآلة العظيمة، فعمَّر وقته بالأعمال، وداوم على استعمال ذاته فربحهما، والسفيه السفيه من أساء التصرف فيهما فأخلى وقته من العمل، وعطّل ذاته عن الشغل فخسرها.

ولما كان الإنسان مضطرّاً إلى السعي في معاشه فيشغله ذلك عن وجوه الطاعات، من العلم ونوافل الصلاة والصوم والحج وغيرها، ومعرّضاً للأمراض فتمنعه منها، ولكنه لا يخلو من حالة يكون فيها فارغاً من الشغل




لمعاشه، ومعافى من المرض في بدنه، ذكّره هذا الحديث الشريف بما عليه في هـذه الحالة من المحافظة عليها وعمارتها بالطاعات حتى لا يخسـرها وتنقص من عمره بلا فائدة فيكون مغبوناً فيها.

فإذا عمَّر الإنسـان وقت فراغه من الكد لعيشـه، بطاعـة من طاعات الله واسـتعمل بدنه مغتنماً فرصة صحته فيها، ثم عرض شـغل من أشغل عيشه فقطعه عنها، أو طرأ عليه مرض فمنعه منها ونيته المداومة على تلك الطاعة لولا الشاغل والمانع، فإنه يكتب له في شغله وفي مرضه ثواب ما كان يعمله فـي صحته وفراغه، ومن الدليـل على ذلك حديث البخاري رحمه الله عن أبي بردة بن أبي موسـى الأشـعري رضي الله عنهم سمعت أبا موسى مراراً يقول: قال رسـول الله ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَـافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيماً صَحِيحاً**»(١)، والسفر نوع من الشغل.

وإذا كان المؤمن عاملاً في طاعة الله تعالى أيام صحته وفراغه، ثم مرض فـإن لـه أجرين، أجـراً على ما كان يعمـل في صحته بدليل مـا تقدم، وأجراً على مرضه لقوله ﷺ: «**مَا يُصِيبُ المُسْـلِمَ، مِـنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ أَذىً وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يُكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (ص٤٩٥ – رقم ٢٩٩٦).

(٢) رواه البخـاري، كتـاب المرضـى، بـاب ما جـاء في كفـارة المرض (ص٩٩٩ – رقـم ٥٦٤١)، ومسلم كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه (ص١١٢٨ – رقم ٦٥٦٨).



وكذلك إذا شُـغل بالسعي على نفسـه أو على العيال فإن له أجرين: أجر ما شُـغل عنه، وأجر سعيه على عياله، وأدلة ثواب الساعي على عياله كثيرة منها حديث الرجل الذي رأى الصحابة رضي الله عنهم من جلده ونشاطه، فَقَالُوا: يَا رَسُـولَ اللهِ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَـبِيلِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَاراً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ عَلَى أَبَوَيْنِ شَـيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَـبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْـعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّها فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**» (رواه الطبراني بسند صحيح).

ومثله من شُغل بطاعة عن طاعة كمن شُغل بالرباط عن نافلة الحج مثلاً، لأنـه إذا كان المشـغول بالسـفر المأذون فيه يُكتـب له مـا كان يعمله مقيماً لأن نيتـه المداومة لولا عارض السـفر، فالمشـغول بالطاعـة عن طاعة كان ينـوي فعلها لـولا عروض الطاعة الأخرى أحرى وأولـى». انتهى كلام ابن باديس[1].

وصـدق والله رحمه الله، فيا فوز مـن لا تعرف جوارحه إلا الطاعة، ويا ربـح من شـغلته الطاعـة عن الطاعـة لا المعصية، وصدق اللـه عز وجل إذ يقول في الحديث القدسـي: «**مَنْ شَـغَلَه ذِكْرِي عَنْ مَسْـأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ خَير مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»[2].

(١) ابن باديس، حياته وآثاره (٢/ ١٧٣ - ١٧٥).
(٢) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن (ص٦٥٧ - رقم ٢٩٢٦).




والعاقـل لا شـك أنـه لا يدري ما يعرض لـه في هذه الدنيـا، ولا يضمن كـرات القـدر، ولا يدري متـى ينزل به المـوت فيبادر لإصـلاح ما بقي من عمـره، قال ابـن المبارك رحمه الله: «إن البصـراء لا يأمنون من أربع: ذنب قد مضى لا يُدْرى ما يصنع فيه الرب عز وجل، وعمرٍ قد بقي لا يُدْرى ما فيه مـن الهلكة، وفضل قد أُعطي العبد له مكر واسـتدراج، وضلالة قد زُيْنت، يراها هدى، وزيغ قلب ساعة فقد يُسلب المرء دينه ولا يشعر»[1].

وقـال عمـر بـن ذر رحمـه اللـه[2]: «اعملـوا لأنفسـكم رحمكـم اللـه فـي الليل وسـواده، فـإن المغبون مـن غُبن خيـر الليـل والنهار، والمحـروم مـن حُرم خيرهمـا، إنما جُعلا سـبيلا للمؤمنيـن إلى طاعة ربهـم، ووبالا على الآخرين للعظة على أنفسـهم، فأحيوا لله أنفسـكم بذكـره، فإنمـا تحي القلوب بذكـر الله، كم من قائم لله فـي هذا الليل قـد اغتبـط بقيامه في ظلمة حفرته، وكم من نائـم في هذا الليل قد ندم علـى طـول نومـه عندما يرى من كرامـة اللـه للعابدين غـدا، فاغتنموا ممـر السـاعات والليالـي والأيـام رحمكـم اللـه».

وقال العلامة ابن مفلح رحمه الله: «واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيع منه لحظة، فكم يُضيّع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل، وهذه

(١) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٤٠٦).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الليالي والأيام (٨/ ٣٤٢ - رقم ٥٨)، مجوع مؤلفاته.



الأيـام مثل المزرعة، وكأنه قد قيل للإنسـان: كلما بـذرت حبة أخرجنا لك ألفا، هل ترى يجوز للعاقل أن يتوقف عن البذر أو يتوانى؟»[1].

وأحوال السـلف في عمـارة أوقاتهـم بالطاعة عجيبة تبعث على التأسـي بهم، فأبو حامد الإسـفراييني: «كان لا يخلو له وقت عن الاشـتغال، حتى إنه كان إذا برى القلم قرأ القرآن أو سبّح، وكذلك إذا كان مارّاً في الطريق»[2].

وهذا أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله يقول عنه أحمد بن محمد بن مردويه: «كان حفـاظ الدنيـا قد اجتمعوا عنده، فكان كل يوم نوبة واحد منهم يقرأ ما يريـده إلـى قريب الظهر، فإذا قـام إلى داره، ربما كان يُقـرأ عليه في الطريق جزءٌ، وكان لا يضجر، لم يكن له غداء سوى التصنيف والتسميع»[3].

وكذلك داود الطائي كان يستف الفتيت، ويقول: بين سفّ الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية[4].

وأوصـى بعض السـلف أصحابه، فقال: إذا خرجتـم من عندي فتفرقوا؛ لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم[5].

---

(١) الآداب الشرعية (٢/ ٥٤٤).
(٢) مسالك الأبصار (٦/ ٢٤٧ – ٢٤٨).
(٣) سير أعلام النبلاء: (١٧/ ٤٥٩).
(٤) الآداب الشرعية (٢/ ٥٤٤).
(٥) المصدر السابق.




وقال موسى بن إسماعيل في حماد بن سلمة: «إنه كان مشغولاً بنفسه، إما أن يُحدّث، وإما أن يُصلي، وإما أن يقرأ، وإما أن يُسبِّح، كان قد قسم النهار على هذه الأعمال»[1].

وعبدالله بن وهب يقول: «حفظت موطأ مالك، ما بين مصر إلى المدينة»[2].

ومحمد بن عبدالباقي حفيد كعب بن مالك الأنصاري الصحابي رضي الله عنه يقول: «ما أعلم أني ضيَّعت من عمري شيئاً في لهو أو لعب، وما من علم إلا وقد حصّلت بعضه أو كله»[3].

ومن أمثلة تعظيم السلف للوقت، ما ذكره أبو جعفر بن أبي حاتم، عن الإمام البخاري: «إنه استلقى على قفاه يوماً، ونحن بـ«فربر» في تصنيف كتاب «التفسير»، وكان قد أتعب نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث، فقلت له: يا أبا عبدالله! سمعتك تقول يوماً: إني ما أتيت شيئاً بغير علم قط منذ عقلتُ، قلت: وأي علم في هذا الاستلقاء؟ قال: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم، وهذا ثغرٌ من الثغور، خشيت أن يَحْدُث حَدَثٌ من أمر العدو، فأحببت أن أستريح، وآخذ أهبة ذلك، فإن غافصنا العدو كان بنا حراك»[4].

(١) تهذيب الكمال (٧/ ٢٦٥).
(٢) إتحاف السالك (ص١٤١).
(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ١٩٤).
(٤) تحفة الإخباري بترجمة البخاري (ص٢٠٦).



فانظر إلى هذا الإمام المحدث الجهبذ راحته واستلقاءه في الجهاد شغله بمذاكرة، يالها من نفوس زكية وهمم عليّة.

وكان السلف يتحذون من يُشاغلهم عن الطاعة أعداءً، وصدقوا والله لأنهم يقطعونهم عن الله.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «من شغلكم عن الله فهو عدوٌ لكم، فعلى هذا فقاتلوا»[1].

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله بعد أن ساق قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر: ٣][2]: «وخسران الناس: أي: غبنهم في حظوظهم من ربهم (جل وعلا). ذكرنا في هذه الدروس مراراً أنه جرت عادة بعض العلماء في أن يضربوا له مثلين يبين بهما حقيقته:

المثل الأول: قالوا: إن كل إنسان معمّر أعطاه الله (جل وعلا) رأس مال، ورأس هذا المال هو الجواهر الذي لا يزنها في الدنيا شيء، ولا يقوم مقامها شيء، وهي رأس مال كل إنسان. ونعني بهذه الجواهر: ساعات العمر وأيامه؛ لأن رأس مال الإنسان هو ساعات عمره وأيامه، وهذا هو أنفس شيء وأعظم شيء يُعطى للإنسان، وهو رأس ماله، وكما أن الله لما

(١) الفوائد والأخبار والحكايات لأبي علي الهمذاني (ص ١٤٨ - رقم ٤٧).
(٢) العذب النمير (٤/ ١٧١١ - ١٧١٣)، ط - دار ابن القيم.




جعلـه رأس مالـه، جعله أخا الرسـول أيضاً في إقامة الحجـة عليه به حيث قـال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، فإذا كان الإنسـان المُعمّر - سـواءٌ عُمِّر تعميراً طويلاً أو غيره كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴿١١﴾﴾ [فاطر: ١١]، فإن كان هـذا المُعمّـر - حاذقاً لبقاً يعرف كيف يحـرك رؤوس الأموال، وكيف يسـتفيد منها، حرّك رأس هذا المال - أعني سـاعات عمره وأيامه حركها - فيما يرضي اللـه، فراقب اللحظات والأيام والليالي والدقائق والثواني لئلا يضيـع شـيء منها في غير طاعـة الله، فنظر الأوقات التـي تتوجه فيها أوامر مـن ربه - كأوقات الصـلاة وأوقات الحج، وغير ذلك من المطلوبات التي لهـا أوقـات تتوجّه عند وجودهـا - فقام لله بذلك أحسـن قيـام، ثم إنه في الأوقـات التي لا تتوجه بها وظائف من رب العالميـن، وأوامر معيّنة يكفُّ شـرَّه ويخاف الله (جل وعلا)، ويسـتكثر من الخير ما اسـتطاع، فإذا حرّك هـذا رأس هـذا المال هـذا التحريك العظيـم واتَّجر مـع رب العالمين هذه التجـارة الرابحة ربح منها مُلـكاً لا ينفد، ربح منها الحور العين، والجنات، والولـدان، ومجاورة رب غيـر غضبان، والنظر إلى وجـه الله الكريم. وقد سمى الله تحريك رأس هذا المال معه (جل وعلا) على الوجه الذي ذكرنا سمَّاه (بيعاً) وسماه (شراء)، وسماه (تجارة)، وسماه (قرضاً)، لأن صاحبه حـرَّك رأس مالـه - وهو أيام عمره - تحريكاً حسـناً لائقاً، ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴿١١﴾﴾ [الصف:

١٠ - ١١]، فصـرح بـأن ذلك تجارة مـع الله، وقال جـل وعلا: ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: ٢٩]، وقـال جل وعـلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ إلـى قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة: ١١١]، فإذا كان صاحب رأس هذا المال المسـكين رجلاً أحمق لا يعرف حقائق الأشـياء، ولـم يتنور باطنه بنور الوحي، لم يعرف قيمة رأس هذا المال، ولا قدّر هذه الجواهر التي أعطاه الله فضيَّعها في قال وقيل، ولـم يكتسب منها شيئاً حتى ينتهـي الأجـل المحدد له فيُجر إلـى القبر وهو صفر الكفيـن، والآخرة أيها الإخـوان دار لا تصلح للمفاليـس، لا تصلح للفقراء، لأنّ ليس فيها إرفاق، ولا رعايـة، ولا صدقـة، ولا خلة، ليس فيها للإنسـان إلا ما قدَّمه من عمله، فـلا ينبغي للإنسـان أن يقـدم عليها مفلسـاً، فيجب على المسـلمين كُلّاً أن يحترموا رأس هذا المال.

إذا كان رأسُ المـالِ عمـركَ فاحترِزْ عليه من الإنفـاق في غير واجب فلا ينبغي للمسلم أن يضيّع أوقات عمره في لعب الأوراق، وفي قيل وقال، فإن هذا فعل السفهاء، ولا يدري في أي وقت يموت. وأنا أؤكد لكم كل التوكيد أنـه إن مـات نـدم غايـة الندم بعد فـوات الفرصـة على ضياع هـذه الأعلاق النفيسـة، والجواهـر الثمينـة - التي هي أيـام عمره - في قيـل وقال، ولعب أوراق، وربما كان ضيّعه في أشياء لا ترضي من خلقه (جل وعلا).

فهذا لا ينبغي، فعلينا معاشر المؤمنين أن نعرف قدر رأس مالنا، وأن نقُدِّر أعمارنـا، ونعـرف قصرها، ولا نـدري في أي وقت تنخرم كما سيأتي قوله فـي هذه السـورة: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ ١٨٥﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فلا نضيّعه فيما لا يعني كألعاب الأوراق، والمجون والعبث، وغير ذلك مما لا يفيد، فهذا فعل السـفهاء، وسيعلم صاحبه إذا انتهى إلى ربه أنه فعل السفهاء الـذي لا يُجدي، فعليه أن يكفَّ عنه، ويكون رجلاً جديّاً، ويصدق المعاملة فيما بينه وبين ربه (جل وعلا)، ولا يترك أوقاته تضيع هدراً، لأن هذا تضييع لجواهر عظيمة، وأعلاق نفيسة، لا يعرف قدرها إلَّا من علمه الله ذلك».

فالوقت أنفس ما تمتلك لعمارة آخرتك، فكيف تُضيّعه في غير علم نافع أو عمل صالح؟!

وتضييـع الوقـت بغيـر عمل صالـح عقوبة عاقـب الله بها بني إسـرائيل لنكولهم عن الجهاد، فضرب الله عليهم التيه أربعين سـنة، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «يسيرون إلى غير مقصد، ليلا ونهارا، صباحا ومساءً».

والعلامة محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله كان يعجب من الناس الذين يمر بهم جالسين في المقاهي عند باب الجابية، ويقول[٢]: «ما أرخص وقت هؤلاء عليهم، فياليتهم يعطونني شيئا من أوقاتهم».

❋ ❋ ❋

(١) قصص الأنبياء المستل من البداية والنهاية ص ٣٤٣.
(٢) جمال الدين القاسمي للدكتور نزيه أباظة ص ١٧١.

الدرس الثاني عشر
شـــهـــر الـقـــرآن

لا شـك أن اختصـاص القـرآن برمضـان ظاهـر جـدّاً، فابتـداء نزول القـرآن كان فـي رمضـان كما قـال تعالـى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكذلـك جبريل كان يُـدارس النبي ﷺ القرآن فـي كل عـام في رمضان، وفي السـنة التـي قُبض فيها دارسـه القرآن مرتين مبالغةً وزيادةً وتأكيداً في حفظه.

والنبـي ﷺ وأصحابـه من بعده قاموا بالقرآن ليالـي رمضان، وقال النبي ﷺ: «**مَـنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسـاباً، غُفِـرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِـنْ ذَنْبِهِ**»[(١)]. متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهنـا لابد أن نتأمل في أحوالنا، ونلتفت إلى أنفسـنا هـل عنايتنا بالقرآن عناية من يعرف حقيقته ويقدره حقّ قدره؟!

فالناس يتفاضلون في تقدير النفائس قدرها، فهذا أبو بكر الصدّيق وعمر الفاروق رضي الله عنهما لما أقبلا إلى أم أيمن رضي الله عنها يزورونها بعد وفـاة النبي ﷺ ورأتهم مقبلين بكت رضي اللـه عنها، فقالا لها: تبكين! أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسـوله ﷺ، قالت: أما إني أعلم أن ما عند الله

(١) رواه البخـاري، كتـاب صلاة التروايح، بـاب فضل من قام رمضـان (ص٣٢٢ - رقم ٢٠٠٨)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان (ص٣٠٨ - رقم ١٧٧٩).




خير لرسـوله ﷺ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السـماء، فهيجتهما على البكاء(١).

فهـذه هي أحوال من قـدروا القرآن حق قدره، ولذلـك كان النبي ﷺ يغـرس فـي نفـوس أصحابـه الفضـل الحقيقي في قـراءة القرآن، فعـن عقبـة ابـن عامر رضـي الله عنه قـال خَـرَجَ عَلَيْناَ رَسُـوُ الله ﷺ وَنَحْـنُ فِـي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: «**أَيُّكُـم يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلّ يَـوم إِلَى بُطْحَانَ - أَوِ الْعَقِيـقِ - فَيَأْتِـي مِنْـهُ بِنَاقَتَيْـنِ كَوْمَاوَيْـنِ فِي غَيْرِ إِثْـم، وَلاَ قَطْيعِةِ رَحِـم؟**» فَقُلْنَـا: يَـا رَسُـولَ اللـهِ، كُلُّنّا يُحِـبُّ ذَلكَ قَـالَ: «**أَفَـلاَ يَغْدُوَ أَحَدُكُـمْ إِلَـى الْمُسْجِدِ، فَيَعَلَـمَ - أَوْ فيقَـرأ - آيَتَيْـنَ مِـنْ كِتَـابِ اللـهِ خَيْـرٌ لَهُ مِـنْ نَاقَتَيْـنِ، وَثَلاثٌ وَأَرْبَع خَيْـرٌ لَهُ مِن أَرْبَع، وَمِـنْ أَعْدَادِهِنَّ مَـنَ الإِبِـل**»(٢).

وعـن أبـي أمامـة الباهلـي رضـي اللـه عنـه قال: سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول: «**اقْـرَءُوا الْقُـرْآنَ فَإِنَّـهُ يَأْتِـي يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ شَـفِيعاً لأَصْحَابِـهِ**»(٣).

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها (ص١٠٧٩ - رقم ٦٣١٨).

(٢) رواه مسـلم، كتـاب صلاة المسـافرين، بـاب فضل قراءة القـرآن في الصـلاة (ص ٣٢٤ - رقم ١٨٧٤).

(٣) رواه مسـلم، كتاب صلاة المسـافرين، باب فضل قراءة القرآن وسـورة البقرة (ص٣٢٥ - رقم ١٨٧٤).

وفي الصحيحن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ هَذَا الْكِتَابَ، فَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللهُ مَالاً، فَتَصَدَّقَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ**»[١].

وكفى أهل القرآن شرفاً أنهم أهل الله وخاصته، فعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ**» قَالُوا: مَنْ هُمْ، يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَهْلُ الْقُرْآنِ، هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**»[٢].

وحفظ القرآن من أسباب النجاة من النار، فقد روى أحمد والدارمي من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ، مَا مَسَّتْهُ النَّارُ**»، قال الإمام أحمد رحمه الله: «يُرجى لمن القرآن محفوظ في قلبه أن لا تمسه النار»[٣].

وحفظ القرآن سبب الرفعة في الدنيا والآخرة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا القُرآن أَقْوَاماً، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن (ص٩٠٠ - رقم ٥٠٢٥)، ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن (ص٣٢٨ - رقم ١٨٩٤).
(٢) رواه الحاكم (١/ ٥٥٦)، وابن ماجه، كتاب السُّنَّة، باب فضل مَن تعلَّم القرآن (ص٣٣ - رقم ٢١٥)، وصحَّحه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٧٢)، والمنذري في الترغيب والترهيب (ص٢٨٨ - رقم ٢١٢١).
(٣) شرح السُّنَّة للبغوي (٤/ ٤٣٧).
(٤) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل مَن يقوم بالقرآن ويعلِّمه (ص٣٢٩ - رقم ١٨٩٧).




وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْثاً وَهُمْ ذُو عَدَدٍ فَاسْتَقْرَأَهُمْ، فَاسْتَقْرَأَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَعْنِي مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَتَى عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنّاً، فَقَالَ: «**مَا مَعَكَ يَا فُلَانُ**»؟ قَالَ: مَعِي كَذَا وَكَذَا وَسُورَةُ الْبَقَرَةِ قَالَ: «**أَمَعَكَ سُورَةُ الْبَقَرَةِ**»؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ**»[1].

فالقرآن حياة القلوب كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، هذا القرآن جعله الله شفاء للصدور من أمراض الشهوات والشبهات، ومن الضيق والحرج، فتنشرح الصدور بتلاوته ويدخلها نور الإيمان وتنصبغ القلوب بصبغة الوحي، فتشرق القلوب وتحيا، ثم تُخبت وتلين فتنقاد لأوامر الله وتكاليفه، وتسعد بها وتفرح، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة البقرة (ص٦٤٧ - رقم ٢٨٧٦)، وحسّنه وصحّحه ابن حبان (٣/ ٢٨٤ - رقم ٢١٢٣).



فلا فرح عند المسلم أعظم من فرحه بكتاب ربه الذي يذكر ربه به، وتتهذب أخلاقه به، ويتقوم سلوكه بلزوم أوامره واجتناب نواهيه، وتنتظم به شؤون حياته كلها دقيقها وجليلها على أحسن سلوك ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨]، وتنتظم به منهجية المجتمع المسلم ككل، فالقرآن مصدر تشريعها، أحكام ربانية، كلها عدل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: ١١٥]، أخباره وأحكامه كلها متفقة ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

قلوب المؤمنين مطمئنة لأحكام الله لأن إيمانهم حقيقي لا ريب فيه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ١٥﴾ [الحجرات: ١٥]، وذلك لأنهم يوقنون تماماً بأن الله هو الأعلم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٤]، ويوقنون تماماً بأن هذا القرآن كما نعته الله ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف: ٥٢]، فلذلك يجعلون القرآن حاكماً على أهوائهم لا محكوماً عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ ١﴾ [الحجرات: ١].

فالمؤمنون يتخلقون بأخلاق القرآن كما فعل قدوتهم وأسوتهم رسول الله ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها تصف خلق النبي ﷺ بقولها: «كَانَ

خُلقه القُرآن»[1]. قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله: «أي كان موافقاً لما نزل به القرآن»، وقال الأوزاعي رحمه الله: «لم يزل لله نُصاحاً من خلقه في أرضه، يُعرضون أعمال العباد على القرآن، فبالقرآن يعرفون هدي من اهتدى، وضلالة من ضلّ، أولئك خلفاء الله عز وجل في أرضه»[2].

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «فمن أولى بحسن الخلق من قاريء القرآن، ومن أولى بالنصفة من نفسه من قاريء القرآن، ومن أولى ببر الوالدين من قاريء القرآن، ومن أولى بأداء الفرائض كلها من قاريء القرآن؟ لأن الدليل معه، فإن قبل منه لم يخطئه باب الجنة، ويُوشك أن لا يفعل لأن الله عز وجل يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠]، قال هذا أريد، أنظر إلى هذا أزدري به، وأنظر إلى هذا أستعظمه، وأنظر إلى محارم المسلمين فأتلذذ بالنظر، فإذا فعل فقد عصى الدليل»[3].

والناس في هذا بين مستكثر ومُقلّ، قال ابن القيم رحمه الله: هجر القرآن أنواع: **أحدها**: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجرُ العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل (ص ٣٠١ - رقم ١٧٣٩).
(٢) الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥١٠).
(٣) الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥٠٩).



والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾[الفرقان: ٣٠]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

وكذلك الحرج الذي في الصدور منه فإنه تارة يكون حرجاً من إنزاله وكونه حقّاً من عند الله، وتارة يكون من جهة التكلم به.

وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات.

وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به من حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة.

وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة فهي ثابتة في نفس الأمر أو أُوهم أنها مرادة لضرب المصلحة.




فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم، ولا تجد مبتدعاً في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته كما أنك لا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته فتدبر هذا المعنى ثم ارْضَ لنفسك بما تشاء»[1].

وكم من ميت غارق في الضلالة والغواية سمع آيةً من كتاب الله فوقعت في قلبه موقعها فأيقظته من سنته، وأخرجته من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن ضيق الصدر إلى انشراحه، وبدأ يحيا حياةً جديدةً حقيقيةً يستضيء بنور الوحي والهدى، وصدق الله إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقد سمع هذه الآية شاب من اليمن، فقال: «بل على قلوب أقفالها فيفتحها الله»[2].

فافتحوا قلوبكم وارعوا أسماعكم لكتاب الله تُفتح الأقفال ويلج نور القرآن إلى القلوب فتضيء وتشرق بنور الوحي، فيتغير الإنسان بعد ذلك ويحيا حياةً طيبة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴿١٠٤﴾ ﴾ البقرة: ١٠٤، فارعها سمعك فإما خير تؤمر به وإما شرٌ تنهى عنه»[3].

(١) الفوائد (ص ١١٢ – ١١٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢١).
(٣) رواه ابن أبي حاتم، انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢)، ط – مكتبة دار التراث – القاهرة.



قال ابن القيم رحمه الله: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألْقِ سمعك واحضُرْ حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[ق: ٣٧].

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقْتضٍ ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظٍ وأبينه وأدلّه على المراد.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة أي سورة «ق» إلى هاهنا وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾[يس: ٦٩ - ٧٠]، أي: حي القلب.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: وجّهه سمعه وأصغى حاسَّة سمعه إلى ما يُقال له وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة رحمه الله: «استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ»، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله،




فـإذا حصـل المؤثـر وهو القـرآن والمحل القابـل وهو القلب الحـي، ووُجد الشـرطُ وهو الإصغـاء وانتفى المانع وهو اشـتغال القلـب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثرُ وهو الانتفاع والتذكر»(١).

وأمثلة من تغيّرت أحوالهم بسـماع آيـة واحدة لا تُحصى كثرة، بل منهم مـن صار لـه أثر في حياة المسـلمين إلى يومنا هذا، فحيـا بحياته أمم، فهذا الصحابي جبير بن مطعم رضي الله عنه أسر في غزوة بدر وهو كافر، فسمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بسورة الطور، فلما قرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، قال: كاد يتصدع قلبي(٢).

والفضيـل بن عيـاض رحمه الله إمـام الزهد، عباراتـه الوعظية ما زالت كلمات سـائرة يتوارثها العلماء عنه، كان قاطعاً للطريق، فسـمع قارئاً يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]، فقال: بلى والله، قد آن، فكان ذلك مبدأ توبته.

فالخيـر كل الخير في الانتفاع بقـراءة القرآن، وهذا لا يحصل إلا بالتدبّر وإصغاء السـمع للقرآن مع حضور القلب، ولا يحصل الانتفاع بالقرآن إلا إذا كان القلـب زاكيـاً متطهـراً من الدغـل والخبائث، قال عثمـان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا، لما شبعت من كلام الله».

(١) الفوائد (ص ١٣ – ١٤).
(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة والطور (ص٨٥٩ – رقم ٤٨٥٤).



قـال ابن القيم رحمـه الله معلِّقـاً: «فالقلب الطاهر، لكمـال حياته ونوره وتخلُّصه من الأدران والخبائث، لا يشبع من القرآن، ولا يتغذَّى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى، فإنه يتغذى مـن الأغذية التي تناسـبه، بحسـب ما فيه من النجاسـة. فـإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تُلائم الصحيح»(١).

فالانتفاع من القرآن إنما يحصل بتدبّره، والوقوف على معانيه، والعمل بمـا فيه، قال ابن شـيخ الحزاميـن رحمه الله: «يقرأ القـرآن بتدبّر وتفهّم، يفهم عن الله عز وجل مراده، كأنه يقرأ على الله عز وجل، أو يسـمعه من اللـه عز وجل، فيتنبّه لوعـد الله ووعيده، وتخويفـه وتحذيره، فإن لله عز وجل في كل كلمة معنى يقتضي بها من عباده عبوديةً خاصة، من خوف أو رجاء أو ذكر أو تصديق، أو إتعاظ، أو محبة، أو شـوق، أو رغبة، أو رهبة، أو قـرب، أو اتصـال، فيفهـم عن الله عز وجـل مراده، ويقـوم بما يقتضيه المعنى من العبودية، فيكون في ذلك كما قال عز وجل: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة: ١٢١]»(٢).

وقال شـيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله معلقاً على قوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]:

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١١٨).
(٢) مدخل أهل الفقه واللسان إلى ميدان المحبة والعرفان (ص٦٩).




«جعـل التذكـر بعد التدبـر؛ لأنه لا يمكن أن يتّعظ الإنسـان بالشـيء إلا إذا عرف المعنى الذي يتضمنه، فيتدبّر أولاً، ثم يتذكر ثانياً.

ففـي **المرحلـة الأولى** يقرأ الإنسـان القرآن، وفي **المرحلـة الثانية** يتدبّره لفهم معانيه، ثم المرحلة الثالثة: يتّعظ به، والاتّعاظ بالقرآن هو التأثر به في القلب والجوارح.

والتأثـر بالقلـب: إخلاص العبدلله، وإنابته إليه، وتوكله عليه، وما أشـبه ذلك من أعمال القلوب.

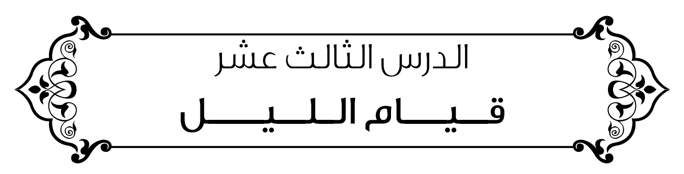
وتأثر الجوارح: القيام بطاعة الله بالجوارح الظاهرة مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم وغير ذلك»[1].

❊ ❊ ❊

(١) تفسير سورة ص، (ص١٤٢ - ١٤٣).





الدرس الثالث عشر
قيـــام الليـــل

رمضان مدرسة في قيام الليل بلا شك، فهذه العبادة يُصليها الناس فرادى في غير رمضان، واجتماعهم على أدائها ثلاثين ليلة في رمضان من أسباب تيسير أداء هذه العبادة.

وقيام الليل من أجلّ العبادات وأشرف الطاعات، قال تعالى في عباده المتقين: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٦ – ١٧].

وذكر الله صفة أوليائه الصالحين أنهم قليلو النوم أحيوا ليلهم بالقيام ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧ – ١٨].

وقال سبحانه في صفة عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٤]، كما أنه سبحانه ذكر صفة المؤمنين ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧]، وأمر الله بالصلاة في هذا الوقت حيث قال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ق: ٤٠]، فالصلاة تُسمى تسبيحة، ومنه سبحة الضحى، ولذلك كان النبي ﷺ يرى ترك قيام الليل نقصاً في فضل المسلم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال:




قال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**»(١).

بل من أعجب ما ذُكر في فضل قيام الليل أن فضل أداء الفرائض يُشبه بها مع أن أحب ما تُقرب به إلى الله الفرائض، فقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ**»(٢).

وقيام الليل جعله النبي ﷺ أفضل النفل المطلق بعد أداء الفرائض، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ الصِّيَامِ، بَعْدَ رَمَضَانَ، شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ، بَعْدَ الْفَرِيضَةِ، صَلَاةُ اللَّيْلِ**»(٣).

وقيام الليل من أعظم الأسباب الموجبة لدخول الجنة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**فِي الجَنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنِهَا مِنْ ظَاهِرُهَا، أَعَدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ قَائِماً، وَالنَّاسُ نِيَامٌ**»(٤).

وبسبب هذه الفضائل في قيام الليل ما كان أحد من الصحابة وخيار التابعين يُفرّط فيه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب فضل من تعار من الليل (ص١٨٥ - رقم ١١٥٦)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة (ص١٠٩٠ - رقم ٦٣٧٠).
(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة (ص٢٦٤ - رقم ١٤٩١).
(٣) رواه مسلم، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم (ص٤٧٨ - رقم ٢٧٥٥).
(٤) رواه أحمد (١/ ١٥٦)، والحاكم (١/ ٨٠)، وصحّحه ابن حبان (١/ ٣٦٣ - رقم ٥٠٩)، والألباني.

قال الحسن البصري رحمه الله: «والله لقد أدركت أقواماً، وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة لم يطو له ثوب قط، ولا نُصب له قدر، ولا جُعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها، فما زالوا كذلك على ذلك، فوالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة، وإنكم أصبحتم في أجل منقوص، والعمل محفوظ، والموت والله في رقابكم، والنار بين أيديكم، فتوقعوا قضاء الله عز وجل في كل يوم وليلة»(١).

وإذا استعرضنا سير الصحابة في القيام علمنا حقيقة ما قام بقلوبهم من الحقائق بمعرفة فضائل القيام مما قصرنا عن إدراك كثير من هذه الحقائق، وصدق ابن مسعود رضي الله عنه إذ قال: «الإيمان اليقين كله».

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال عنه العباس بن عبدالمطلب: «كنت جاراً له، فما رأيت أحداً من الناس كان أفضل من عمر رضي الله

---

(١) مختصر قيام الليل، (ص٣٣)، قيام الليل لابن أبي الدنيا (١/ ١٣٣ - رقم ٤١١)، موسوعة ابن أبي الدنيا.

عنه: إن ليله صلاة، وإن نهاره صيام، وفي حاجات الناس»[١].

وعثمان بن عفان رضي الله عنه كان يحيي الليل كله بالقرآن في ركعة.

وأبو هريرة رضي الله عنه كان هو وامرأته وخادمه يُقسّمون الليل ثلاثاً، يُصلي هذا ثم يوقظ هذا[٢].

وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما كان يقرأ القرآن في ليلة، وكان يحيي الدهر أجمع[٣].

وعروة بن الزبير كان يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف ويقوم به ليله[٤].

وثابت البناني كان يقوم الليل ويصوم النهار، وكان يقول: ما شيء أجده في قلبي ألذّ عندي من قيام الليل[٥].

فلا شك أن هؤلاء الصالحين إنما كان ينهزهم الإيمان فيؤثروا القيام مع ما فيه من المشقة على دفء الفراش وما فيه من الراحة؛ لأنهم استحضروا

(١) حلية الأولياء (١/ ٥٤).
(٢) الإصابة (٤/ ٢٠٩).
(٣) مختصر قيام الليل (ص١٨)، قيام الليل: لابن أبي الدنيا (١/ ٣٢٣ - رقم ٣٧٧ الموسوعة).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٢٦)، قيام الليل: لابن أبي الدنيا (١/ ٢٧٩ - رقم ١٦٨).
(٥) قيام الليل: لابن أبي الدنيا، (رقم: ١٥٤٠).

النعيم الأعظم السرمدي فقدموه على النعيم الحاضر، ولذلك نعت النبي ﷺ قيام الليل بقوله «**دَأَبُ الصَّالِحينَ قَبْلَكُمْ**»[1].

قال الحسين: «لقد صحبنا أقواما يبيتون لربهم في سواد هذا الليل، يقومون هذا الليل على أطرافهم فتسيل دموعهم على خدودهم، فمرة ركعا ومرة سجدا، يناجون ربهم في محال رقابهم، لم يملوا كلال السهر لما خالط قلوبهم من حسن الرجاء في يوم المرجع، فأصبح القوم بما أصابوا من النّصبِ لله في أبدانهم فرحين، وبما يأملون من حسن ثوابه مستبشرين، فرحم الله امرءًا نافسهم في مثل هذه الأعمال ولم يرض من نفسه لنفسه بالتقصير في أمره واليسير من فضله، فإن الدنيا عن أهلها منقطعة، والأعمال على أهلها مردودة» ثم يبكي الحسين حتى تبتل لحيته بالدموع[2].

وثمرات قيام الليل عظيمة، حسبي هنا أن أورد أهمها:

١ - إنه أتمّ إخلاصاً، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية»[3].

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب مَن فتح له منكم باب الدعاء (ص ٨٠٩ - قرم ٣٥٤٩)، والحاكم (١/ ٣٠٨)، وصحّحه ابن خزيمة (٢/ ١١٣٥) وحسَّنه الألباني في الإرواء (٤٥١).
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (١ / ٣٠٣ - رقم ٢٨٠).
(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (ص٨ - رقم ٢٣).



٢ - أكثر بركة: قال عكرمة: «عبادة الليل أشد نشاطاً وأتمّ إخلاصاً، وأكثر بركة»[١].

٣ - أفرغ للقلب.

٤ - أفضل وقت لتدبر القرآن. قال ابن كثير رحمه الله[٢]: «إن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ٦] أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهّمها من قيام النهار».

٥ - تثبيت الحفظ: فبالقيام بما حفظه يرسخ القرآن ويثبت كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل أو النهار ذكره، وإذا لم يقم به نسيه»[٣].

٦ - من أسباب السعادة: قال عطاء بن أبي رباح: «قيام الليل محياة للبدن، ونور في القلب، وضياء في البصر، وقوة في الجوارح، وإن الرجل إذا قام من الليل متهجداً أصبح فرحاً يجد لذلك فرحاً في قلبه، وإذا غلبته عيناه فنام عن حزبه أصبح حزيناً منكسر القلب كأنه قد فقد شيئاً، وقد فقد أعظم الأمور له نفعاً»[٤].

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٢).
(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن (ص٣١٩ - رقم ١٨٤٠).
(٤) قيام الليل: لابن أبي الدنيا (١/ ٢٤٨ - رقم ٢١).





٧ - **تخفيف القيام يوم القيامة**: قاعدة العدل جارية وفق قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[الرحمن: ٦٠] فمن صبر على قيام الليل لا بد أن يُريحه الله في موقف القيامة، قال الأوزاعي رحمه الله: بلغني أنه «من أطال قيام الليل خفَّف الله عنه يوم القيامة»(١)، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾[الإنسان: ٢٦]، وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الإنسان: ٢٧].

٨ - **القائم يكون في عداد الذاكرين لا الغافلين**: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهِ فَصَلَيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعاً كُتِبَا لَيلَتئذٍ مَنَ الذَّاكِرِينَ الله كَثِيراً وَالذَّاكِرَات»**(٢).

وقال شهر بن حوشب رحمه الله(٣): «إذا قام العبد من الليل تبشبشت له الأرض، واستنار له موضع الصلاة، وفرح به عمّار داره من مسلمي الجن، واستمعوا لقراءته، وأمنّوا على دعائه، فإذا انقضت عنه ليلته أوصت به الليلة المستأنفة فقالت: كوني عليه خفيفة ونبهيه بساعته، فارحمي طول سهره إذا نام البطالون على فرشهم».

٩ - **حصول النشاط وانحلال عُقد الشيطان**: عن عبدالله بن مسعود

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٤٧ - رقم ١١).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الوتر، باب الحثّ على قيام الليل (ص٢١٦ - رقم ١٤٥١)، وصحَّحه ابن حيان (٤/ ١١٩ - رقم ٢٥٦٠) والألباني.

(٣) التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا، مجموع رسائله (١ / ٢٤٨ - رقم ١٩).




رضـي الله عنه قـال: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِـيِّ رَجُلٌ نَـامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَـحَ قَالَ: «**ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ** - أو قال: **فِي أُذُنَيْهِ**»[1].

١٠ - **البعد عن مشابهة الجيف**: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسوله الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ حِمَارٍ بِالنَّهَارِ عَالِمٍ بِأَمْرِ الدُّنْيَا جَاهِلٍ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ**»[2].

١١ - **موافقـة سـاعة إجابـة الدعاء**: ففي صحيح مسـلم عـن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ الله عز وجل إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَـةٍ حِينَ يَمْضِى ثُلُـثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِـكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّـذِي يَدْعُونِي فَأَسْـتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْـأَلُنِي فَأُعْطِيَـهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ يُضِيء حَتَّى يُصَلِّي الْفَجْرِ**».

١٢ - ساعة تفتح لها أبواب الجنة؛ لأنه وقت إدبار الليل، وإقبال النهار، فهو متنفس الصبح.

١٣ - **بهـاء الوجـه وحسـن المنظـر**: صاحب قيـام الليل تجـده وضيء الوجه، لأن النبي ﷺ قال: «**الصلاة نور**»[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (ص٥٤٥ - رقم ٣٢٦٩)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الحثّ على صلاة الليل وإن قَلَّت (٣١٦ - رقم ١٨١٧).

(٢) رواه ابن حبان (١/ ١٤٥ - رقم ٧٢) وصحَّحه الألباني.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.





وقال شريك بن عبدالله القاضي: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار».

وقيل للحسن البصري رحمه الله: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؟ قال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره نوراً»[1].

١٤ - حماية الفرائض: ملازمة النوافل صيانة للفرائض؛ لأن الشيطان إنما يأتي العبد من جهة النوافل على اعتبار أنها ليست فرائض، فإذا ضيَّع النوافل أخذ يثبطه عن الفرائض، فإذا نال من فرائضه فقد هلك إلا أن يشاء الله.

ومن كان للفرائض حافظاً فلا شك أنه للنوافل أكثر محافظة، قال يونس ابن عبيد رحمه الله: «ما استخف رجل بالتطوع إلا استخف بالفريضة»[2].

❊ ❊ ❊

(١) مختصر قيام الليل ص ٤٥، قيام الليل لابن أبي الدنيا، رقم ٢٨١.
(٢) مختصر قيام الليل ص٢٠٤.



الدرس الرابع عشر
أولـئـك هـم الـعـصـــاة

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ الْغَمِيمِ، فَصَامَ النَّاسُ، ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ، حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَشَرِبَ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ، فَقَالَ: «**أُولَئِكَ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ الْعُصَاةُ**»(١).

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لم يشربوا الخمر ولم يسرقوا ولم يزنوا، بل كانوا صائمين في يوم حر شديد، فأفطر النبي ﷺ رفقاً بهم، ورخصةً لهم حتى يكون أهون عليهم وأيسر لهم، فخالفوا السُّنَّة وما أخذوا بالرخصة، فقال عنهم النبي ﷺ: «**أُولَئِكَ هُمُ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ هُمُ الْعُصَاةُ**».

ونظير هذا أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة بعد دخول الفجر إلا من ركعتي الفجر، فرأى سعيد بن المسيب رحمه الله رجلاً يُكثر من التنفل بعد الفجر فزجره، فقال الرجل: أترى الله يُعذبني على كثرة الصلاة؟! فقال سعيد بن المسيب رحمه الله: لا، ولكن يُعذبك على مخالفة السُّنَّة(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب إذا صام أياماً من رمضان ثم سافر (ص٣١٢ - رقم ١٩٤٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما جمعناه، ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية (ص٤٥٥ - رقم ٢٦١٠).
(٢) رواه عبدالرزاق (٣/ ١٥٢)، والبيهقي (٢/ ٤٦٦).



فالمقصود ليس هو كثرة العمل، وإنما المقصود إحسان العمل، بأن يكون العمل خالصاً لوجه الله موافقاً للسُّنَّة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل ابن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه.

والشرع حذَّر من فتنتين هما جماع الشر كله: فتنة الشهوات المحرمة، وفتنة الشبهات وهي البدع والضلالات والأهواء، قال النبي ﷺ: «**إنَّ مِمَّا أخْشَى عليكُمْ مُضِلَّاتُ الهَوَى وَشَهَوات الغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ**»(١).

فقوله: «مُضِلَّاتُ الهَوَى» هذه فتنة الشبهات والأهواء والبدع والضلالات، و«شَهَوات الغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ» هذه الشهوات المحرمة كالزنى وشرب الخمر وغيره.

وقد حذَّر الله من هاتين الفتنتين مجموعتين في آية واحدة من كتابه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: ٦٩].

قال ابن القيم رحمه الله: «أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل؛ لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به

(١) رواه أحمد وهو حديث صحيح.




وهـو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق، فالأول البدع، والثاني اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كُذِّبت الرسل، وعُصي الرب، ودُخلت النار، وحلَت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات، ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يُشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم»(١).

والمعاصي والذنوب أمرها واضح للناس، فهي معلومة لدى الجميع أنها من الحرام المجمع على تحريمه، كالزنا وشرب الخمر ونحوه، فلا أحد يحتسب الأجر في فعلها، ويوشك العبد أن يُقلع عنها ويتوب في أي لحظة، أما البدع فشأنها أخطر وأعظم؛ لأن صاحبها يأتي بها على أنها شرع لله، ويتقرب إلى الله بفعلها وهي تُبعده عن الله.

وأعظم من ذلك أن المبتدع إذا نصحه أهل العلم وزجروه عن هذه البدع صاح في وجوههم، وهيّج العامة، واتهم المصلحين بأنهم يصدُّون عن سبيل الله، وصدق الله إذ يقول: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٨].

---

(١) بدائع التفسير (٢/ ٣٦٧).






والمبتدع مستدرك على الشريعة من حيث لا يشعر، فالنبي ﷺ قد بلَّغ البلاغ المبين كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧]، وهو مدّعٍ أن الشرع لم يكمل من حيث لم يشعر؛ لأنه يتعبد لله بما لم تأت به الشريعة والله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣].

قال الإمام مالك رحمه الله: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فما لم يكن يومئذٍ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً»(١).

والمبتدع معاند للشريعة ومضاد لها، لأنه سلك طريقاً غير ما رسمه له الشارع، وهذه محادّة لله ورسوله ﷺ، قال الشاطبي رحمه الله: «أن المبتدع معاند للشرع، ومشاق له؛ لأن الشارع قد عيّن لمطالب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعدّيها إلى غيرها، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمةً للعالمين. فالمبتدع رادٌّ لهذا كله، فإنه يزعم أن ثم طرقاً أخر، وليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا عيَّنه بمتعين، وأن الشارع يعلم ونحن أيضاً نعلم، بل ربما يفهم من

(١) الاعتصام (١/ ٦٢).




استدراكه الطرق على الشارع، أنه علم ما لم يعلمه الشارع، وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع؛ فهو كفرٌ بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود؛ فهو ضلال مبين»[1].

فالحاصل أن البدع أخطر من المعاصي، وجُرمها أعظم، قال أرطاة ابن المنذر رحمه الله[2]: «لأن يكون لي ابن فاسق من الفساق، أحبّ إليّ من أن يكون صاحب هوى»[3].

وقال يونس بن عبيد رحمه الله لابنه: «أنهاك عن الزنا والسرقة وشرب الخمر؛ ولأن تلقي الله بهنَّ أحبُّ إليَّ من أن تلقاه برأي عمرو وأصحاب عمرو»[4].

فالبدع شر وهي تُفسد القلوب، وإذا فسدت القلوب فسد الدين وحُرِّف وبُدِّل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن الشرائع أغذية القلوب، فمتى اغتذت القلوب بالبدع، لم يبق فيها فضل للسنن، فتكون بمنزلة من اغتذى بالطعام الخبيث»[5].

وقال شيخ الإسلام أيضاً: «فمن تدبّر هذا علم يقيناً ما في حشو البدع من السموم المُضعفة للإيمان، ولهذا قيل: إن البدع مشتقة من الكفر»[6].

(١) الاعتصام (١/ ٦٢).
(٢) الحجة على تارك المحجة (١/ ٢٨٦).
(٣) وهذا ليس بترخيص في الفسق فالواجب السعي في صلاح الأولاد وإقامتهم على السنة.
(٤) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٩٤).
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٠٤).
(٦) المصدر السابق (٢/ ١١٦).





والبدع تبدو صغيرة ثم تعود كبيرة، قال البربهاري رحمه الله: «فإن صغير البدع يعود حتى يصير كبيراً، وكذلك كل بدعة أُحدثت في هذه الأمة، كان أوَّلها صغيراً يُشبه الحقَّ فاغتَّر بذلك من دخل فيها، ثم لم يستطع الخروج منها، فعُظِّمت وصارت ديناً يُدان بها»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن البدع لا تزال تُخرج من صغير إلى كبير حتى تُخرجه إلى الإلحاد»(٢).

والبدعة تغرس أمثالها، وترقق إلى أخواتها؛ لأن تعظيم المتابعة للنبي ﷺ ضعف في قلوب المبتدعة بالتأويلات الباطلة، والتحريفات المفسدة، فلا تزال بهم حتى توقعهم في أنواع من البدع عافانا الله.

قال الشاطبي رحمه الله: «وصاحب البدعة لا يقتصر في الغالب على الصلاة دون الصيام، ولا على الصيام دون الزكاة، ولا على الزكاة دون الحج، ولا على الحج دون الجهاد، إلى غير ذلك من الأعمال، لأن الباعث له على ذلك حاضر معه في الجميع، وهو الهوى والجهل بشريعة الله»(٣).

وأهل البدع هم الذين فرقوا المسلمين، ومع قبح صنيعهم هذا، وعظم جرمهم قلبوا الحقائق ترويجاً لباطلهم، وصدّاً للناس عن تبين شرهم

(١) شرح السُّنَّة (ص٦٦ - ٦٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٠٦).
(٣) الاعتصام (١/ ١٩٦).




وإفسادهم لدين الناس، فصاحوا بدعاة الإصلاح وإنكار بدعهم بأنهم يفرقون المسلمين، هكذا زعموا!!

والبدع هي التي تُفرّق المسلمين عن الصراط المستقيم، وأهل البدع هم أهل الفرقة، فعن مجاهد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: الرجم، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: الخسف، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥]، الأهواء المفترقة[1].

وأهل البدع لا يألون جهداً في حرب السُّنة، ولهم تاريخ حافل في تأليب الولاة على أهل السُّنة، قال الشاطبي رحمه الله: «فإن أهل البدع كان من شأنهم القيام بالنكير على أهل السُّنة، إن كان لهم عصبة، أو لصقوا بسلطان تجري أحكامه في الناس، وتنفذ أوامره في الأقطار، ومن طالع سير المتقدمين، وجد من ذلك ما لا يخفى».

وقد ضاق فهم البعض بمفهوم البدعة والسُّنة، وقصر ذلك على ما يقع في الاعتقادات والعبادات فقط، وهذا قصور بلا شك.

قال حماد بن زيد: «سألت أيوب: ما السُّنة؟ قال: أن تقرأ القرآن كما علمت، وأن تروي الحديث كما سمعت، وأن تُعلّم الناس كما عُلِّمت»[2].

(١) الحجة على تارك المحجة (١/ ٢٦٨).
(٢) الحجة على تارك المحجة (٢/ ٦١٠).





وقال وهب بن منبه رحمه الله: «إن من أعوان الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا، وأوشكها ردى اتباع الهوى، ومن اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة في الدنيا حب المال والشرف، ومن حب المال والشرف استحلال المحارم»(١).

وقال أبو محمد المرتعش: «سُئل أبو حفص عمرو بن سلمة النيسابوري: ما البدعة؟

قال: التعدي في الأحكام، والتهاون بالسنن، واتباع الآراء والأهواء، وترك الاقتداء والاتباع»(٢).

وسُئل الإمام أحمد رحمه الله عن قوم لا يعملون، ويقولون: نحن متوكلون، فقال: هؤلاء مبتدعة.

وقال أبو بكر المروذي للإمام أحمد: إن ابن عيينة كان يقول: هم مبتدعة، فقال أبو عبدالله: هؤلاء قوم سوء، يريدون تعطيل الدنيا(٣).

وتكلم العلماء في وجوب ردّ البدع والأهواء والضلالات، وبيّنوا أن هذا واجب لحفظ الدين، وهو من النصيحة لله ورسوله ﷺ وعامة المسلمين، وهو داخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الحافظ ابن رجب

(١) المصدر السابق (١/ ٢٧٠).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٣٥).
(٣) الحث على التجارة (ص ٨٧).

الحنبلـي رحمه الله: «ومـن أنواع النصح لله تعالى، وكتابه، ورسـوله ﷺ، وهو ما يختص به العلماء، ردُّ الأهواء المضلة بالكتاب والسُّنَّة على موردها، وبيـانُ دلالتهما على ما يُخالف الأهـواء كلها، وكذلك ردُّ الأقوال الضعيفة من زلات العلماء، وبيانُ دلالة الكتاب والسُّنَّة على ردِّها»(١).

قال زائدة لمنصور بن المعتمر رحمه الله: أرأيت إذا كنت صائماً أتناوي السلطان؟

قال: لا، قلت: فأصحاب الأهواء والبدع؟ قال: نعم(٢).

فالكلام الممنوع هو الكلام في عورات المسـلمين، أما ردّ ما يُنسـب إلى الدين وهو ليس منه فهذا طاعة، وعبادة، وقربة، ودين، قال شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمـه الله: «من غلط فـي رأي رآه في أمر الدين من المسـائل العلمية والعمليـة، فهـذا إذا تكلم فيه الإنسـان بعلـم وعدل، وقصـد النصيحة، فالله تعالى يثيبه على ذلك، لاسيما إذا كان المتكلم فيه داعياً إلى بدعة، فهذا يجب بيان أمره للناس، فإن دفع شرّه عنهم أعظم من دفع شر قاطع الطريق»(٣).

وقال أيضاً في شأن المبتدع: «.. كل ذلك مخالف لسنة رسول الله ﷺ، فمن أمر بذلك كان أحق بالمنع، ويُشهر خطأه، ليتحفظ الناس من الاقتداء به»(٤).

(١) جامع العلوم والحكم (ص٥٨).
(٢) الحجة على تارك المحجة (١/ ٢٩١).
(٣) منهاج السنة (٥/ ١٤٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٠٥).



والرد والنكير على أهل البدع إجماع من الصحابة، وقد حكى إجماعهم أبـو صالح عبدالعزيز بن عباد المعـروف بالفرغاني حيث علَّق على معاملة السلف لصبيغ بقوله: «وهذا النكير والأدب والهجران إجماع من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين»[1].

والشرع حذَّر من إظهار البدع من بتيسير أسباب نشرها، فقد روى مسلم فـي صحيحـة عن علي رضـي الله عنه قال: حدثني رسـول اللـه ﷺ بأربع كلمـات: «**لَعَنَ اللـهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً، لَعَنْ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ**».

كما حرّم الشرع التعاضد بالمبتدع لأن هواه قد يوقعك في الضلالة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف: ٥١]، قال شـيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله: «وهو إشـارة إلى أنه لا ينبغي لك أيها الإنسـان أن تتخذ المضلين عضداً تنتصر بهم، لأنهم لن ينفعوك بل سـيضرونك، إذاً لا تعتمد على السفهاء ولا تعتمد على أهل الأهواء المنحرفة؛ لأنه لا يمكن أن ينفعوك بل هم يضرونك، فإذا كان الله عز وجل لم يتخذ المضلين عضداً فنحن كذلك لا يليق بنا أن نتخذ المضلين عضداً؛ لأنهم لا خير فيهم، وفي هذا نهي عن بطانة السـوء وعن مرافقة أهل السـوء، وأن يحذر الإنسان من جلساء السوء»[2].

❊ ❊ ❊

(١) الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥٤٧).
(٢) تفسير سورة الكهف (ص٩٤).








الدرس الخامس عشر
فـقـــه الـطــفـــل

قالت الرُّبَيِّع بنت معوذ بن عفراء رضي الله عنها: كُنَّا نُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا الصِّغَارَ، مِنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ، وَنَذْهَبُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَنَجْعَلُ لَهُمْ اللُّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ، فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ أَعْطَيْنَاهَا إِيَّاهُ عِنْدَ الْإِفْطَارِ[1].

هذا الحديث فيه بيان ما كان عليه الصحابة من رعاية الأطفال والصبيان وتربيتهم التربية الصالحة، وحملهم على فعل العبادات والطاعات ولو كان فيها شيء من المشقة؛ لأن عاقبة لزوم الطاعة للصبيان خير.

والصبيان والأطفال قرة عين والديهم، قال تعالى في شأن عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٖ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفرقان: ٧٤]، وخليل الرحمن إبراهيم، كان من دعائه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٖ فِي ٱلْأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤]، قال مكي بن أبي طالب رحمه الله: أي اجعل في ذريتي من يقوم بالحق من بعدي، فاستجاب الله دعاءه أيما إجابة وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ونبينا محمد ﷺ من ذريته، كما قال: «**أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيم وَبُشْرَى أَخِي عِيسَى**»[2].

وانظر إلى مقامات الأنبياء ومطالبهم العالية وسؤالهم الله عز وجل أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب صوم الصبيان (ص٣١٥ - رقم ١٩٦٠)، ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب مَن أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه (ص٤٦٤ - رقم ٢٦٦٩).
(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٧)، وصحَّحه ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٤١٣).

يكشف كرباتهم، وأن يرفع ما نزل بهم من ضرّ كيونس وأيوب في سورة الأنبياء، وكانت مسألة زكريا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فرزقه الله يحيى الذي يكفيه نعت الله له بقوله سبحانه: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: ٧].

ومن رُزق الإناث فقط، أو حُرم الذرية فليرض ولا يسخط فإن هذه قسمة الله الحكيم العليم، قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

وكراهية البنات والنفور منهن من أخلاق الجاهلية، قال تعالى في شأن أهل الجاهلية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

وكم من بنت كانت فأل خير على والديها، بل وبركة على أهلها وقومها أجمعين.

ورعاية البنات والإحسان إليهن سبب لدخول الجنة، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ ابْتُلِي مِنْ هَذِهِ البَنَات بِشَيءٍ فَأَحْسِن إليهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْراً مِنَ النَّارِ**»(١).

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة (٢٢٩ - رقم ١٤١٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات (ص ١١٤٦ - رقم ٦٦٩٣).




ولا يكاد توجد رعاية وعناية للطفل في شريعة أكمل من شريعة الإسلام، عناية به وصيانته وحفظه وحرزه ورعايته من مرحلة النطفة إلى الولادة، ثم رعايتـه حتى الفطام، ثم القيـام على تربيته حتى البلوغ، وهكذا، حتى يكون شاباً، وهكذا حتى آخر سني عمره، أي رعاية من المهد إلى اللحد.

فرعايتـه مـن النطفة إذ يُؤمـر الزوج إذا أتـى أهله أن يُسـمي الله ويقول: «**اللَّهُـمَّ جَنِّبْنَا الشَّـيطَان وَجَنِّب الشَّـيطَان مَا رَزَقْتَنَا**»، لتصـان النطفة في أول مرحلة عن الشـيطان، ثـم إذا وُلد المولود أن يُحنَّـك، فيكون أول ما يدخل جوفه التمر، وكذلك يؤذّن في أذنه أول ما يولد ليكون أول ما يطرق سـمعه كلام التوحيد.

قـال ابـن القيم رحمه الله: «وسـر التأذين - وَالله أعلـم - أَن يكون أول مَا يقرع سـمع الْإِنْسـان كَلِمَاته المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته وَالشَّـهَادَة الَّتِي أول مَا يدْخل بهَا فِي الْإِسْـلام فَكَانَ ذَلِك كالتلقين لَهُ شـعار الْإِسْـلام عِنْـد دُخُولـه إِلَـى الدُّنْيَا كَمَا يُلقـن كلمة التَّوْحِيـد عِنْد خُرُوجـه مِنْهَا، وَغير مسـتنكر وُصُول أثر التأذين إِلَى قلبه وتأثيره بِهِ وإن لـم يشْـعر مَعَ مَا فِي ذَلِك من فَائِدَة أُخْرَى وَهِي هروب الشَّياطِين من كَلِمَات الْأَذَان وَهُوَ كَانَ يرصده حَتَّى يُولد فيقارنه للمحنة الَّتِي قدرهَا الله وشاءها فَيسمع شَيْطَانه مَا يُضعفهُ ويغيظه أول أَوْقَات تعلقه بِهِ.



وَفِيـه معنى آخر وَهُوَ أَن تكون دَعوته إِلَى الله وَإِلَى دينه الْإِسْـلَام وَإِلَـى عِبَادَتـه سَـابِقَة على دَعْوَة الشَّـيطَان كَمَـا كَانَت فطْـرَة الله الَّتِي فُطـر عَلَيْهَـا سَـابِقَة علـى تَغْيِيـر الشَّـيْطَان لَهَا وَنَقله عَنْهَـا ولغير ذَلِك مـن الحكـم»[1].

وروى مسـلم في صحيحه عن عائشـة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يُؤتى بالصبيان فيُبرِّك عليهم، ويُحنكهم، فأُتي بصبي، فبال عليه، فدعا بماد، فأتبعه بوله.

قـال الحافظ النووي رحمه الله: «قوله: «فيبرك عليهم»: أي يدعو لهم، ويمسح عليهم، وأصل البركة: ثبوت الخير، وكثرته»[2].

ويُسـمى المولود بعد ذلك بأحسن الأسماء، وهذا من الإحسان للذرية، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ، وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ، فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ**»[3].

وعـن ابن عمـر رضي اللـه عنهما قال: قال رسـول اللـه ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ عز وجل عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»[4].

---

(١) تحفة المودود (ص١٠٢ - ١٠٣).

(٢) شرح صحيح مسلم (٣/ ١٩٤).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء (ص٦٩٧ - رقم ٤٩٤٨)، من طريق مسدد ثنـا هشـيم عن داود بن عمرو عن عبدالله بـن أبي زكريا عن أبي الدرداء. قـال أبو داود: ابن أبي زكريا لم يُدرك أبا الدرداء.

(٤) رواه مسـلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكنِّي بأبي القاسـم وبيان ما يسـتحب من الأسـماء (ص ٩٥٢ - رقم ٥٥٨٧).




قال ابن القيم رحمه الله: «فحفظ المنطق وتخيّر الأسماء من توفيق الله للعبد»[(١)].

وبعد أن يُسمى الطفل يُعقُّ عنه في يوم سابع من ولادته، عن الذكر شاتان، وعن الأنثى شاة، وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ غُلَامٍ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ، تُذْبَحُ عَنْهُ يَوْمَ سَابِعِهِ، وَيُسَمَّى فِيهِ، وَيُحْلَقُ رَأَسُهُ**»[(٢)].

والوالدان محبوسان من شفاعة ولدهما حتى يُعق عنه، فإن لم يُعق عنه وهو صغير فليبادر بفعل ذلك في أسرع وقت ليفك رهانه، قال ابن القيم رحمه الله في فوائد العقيقة: «وَمن فوائدها أَنَّهَا قرْبَان يَتَقَرب بِهِ عَن الْمَوْلُود فِي أول أَوْقَات خُرُوجه إِلَى الدُّنْيَا والمولود ينْتَفع بذلك غَايَة الإِنْتِفَاع كَمَا ينْتَفع بِالدُّعَاءِ لَهُ وإحضاره مَوَاضِع الْمَنَاسِك وَالْإِحْرَام عَنهُ وَغير ذَلِك، وَمن فوائدها أَنَّها تفك رهان الْمَوْلُود فَإِنَّهُ مُرْتَهن بعقيقته قَالَ الإمام أَحْمد: مُرْتَهن عَن الشَّفَاعَة لوَالِديهِ، وَقَالَ عَطاء بن أبي رَبَاح: مُرْتَهن بعقيقته، قَالَ: يحرم شَفَاعَة وَلَده»[(٣)].

---

(١) تحفة المودود (ص٢٦١).

(٢) رواه النسائي، كتاب العقيقة، باب متى يعق (ص ٥٨٩ - رقم ٤٢٢٥)، وأبو داود، كتاب الضحايا، باب في العقيقة (ص ٤١٣ - رقم ٢٨٣٨)، والترمذي، كتاب الأضاحي، باب من العقيقة (ص٣٦٩ - رقم ١٥٢٢)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) تحفة المودود (ص١٧٠).



ويُعتنى برضاعة الطفل حتى فطامه، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۝٢٣٣﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وأول ما يُبدأ في تنشئة الطفل عليه هو أصول العقيدة الصحيحة، وهذا ما فعله النبي ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا غُلامُ - أَوْ يَا غُلَيِّمُ - أَلا أُعَلِّمُك كَلِمَاتٍ يَنْفعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟**» فَقُلْتُ: بَلَى: فَقَالَ: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ باللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»(١).

وكما يُربى الطفل على العقيدة الصحيحة، فإنه كذلك يُكمّل بناءه بتربيته على ما يلحقه بالكبار، حتى إذا اشتد عوده كان متهيئاً لأمور الكبار، فقد روى مسلم في صحيحه عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْرِ، أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنها حِينَ نُفِسَتْ بابْنِهَا خَرَجَت إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُحَنِّكَهُ «فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا، فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرةٍ» قَالَ: فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَكَثْنَا سَاعَةً نَلْتَمِسُهَا قَبْلَ أَنْ نَجِدَهَا، «فَمَضَغَهَا. ثُمَّ بَصَقَهَا فِي فِيهِ، فَإِنَّ

(١) رواه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب حديث حنظلة (ص٥٧٢ - رقم ٢٥١٦)، وقال ابن رجب رحمه الله في نور الاقتباس، (ص٣١): إسناده حسن لا بأس به.




أَوَّلَ شَـيْءٍ دَخَلَ فِي بَطْنِهِ رِيق رَسُولِ اللهِ ﷺ»، ثُمَّ قَالَتْ أَسْمَاءُ: «ثُمَّ مَسَحَهُ وَصَلَّى عَلَيْهِ وَسَـمَّاهُ عَبْدَ اللهِ، ثُمَّ جَاءَ، وَهُوَ ابْنُ سَـبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانٍ، لِيُبَايِعَ رَسُـولَ اللهِ ﷺ، وَأَمَرهُ بِذَلِكَ الزُّبَيْرُ، فَتَبَسَّـمَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ حِينَ رَآهُ مُقْبِلاً إِلَيْهِ، ثُمَّ بَايَعَهُ».

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: «معنى «صلى عليه»: دعا له بالخير والبركـة، ثم قال في فوائد الحديث: ففيه جوازُ مبايعة من يعقل من الصغر، وتمرينهم على ما يُخاطب به الكبار»[1].

ويبـدأ الوالـدان بتربية الابـن تربية صالحـة، وهذا من أعظـم الواجبات المناطـة بالوالدين، وفي الصحيح أن النبي ﷺ قـال لعبد الله بن عمرو ابن العاص رضي اللـه عنهما: **«فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقّـاً، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وإِنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً»**[2].

قـال الحافظ النووي رحمه الله: ««وإِنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً» فيه: أن على الأب تأديـب ولده وتعليمه، ما يحتاج إليه من وظائف الدين، وهذا التعليم واجب على الأب، وسائر الأولياء قبل بلوغ الصبي والصبية»[3].

---

(١) المفهم (٥/ ٤٦٩).
(٢) رواه البخـاري، كتـاب الصوم، باب حق الأهل في الصوم (ص٣١٨ - رقم ١٩٧٧)، ومسـلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به (ص ٤٧٣ - رقم ٢٧٣٠).
(٣) شرح صحيح مسلم (٨/ ٤٣ - ٤٤).



فيجب أن يُربى الصبيان على فعل الواجبات وترك المحرمات، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(١).

فينبغي تمرين الصبي على فعل الطاعات وترك المحرمات، ولا يصحّ أن يُترك الصبي بدون أن يُؤمر بفعل الطاعات وترك المحرمات، قال ابن القيم رحمه الله: «وَالصَّبِيّ وَإِن لم يكن مُكَلّفا فَوَلِيه مُكَلّف لَا يحل لَهُ تَمْكِينه من الْمحرم فَإِنَّهُ يعتاده ويعسر فطامه عَنهُ، وَهَذَا أصح قولي الْعلمَاء، وَاحْتج من لم يره حَرَاماً عَلَيْهِ بِأَنَّهُ غير مُكَلّف فَلم يحرم لبسه للحرير كالدابة وَهَذَا من أفسد الْقيَاس فَإِن الصَّبِي وَإِن لم يكن مُكَلّفا فَإِنَّهُ مستعد للتكليف، وَلِهَذَا لَا يُمكن من الصَّلَاة بِغَيْر وضوء وَلَا من الصَّلَاة عُريَانا ونجسا وَلَا من شرب الْخمر والقمار واللواط»(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ما حرم على الرجل فعله حرم عليه أن يُمكّن منه الصغير، وقد رأى عمر على صبي للزبير ثوباً من حرير فمزّقه، وقال: «لا تلبسوهم الحرير»، وكذلك ابن مسعود مزّق ثوب حرير على ابنه»(٣).

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة (ص ٨٢ - رقم ٤٩٥)، وصحَّحه الألباني.
(٢) تحفة المودود (ص ٤٥٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٤٣).




والنبي ﷺ كان إذا رأى صبيّاً وقع في خطأ أنكره عليه وبيَّن له الصواب، فقد رأى ﷺ غلاماً تطيش يده في الصحفة فقال له: «**يَا غُلَام سَمَّ الله، وَكُلْ بيَمِينك، وَكُل مِمَّا يَلِيك**».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أَخَذَ الْحَسَنْ بْنُ عَلِيَّ رضـي الله عنهما تَمْرَةً مِنْ تَمْـرِ الصَّدَقَة، فَجَعَلَهَا فِي فِيه، فَقَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «**كِخْ كِخْ، كِخْ ارْم بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟!**».

وبهـذا يتبيـن خطـأ من لا يزجـر الصبيان عـن المحرمات بدعـوى أنهم غيـر مكلفيـن، قال أبو محمـد عبدالله بن أبي جمرة الأندلسـي رحمه الله: «إنـه أفرط الأمـر، إذا رُئي أحد يأمـر أهله بما يتعين عليـه وعليهم من أمور الديـن، ويشـدد على أهله في الديـن يُنهر، ويُقال له: دعـه، فإنما هو صبي، حتى يكون في سـنك، وحينئذٍ يرجع الأمـر كأن الدين دينان، دين للصغار، ودين للكبار»(١).

وكان النبـي ﷺ يراعي حقوق الصبيان، ويحفظها ولا يتهاون في شـيء منها، فعن سَـهْلِ بْنِ سَـعْدٍ السَّـاعِدِيَّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِشَـرَاب، فَشَـرِبَ مِنْهُ وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ وَعَنْ يَسَارِهِ الأَشْـيَاخُ، فَقَالَ لِلْغُلامَ: «**أَتَـأْذَنُ لِي أَنْ أُعطِيَ هَؤُلاءِ؟**»، فَقَالَ الغُلَامُ، لَا وَاللهِ يَا رَسُـول اللهِ، لَا أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَداً(٢).

---

(١) بهجة النفوس (٢/ ٤٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأشربة، باب هل يستأذن الرجل من عن يمينه (ص ٩٩٦ - رقم ٥٦٢٠)، ومسـلم، كتـاب الأشـربة، بـاب اسـتحباب إدارة المـاء واللبـن ونحوهمـا على يميـن المبتدئ (ص٩٠٥ - رقم ٥٢٩٢).



وكذلـك الصحابة كانوا يحفظون حقوق الصبيان ولا يتهاونون بها، فقد قدَّموا عمرو بن سلمة الجرمي ليصلي بهم وهو ابن ست أوسبع سنين، لأنه كان أحفظهم للقرآن، كما في صحيح البخاري.

وإذا كانـت تصحّ إمامـة الصبي المميّز فمصافته من بـاب أولى، فلذلك مـن يتقدم مـن الصبيـان المميزين للصلاة وهو يُحسـنها ولا يشـوش على المصليـن فإنه لا تجـوز مصادرة حقه في ذلك، قال شـيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله: «إنْ جاءَ الصَّبيُّ مبكِّراً وتقدَّمَ وصار في الصَّفِّ الأولِ، فإن القولَ الرَّاجحَ الذي اختاره بعضُ أهلِ العِلم - ومنهم جَدُّ شيخ الإسـلامِ ابنِ تيمية، وهو مَجْدُ الدِّين عبدالسـلام - أنه لا يُقامُ المفضولُ مِن مكانهِ، وذلك لقولِ النبي ﷺ: «**مَن سَبَقَ إلى ما لم يَسبِقْ إليه أَحَدٌ فهو أَحَقُّ بِهِ**»[1]. وهذا العمومُ يشـمَلُ كلَّ شيءٍ اجتمع اسـتحقاقُ النَّاسِ فيه، فإنَّ مَن سَـبَقَ إليه يكـون أحقَّ بـه. ولأنَّ النبي ﷺ: «**نَهَـى أَنْ يُقِيمُ الرَّجُـلُ أَخَاهُ مِن مَكَانِهِ ثم يَجلسُ فيه**». لأنَّ هذا عدوان عليه.

فـإنْ قـال قائلٌ: «**مَنْ سَـبَقَ إلى ما لم يَسـبقْ إليه أحدٌ فهو أحـقٌ به**» عامٌ. وقولُه: «**لِيَلِني منكم أُولُو الأحلامِ والنُّهَى**» خاصٌ، والقاعدةُ: أنَّه إذا اجتمعَ خاصٌ وعامٌ فإنَّ الخاصَّ يُخَصِّصُ العامَّ؟

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الخوارج، باب في إقطاع الأرضين (ص ٤٥٠ - رقم ٣٠٧١)، من حديث أسمر بن مضرس رضي الله عنه.




فالجـواب عنـه أن نقولَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقلْ: لِيُقـْم منكم أُولُو الأحلام والنُّهَـى مَن كانوا دونهـم. وإنما قال: «**لِيَلِني منكم أُولُـو الأحلام والنُّهى**»، وهـذا حَثٌّ لهـؤلاء الكِبارِ على أن يتقدَّموا لِيَلُوا رسـولَ اللـه ﷺ. فهذا هو وَجْـهُ الحديـثِ، ولأنَّ فيه مفسـدةَ تنفيرِ هؤلاء الصبيان بالنسـبة للمسـجد، لاسـيَّما إذا كانوا مراهقين، أي: إذا كان للواحد منهم ثلاث عشـرة سَنَةً، أو أربع عشرة سنة، ثم نقيمه مِن مكانه»[١].

وينبغي على الوالدين قصد صبيانهم بالتعليم، قال سفيان الثوري رحمه الله: «ينبغي للرجل أن يُكره ولده على العلم فإنه مسؤول عنه»[٢].

وقال ابن مفلح رحمه الله: «كان يُقال: من أَدَّب ابنه صغيراً، قرَّت به عينه كبيراً»[٣].

وأول مـا ينبغي أن تنصرف الهمم إلـى تعليمه هو القرآن كتاب الله، ولا ينبغـي لـلأب أن يجزع إذا لم يحفـظ ابنه القرآن كله في صبـاه، فإن البعض يـرى أو يسـمع عن بعض الصبيـة أنه حفظ القـرآن وهو ابن أربع سـنين أو سـت سـنين، فـإذا رأى ابنه لم يحفـظ في مثل هذه السـن مقـداراً كبيراً من القـرآن أيس مـن ابنه، وترك تحفيظـه للقرآن، فهذا خطـأ فأولئك خارجون عـن عادة أمثالهم مـن صغار الصبيان، وبالصبر والإصـرار وتحفيظ الطفل

(١) الشرح الممتع (٤/ ٣٩٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٧٣).
(٣) الآداب الشرعية (٣/ ٢٥٢).

بحسب ما يحتمله ذهنه، فإن أذهان الصبيان تختلف، يدرك الطفل خيراً كثيراً، وهؤلاء خيار الصحابة وعلماء الأمة لم يحفظوا القرآن كله في سن الرابعة أو السادسة.

قالت عائشة رضي الله عنها: «وكنت جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «تُوفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم»(٢).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وفيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن؛ لأن ابن عباس أخبر عن سنه حين موت الرسول ﷺ، وقد كان جمع المفصل، وهو من الحجرات، وعمره آنذاك عشر سنين».

وقال أيضاً: «وعلى كل تقدير، ففيه دلالة على جواز تعليم القرآن في الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مستحباً أو واجباً، لأن الصبي إذا تعلَّم القرآن بلغ وهو يعرف ما يُصلي به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيراً، وأشد علوقاً بخاطره وأرسخ وأثبت، كما هو المعهود من حال الناس.

وقد استحب بعض السلف أن يُترك الصبي في ابتداء عُمُره قليلاً لِلَّعب، ثم تُوفَّر همته على القراءة، لئلا يُلزم أولاً بالقراءة فيملَّها ويعدل عنها إلى اللعب.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك (ص٧٠١ - رقم ٤١٤١).
(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم الصبيان القرآن (ص٩٠٢ - رقم ٥٠٣٥)، وقال: «المحكم: المفصل».




وآخرون من السلف يرون فضل اغتنام الصِّغر لطلب العلم لقلة الشواغل وصفاء الذهن، وقوة الذاكرة، قال سـفيان الثوري رحمه الله: «من ترّفه في حداثته فاته كثير من العلم».

وكـره بعضهـم تعليمـه القرآن وهـو لا يعقل ما يُقـال له، ولكـن يُترك حتى إذا عقـل وميَّـز عُلِّـم قليلاً قليلاً بحسـب همَّتـه ونهمته وحفظه وجـودة ذهنه، واستحب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه أن يُلقَّن خمس آيات خمس آيات، رواه البيهقي في شعب الإيمان بسند جيد».[1]انتهى كلام ابن كثير رحمه الله.

وهـذا الذي ذكره ابـن كثير رحمه الله من اسـتحباب تـرك الصبي يأخذ حظـه من اللعب زمن الطفولة هو من تمام الحكمة؛ لأن الصبيان نفوسـهم ضعيفة يُخشى إذا حُملوا على محض الطاعة في جميع الأوقات أن تتفسخ نفوسـهم، وقد ذكر هذا غير واحد من أئمة السـلف. عن سـعيد بن جبير أو إبراهيم قال: «كان يُعجبهم أن يُعلموا الغلام القرآن بعد صبوة»[2].

الصبوة: الميـل إلى الهوى، قال الخطابي: «وإنما كان يعجبهم ذلك منه وإن كان ترك الصبا أسـلم له، لأنه إذا تاب وأرعوى كان أشـد لاجتهاده في الطاعـة، وأكثـر لندمه على ما فرط منـه، وأبعد له من أن يعجـب بعمله، أو يتكل عليه»[3].

(١) فضائل القرآن (ص٢٢٦ – ٢٢٧).
(٢) رواه أحمد في الزهد (ص٣٨٨).
(٣) فضائل القرآن للمستغفري (١/ ٢١٩).





وقد وُجد من السلف من كان عمره كلّه جد وطلبٌ للعلم، كمحمد ابن عبدالباقي الأنصاري الكعبي قاضي المارستان أبو بكر، قال عن نفسه: «حفظت القرآن ولي سبع سنين، وما علمت أني ضيَّعت من عمري شيئاً في لهو أو لعب، وما من علم إلا وقد حصَّلت بعضه أو كله»(١).

والصواب أن يُعطى الصبي وقتاً يسيراً في نهاره يأخذ حظه من اللهو المباح ويكون في سائر يومه في الطاعة وعمارة وقته بالعلم النافع، أما أن نتركه سنوات في اللهو ثم نعلّمه فهذا يعسر فطامه عن اللهو، ومن تمحّض للطاعة ليس كمن خلط، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢): «فإنك بالضرورة تجد المتجرد للمشروع أعظم اهتماما به من المشرك بينه وبين غيره، ومن لم يدرك هذا فلغفلته أو إعراضه، وهذا أمر يعلمه من يعرف بعض أسرار الشريعة».

على كل حال لا مانع أن يلهو الصبي باللعب المباح ساعة من نهار، أما أن يستغرق وقته كله في اللعب فهذا حرمان وتضييع، وربما عسر فطامه عن اللهو واللعب.

❊ ❊ ❊

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ١٩٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١ / ٥٤٥).




الدرس السادس عشر
الـزجـر عــن الـغـلــو

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الوِصَالِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟!

فَقَالَ: «**وَأَيُّكُمْ مِثْلِي، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**» فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَنِ الوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْماً، ثُمَّ يَوْماً، ثُمَّ رَأَوُا الْهِلَالَ، فَقَالَ: «**لَوْ تَأَخَّرَ الهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ**» كَالْمُنَكِّلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا[١].

هؤلاء جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم وجدوا بأنفسهم قوةً ونشاطاً، فأرادوا مواصلة الصيام وعدم الفطر مع غروب الشمس، فزجرهم النبي ﷺ عن ذلك، وبيَّن لهم أن مواصلته هو، لخصوصية فيه، وأن الله يطعمه ويسقيه، وهذا غير حاصل لهم، فنهاهم عن الوصال، فأبوا، فجعلهم يواصلون لا من باب الإذن الشرعي، ولكن ليتبينوا حكمة الشرع في النهي عن الوصال.

فالفطر وتناول الطعام عونٌ على الصيام، فيتقوى البدن بما تناوله من طعام على صيام النهار، كما أن الفطر يُجمّ البدن ويريحه فيحصل له انبساط ونشاط فالليل محل الفطر، والنهي عن صيامه كالنهي عن الصلاة

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال (ص٣١٦ - رقم ١٩٦٥)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال (ص٤٤٨ - رقم ٢٥٦٣).



في الأوقات المكروهة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «في النهي عنه بعض الأوقات مصالح أُخر من إجمام النفوس بعض الأوقات من ثقل العبادة كما يُجمُّ بالنوم وغيره. ولهذا قال معاذ رضي الله عنه: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»(١).

فديننا دين وسطية وعدل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: خياراً عدولاً، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله «والآيات الآمرة بالعدل والناهية عن ضده كثيرة. والعدل في كل الأمور: لزوم الحد فيها وأن لا يغلو ويتجاوز الحد، كما لا يقصِّر ويدع بعض الحق. ففي عبادة الله أمر بالتمسك بما عليه النبي ﷺ في آيات كثيرة وذم المقصرين عنه في آيات كثيرة»(٢).

فالوسطية هي لزوم الشرع، بأداء شرائعه من غير غلو ولا تقصير، وليس معنى الوسطية ركوب المحرمات والتفسخ من الأوامر الشرعية فهذا تضييع وتفريط وليس بوسطية.

قال الحسن البصري رحمه الله: «دين الله وُضع فوق التقصير، ودون الغلو»(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٨٧).
(٢) القواعد الحسان (ص٩٣).
(٣) الاعتصام (١/ ٣٠٦).




وقـال وهـب بن منبـه رحمه اللـه: «إن لكل شـيء طرفان ووسـط، فإذا أمسـكت بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسكت بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء»(١).

وقال مطرف بن عبدالله رحمه الله: «العلم أفضل من العمل، والحسـنة بين السيئتين، وخير الأمور أوسطها، وشرُّ السير الحقحقة»(٢).

وقال عمير بن إسحاق رحمه الله: «لمن أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم، فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقلُّ تشديداً منهم»(٣).

وقال الوزير ابن هبيرة رحمه الله: «الحق هو الشـرع المشروع، فكل من غلا فيه فهو بمنزلة من قصَّر عنه»(٤).

إذاً الوسـطية لزوم الشـرع لا إفراط ولا تفريط، قال ابن القيم رحمه الله: «إن التعمق والتنطع والتشـديد الذي نهى عنه رسـول الله ﷺ هو المخالف لهديه وهدي أصحابه وما كانوا عليه وأن موافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعـده هـو محض المتابعة وإن أباهـا وجهلها من جهلهـا، فالتعمق والتنطع مخالفة ما جاء به وتجاوزه والغلو فيه ومقابلة إضاعته والتفريط فيه والتقصير

(١) تاريخ ابن أبي خيثمة (١/ ٣٢١).
(٢) الاعتصام (٢/ ١٦٤).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٦٦).
(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ٢٣٢).



عنه، وهما خطأ وضلالة وانحراف عن الصراط المستقيم والمنهج القويم، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والجافي عنه».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «خير الناس النمط الأوسط الذي يرجع إليهم الغالي ويلحق بهم التالي»(١).

وقال ابن عائشة: ما أمر الله عباده بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، فإما إلى غلو وإما إلى تقصير.

وقال بعض السلف: «دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وقد مدح تعالى أهل الوسط بين المنحرفين في غير موضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾[الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾[الإسراء: ٢٩]، فمنع ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقهم انحراف في جانب الإمساك، والتبذير انحراف في جانب البذل، ورضاء الله فيما بينهما، ولهذا كانت هذه الأمة أوسط الأمم وقبلتها أوسط القبل بين القبلتين المنحرفتين، والوسط دائماً محمي الأطراف، أما الأطراف فالخلل إليها أسرع كما قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحميِّ فاكتنفت* بها الحوادث حتى أصبحت طرفا**

(١) ذكره ابن المبارك عن محمد بن طلحة عن علي.




فقد اتفق شرع الرب تعالى وقدره على أن خيار الأمور أوسطها[1].

وقد تكلم العلماء في معنى الغلو، فقال الشاطبي رحمه الله: «فإن الغلو هو المبالغة في الأمر، ومجاوزة الحد فيه إلى حيِّز الإسـراف، وقد دلَّ عليه مما تقدم أشياء:

حيث قالﷺ: «**يا أيها الناس! عليكم بالقصد..**» الحديث.

وقـال اللـه عـز وجـل: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

وعـن ابـن عباس رضي اللـه عنهما؛ قـال: قال لي رسـول الله ﷺ غداة العقبـة: «**أُلقـط لي حصيات من حصـى الحذف**»، فلمـا وضعتهن في يده؛ قـال: «**بأمثال هـؤلاء؛ وإياكم والغلو في الدين؛ فإنَّمـا هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**».

فأشـار إلـى أن الآيـة في النهي عـن الغلو يشـمل معناها كل مـا هو غلو وإفراط»[2].

فهنا لابد من ملاحظة أسـرار الشـريعة ومقاصدها ومعانيها، فلكل شيء حكمة، فعندما يأمر الشرع بالصلاة لأوقات معينة، وينهى عن الصلاة مطلقاً فرضها ونفلها في أوقات أخرى فذلك لحكمة.

(١) الصلاة (ص١٩٢).
(٢) الاعتصام (٢/ ١٦٣ - ١٦٤).





وكذلك عندما ينهى الشرع عن الطعام من الفجر إلى غروب الشمس، ويأمر بالفطر من غروب الشمس إلى طلوع الفجر فهذا لحكمة، فمن سرد الصوم الليل والنهار فقد أوقع نفسه في الحرج، وضادّ الشريعة في حكمها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيناً أسرار الشريعة في النهي عن الصلاة في بعض الأوقات: «إن من جملة حكمة النهي عن التطوع المطلق في بعض الأوقات: إجمام النفوس في وقت النهي لتنشط للصلاة، فإنها تنبسط إلى ما كانت ممنوعة منه، وتنشط للصلاة بعد الراحة»[1].

وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله: «السلوك بين طرفي الإفراط، وهو الجور على النفوس، والتفريط بالإضاعة، ووقوفاً مع ما يرسمه العلم، لا وقوفاً مع داعي الحال. وإفراد المعبود بالإرادة، وهو الإخلاص، ووقوع الأعمال على الأمر، وهو متابعة السُّنَّة.

فبهذه الأمور الستة تتمّ لأهل هذه الدرجة استقامتهم. وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة: إما خروجاً كليّاً، وإما خروجاً جزئياً.

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيراً – وهما الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسُّنة – فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره. فإن رأى فيه

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٢١٧)، استفدته من «حلية طالب العلم» للعلامة بكر أبو زيد رحمه الله.






داعية للبدعة، وإعراضاً عن كمال الانقياد للسُّنة أخرجه عن الاعتصام بها. وإن رأى فيه حرصاً على السُّنة، وشدة طلب لها لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهـاد، والجور على النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد فيها، قائـلاً لـه: إن هذا خير وطاعـة. والزيادة والاجتهاد فيهـا أكمل. فلا تفتر مع أهـل الفتور. ولا تنم مع أهل النوم، فـلا يزال يحثه ويُحرضه، حتى يُخرجه عـن الاقتصاد فيها، فيخـرج عن حدها. كما أن الأول خارج عن هذا الحد. فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر.

وهذه حال الخوارج الذين يحقر أهل الاسـتقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهـم مع صيامهـم. وقراءتهم مع قراءتهـم. وكلا الأمرين خروج عن السُّنة إلى البدعة. لكن هذا إلى بدعة التفريط، والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف.

وقال بعض السـلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشـيطان فيـه نزعتان، إما إلى تفريـط، وإمـا إلى مجاوزة، وهـي الإفـراط، ولا يبالي بأيها ظفـر: زيادة أو نقصان»[1].

والنبي ﷺ بيَّن أن الدين يسـر، وأن من أراد الخروج عن يسـر هذا الدين واعتداله فإنه سـيلحقه العنت، وأنه سيُغلب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه

(١) مدارج السالكين (٣/ ٩٠).





عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»(١).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «النهي عن التشديد في الدين بأن يُحمّل الإنسان نفسه من العبادة ما لا يحتمله إلا بكلفة شديدة، وهذا هو المراد بقوله ﷺ: «**لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»، يعني أن الدين لا يؤخذ بالمغالبة، فمن شادّ الدين غلبه وقطعه».

وقال ابن رجب أيضاً رحمه الله: «التسديد: هو إصابة الغرض المقصود، وأصله من تسديد السهم إذا أصاب الغرض المرميّ إليه ولم يخطه.

والمقاربة: أن يُقارب أخرى، أو تكون المقاربة لمن عجز عن الإصابة كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ١٦﴾ [التغابن: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «**إِذَا أَمَرتكُمْ فَائتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**».

وفي «المسند» و«سنن أبي داود» عن الحكم بن حزن الكلفي: أنه سمع النبي ﷺ يقول على المنبر يوم الجمعة: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا – أَوْ لَنْ تَفْعَلُوا – كُلَّ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ سَدِّدُوا، وَأَبْشِرُوا**».

وقيل أراد بالتسديد: العمل بالسداد – وهو القصد والتوسط في العبادة – فلا يُقصِّر فيما أُمر به، ولا يتحمَّل فيما لا يطيقه.

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (ص٩ – رقم٣٩).




قال النضر بن شميل: السداد: القصد في الدين والسبيل، وكذلك المقاربة المُرادُ بهما: التوسط بين التفريط والإفراط، فهما كلمتان بمعنى واحد.

وقيل: بل المراد بالتسديد: التوسط في الطاعات بالنسبة إلى الواجبات والمندوبات، وبالمقاربة: الاقتصار على الواجبات»[(١)].

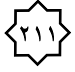
وجاء في صحيح البخاري من رواية عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا سَفَراً قَطَعَ، وَلَا ظَهْراً أَبْقَى**».

والمُنْبَتُّ: هو المنقطع في سفره قبل وصوله، فلا سفره قطع ولا ظهره الذي يسير عليه أبقى حتى يُمكنه السير عليه بعد ذلك، بل هو كالمنقطع في المفاوز، هو إلى الهلاك أقرب، ولو أنه رفق براحلته واقتصد في سيره عليها لقطعت به سفره وبلغ إلى المنزل.

كما قال الحسن: «نفوسكم مطاياكم، فأصلحوا مطاياكم تُبلغكم إلى ربكم عز وجل»[(٢)].

وقال الشاطبي رحمه الله: «فشبّه الموغل بالعنف والمُنْبتَّ، وهو المنقطع في بعض الطريق؛ تعنيفاً على الظهر - وهو المركوب - حتى وقف فلم يقدر على السير، ولو رفق بدابته، لوصل إلى رأس المسافة.

(١) فتح الباري (١/ ١٥١ - ١٥٢).
(٢) فتح الباري (١/ ١٥٢ - ١٥٣).



فكذلك الإنسـان؛ عُمُره مسـافة، والغاية الموت، ودابته نفسه، فكما هو مطلوب بالرفق على الدابة حتى يصل بها؛ فكذلك هو مطلوب بالرفق بنفسه حتى يسهل عليها قطع مسافة العمر بحمل التكليف، فنهى في الحديث عن التسبُّب في تبغيض العبادة للنفس، وما نهى الشرع عنه لا يكون حسناً»[1].

والمنقول عن بعض السلف من مجاوزة ما رُسم من الاقتصاد في العبادة، فهذه اجتهاداتهم والأسوة هو رسول الله ﷺ.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[2]: «وكان كثير من المتقدمين يحملون على أنفسهم من الأعمال ما يضرّ بأجسادهم ويحتسبون أجر ذلك عند الله وهؤلاء قوم أهل صدق وجد واجتهاد فيحثون على ذلك ولكن لا يُقتدى بهم، وإنما يُقتدى بسُـنَّة رسـول الله ﷺ فإن خيـر الهدي هديه ومن أطاعـه فقـد اهتدى ومن اقتدى به وسـلك وراءه وصل إلـى الله عز وجل. وقد كان النبي ﷺ ينهي عن التعسير ويأمر بالتيسير ودينه الذي بُعث به يُسر وكان يقول: «**خير دينكم أيسره**» ورأى رجلاً يُكثر الصلاة فقال: «إنكم أمة أريد بكم اليسر».

ولم يكن أكثر تطوع النبي ﷺ وخواص أصحابه بكثرة الصوم والصلاة بل ببر القلوب وطهارتها وسلامتها وقوة تعلقها بالله خشية له ومحبة وإجلالاً

(١) الاعتصام (٢/ ١٥٩ - ١٦٠).

(٢) لطائف المعارف (ص٢٦٩).




وتعظيماً ورغبة فيما عنده وزهدا فيما يفنى، وفي المسـند عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إني أعلمكم بالله وأتقاكم له قلباً».

قـال ابن مسـعود رضي الله عنـه لأصحابه: أنتم أكثر صـلاة وصياماً من أصحـاب محمد ﷺ وهـم كانوا خيراً منكـم قالوا: ولـم؟ قـال: كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب في الآخرة.

وقال بكر المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره.

قـال بعـض العلمـاء المتقدميـن: الـذي وقـر فـي صـدره هو حـب الله والنصيحة لخلقه.

وسـئلت فاطمة بنت عبدالملك زوجة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله بعد وفاته عن عمله؟ فقالت: والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا بأكثرهم صياما ولكن والله ما رأيت أحداً أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفـض انتفاض العصفور من شـدة الخوف حتى نقـول: ليصبحن الناس ولا خليفة لهم.

قـال بعض السـلف: ما بلغ من بلـغ عندنا بكثرة صـلاة ولا صيام ولكن بسـخاوة النفوس وسـلامة الصدور والنصح للأمـة، وزاد بعضهم واحتقار أنفسهم.



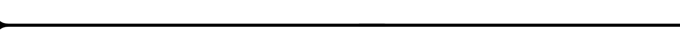


وذُكر لبعضهم شـدة اجتهاد بني إسـرائيل في العبادة فقال: إنما يريد الله منكـم صدق النيـة فيما عنده فمـن كان بالله أعرف فله أخـوف وفيما عنده أرغب فهو أفضل ممن دونه في ذلك وإن كثر صومه وصلاته».

فالحاصل أن الشـريعة شريعة يسـر فيما أمرت به من العبادات، ولا أدل علـى ذلـك من فريضة الصلاة التـي هي آكد الأركان بعد الشـهادتين، فإنها أول مـا فُرضت خمسـين صلاة في اليوم والليلة لما عُـرج بالنبي ﷺ، فقال موسـى، لنبينا محمـد ﷺ: «**ارجع إلى ربك فاسـأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك**»[1].

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخـاري ومسـلم، كتـاب الصـلاة، بـاب كيـف فرضت الصـلاة (ص٦٢ - رقـم ٣٤٩)، ومسـلم، كتاب الإيمان، باب الإسـراء برسـول الله ﷺ إلى السـموات وفرض الصلاة (ص٨٢ - رقم ٤١١).






الدرس السابع عشر
فــقـــه الـفـتـيـــا

عـن ابن عباس رضـي الله عنهما قال: جَـاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِـيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ، إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَـهْرٍ، أَفَأَقْضِيهِ عَنْهَا؟ فَقَالَ: «**لَوْ كَانَ عَلَـى أُمِّـكَ دَيْنٌ، أَكُنْتَ قَاضِيَهُ عَنْهَا؟**» قَالَ: نَعَـمْ، قَالَ: «**فَدَيْنُ اللهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى**»(١).

هذا اسـتفتاء من صحابي في شـأن أمه التي ماتت وعليها صيام شهر من رمضان، وجاء جواب النبي ﷺ بضرب مثل يسهل فهمه ويعرفه كل الناس، ويبقى راسخاً في الذهن يرتبط ببداهة في حكم القضاء الواجب على أمه في حق الله بما ثبت نظيره في حق المخلوقين عليها.

ومـن هنـا نسـتنتج أن الفتيا لها فقههـا، وأن من محاسـن الفتوى تقريب الجواب لذهن السائل بما يقرب منه فهمه.

فالفتـوى لهـا أصولهـا وضوابطهـا، والناس يحتاجـون إلى مـن يُبلَغهم أحكام الله عـز وجل، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

(١) رواه البخـاري، كتـاب الصوم، بـاب مَن مات وعليه صوم (ص٣١٤ – رقم ١٩٥٣)، ومسـلم، كتاب الصيام، باب قضاء الصوم عن الميت (ص٤٦٧ – رقم ٢٦٩٤).





والفتـوى فـي الحقيقة خلاصـة تعـاون بين المسـتفتي والمفتـي، فعلم المفتي وحده لا يكفي في الدلالة على الحق، فلابد للمستفتي من بيان كل ما يحتفّ من قرائن بحقيقة مسـألته، ليقف المفتي على حقيقة المسألة بكل أبعادها مما يكون سبباً في بلوغ الحق وإدراكه.

والمجتمـع وأفراده لهم دور كذلك في صيانة الفتوى ودلالة المسـتفتي على من يفتيه الفتوى الصحيحة، ودليل ذلك قصة الرجل الذي قتل تسـعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه على مفتٍ أفتاه أن لا توبة له فقتله المسـتفتي وأكمل به المائة، ثم سـأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه، فقـال: ومن يحـول بينك وبين التوبة، وقال له: اخـرج من ارضك فإنها بلد سوء فخرج، فمات في الطريق فغفر الله له(١).

فدلالة الناس للقاتل المسـتفتي أول مرة خاطئـة وعواقبها كانت وخيمة حيـث أدت إلـى قتل المفتي، ولـو اخترمت المنية المسـتفتي وهو في تلك الحالة من الإصرار على القتل لأدى ذلك إلى سوء عاقبته في الدار الآخرة، وفي المرة الثانية كانت دلالة الناس للمستفتي صحيحة فحصل بذلك خير للمسـتفتي حيث تاب وأقلع عن الإفسـاد في الأرض، وسلم المجتمع من شره، كما سلم المفتي من شرّه أيضاً، وكانت عاقبة المستفتي حميدة حيث مات مقبلاً على الله تائباً إليه.

---

(١) رواه البخـاري، كتـاب أحاديـث الأنبياء ص٥٨٥ - رقم ٣٤٧٠)، ومسـلم، كتـاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (ص١١٩٩ - رقم ٧٠٠٨).




ومـن الأدلة الواضحـة على أثر الفتيـا على الجميع المسـتفتي والمفتي والمجتمـع حديث عبدالله بن عمرو بن العـاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قـال: «**إِنَّ اللـهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعـاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ صُـدُورِ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِـضُ العِلْـمَ بِقَبْـضِ العُلَمَاءِ، حَتَّـى إِذَا لَمْ يُبْـقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسـاً جُهَّالاً، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[1].

فتأمـل قوله: «فَضَلُّـوا وَأَضَلُّوا»، قال أبو محمـد عبدالله ابن أبي جمرة الأندلسـي رحمـه الله في فوائـده: «فيه دليل على أن مـن عمل بفتوى على غيـر وجهها يلحقه من الإثـم مثل ما يلحق المفتي بها، لأنه، قد جعله ضالّاً كما جعل ضلال المفتي له بذلك سواء»[2].

ومـن علامات العالـم والمفتـي التقي أنه لا يستشـرف للفتيا، ويفرح إذا كُفي بغيره، قال سفيان: «من أحب أن يُسأل فليس بأهل أن يُسأل»[3].

وهكـذا كان الصحابـة يتدافعـون الفتـوى، قـال البـراء: «لقـد رأيـت ثـلاث مئـة من أهل بدر ما منهم من أحد إلا وهـو يُحب أن يكفيه صاحبه الفتوى»[4].

---

(١) رواه البخـاري، كتـاب العلـم، باب كيف يُقبض العلـم (ص٢٢ - رقم ١٠٠)، ومسـلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (ص١١٦٤ - رقم ٦٧٩٦).
(٢) بهجة النفوس (١/ ١٤٤).
(٣) أخلاق العلماء (ص١٢١).
(٤) تعظيم الفتيا، لابن الجوزي (ص٧٢).

وقال عبدالرحمن بن أبي ليلى رحمه الله: «أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار، ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلا ودّ أن أخاه كفاه».

وقال سفيان: «أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا، ولا يُفتوا حتى لا يجدوا بدّاً من أن يُفتوا»(١).

والاستشراف للفتوى سبب للحرمان من التوفيق، قال ابن القيم رحمه الله: «قال بعض العلماء: قلّ من حرص على الفتوى وسابق إليها وثابر عليها إلاّ قلّ توفيقه واضطرب في أمره، وإذا كان كارها ذلك غير مختار له ما وجد مندوحة عنه وقدر أن يُحيل بالأمر فيه إلى غيره كانت المعونة له من الله أكثر والصلاح في جوابه وفتاويه أغلب».

وقال بشر الحافي: «من أحب أن يُسأل فليس بأهل أن يسأل»(٢).

والمصلحة أحياناً تقتضي التغافل عن سؤال السائل، فهذا الأوزاعي كان إذا سُئل عن شيء من تفسير القرآن غمَّض عينيه ساعة، وتغافل كأنه لم يسمع (٣).

وكذلك الحال بالنسبة للأسئلة التي تُوقع الفتن، فإن المصلحة تقتضي الإعراض عنها، قال الآجري رحمه الله: «وإذا سُئل عن مسألة فعلم أنها

(١) أخلاق العلماء (ص١٢٠).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٢٨٦).
(٣) فضائل القرآن للمستغفري (١/ ٣٠٩).




من مسائل الشغب ومما يُورث بين المسلمين الفتنة استعفى منها، وردّ السائل إلى ما هو أولى به على أرفق ما يكون»[١].

وكذلك يمتنع الفقيه من الفتيا إذا تلمح غرض السائل في استدراجه إلى ما هو أعظم من مسألته، قال المروذي: قال أبو عبدالله: سألوني - يعني في المسائل التي وردت عليه من قبل الخليفة - فلم أجب، قلت: فلأي شيء امتنعت أن تجيب؟ قال: خفت أن تكون ذريعةً إلى غيرها[٢].

وسُئل الإمام الشافعي رحمه الله عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب يرحمك الله؟ فقال: حتى أدري الفضل في سكوتي أو في الجواب[٣].

وكذلك إذا علم الفقيه من نفسه نقصاً في التركيز، امتنع من الفتيا، قال المروذي: سمعت أبا عبدالله، وسأله علي بن الجهم عن شيء فلم يجبه، وقال: فقدت بعض ذهني[٤].

وكان المفتون من السلف يعظون المستفتين بل ويزجرونهم لتغير أحوالهم، قال منذر الثوري: كان الربيع إذا أتاه الرجل يسأله، قال له: اتق الله فيما علمت، وما استؤثر به عليك،

(١) أخلاق العلماء (ص٧٨).
(٢) الآداب الشرعية (١/ ٥٩٨).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١٢٨٥).
(٤) الآداب الشرعية (١/ ٥٩٨).



فكِلْه إلى عالمه، لأنا عليكم في العمد أخوف مني عليكم في الخطأ، وما خيركُم اليوم بخير، ولكنه خير من آخر شرّ منه، وما تتبعون الخير حق اتباعه، وما تفرُّون من الشر حق فراره، ولا كلَّ ما أنزل الله على محمد ﷺ أدركتم، ولا كل ما تقرؤون تدرون ما هو، ثم يقول: السرائر السرائر اللاتي يخفين من الناس وهنّ لله بواد، التمسوا دوائهن، وما دواؤهن إلا أن يتوب ثم لا يعود[1].

وكان السلف يزجرون من يسأل سؤال متكلف، أو يسأل عن الأمر الواضح البيّن بنفسه، فقد سُئل ابن مسعود رضي الله عنه عن الجمل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ (٤٠)﴾ [الأعراف: ٤٠]، فقال: هو زوج الناقة، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله: «كأنه استحمق السائل حين سأله عما لا يخفى»[2].

ومثل هذه الأسئلة أجوبة السلف لها لا تخلوا من دعابة تناسب تلك الأسئلة، من ذلك: قال الأعمش: أتى رجلٌ الشعبي، فقال: ما اسم امرأة إبليس؟ قال: ذاك عرسٌ ما شهدته»[3].

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٩).
(٢) تفسير القرآن (٢/ ١٨٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣١٢).




وقال حماد عن أيوب: سمعت رجلاً قال لعكرمة: فلان قذفني في النوم، قال: اضرب ظِلّه ثمانين[1].

وكان السلف يزجرون من يسأل عن المسائل التوقيفية لأنها غير معلّلة، قال سليمان بن بلال: سمعت ربيعة بن أبي عبدالرحمن يُسأل: لِمَ قُدِّمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال: قُدِّمتا، وأُلِّف القرآن، على علم ممن ألَّفه به، ومن كان معه فيه، واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما يُنتهى إليه، ولا يُسأل عنه[2].

وقال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤]، قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها - أو تدعها؟

قال: يا ابن أخي، لا أُغير شيئاً منه من مكانه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله معلقاً: «ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟

(١) المصدر السابق (٥/ ١٩).
(٢) تاريخ المدينة (٣/ ١٠١٦).





فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها»(١).

وقبل أن يشرع المُفتي في الجواب يستعين الله عز وجل ويسأله السداد، قال اسماعيل ابن أبي أويس رحمه الله: «سألت خالي مالكاً عن مسألة، فقال لي: قِرَّ، ثم توضأ، ثم جلس على السرير، ثم قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكان لا يُفتي حتى يقولها»(٢).

وليكن غرض المفتي موافقة الحق، ولا يعجل بالجواب طلباً لقضاء حاجة المستفتي، فإن ذلك خطراً على دينه، كان مالك رحمه الله يقول: «من أجاب في مسألة فينبغي من قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة أو النار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة»(٣).

وسأل رجل الإمام مالك أياماً لم يجبه، فقال: يا أبا عبدالله! إني أريد الخروج، وقد طال التردد إليك، فأطرق طويلاً، ثم رفع رأسه، وقال: ما شاء الله يا هذا، إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه.

---

(١) تفسير القرآن (١/ ٦٦٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٦٦).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١٢٨٥).




وعن عقبة بن مسلم أن ابن عمر رضي الله عنهما سُئل عن شيء، قال: لا أدري، ثم أتبعها، فقال: أتريدون أن تجعلوا ظهورنا لكم جسوراً في جهنم أن تقولوا: أفتانا ابن عمر رضي الله عنهما بهذا[1].

وكان سعيد بن المسيب رحمه الله لا يكاد يفتي فتيا، ولا يقول شيئاً، إلا قال: اللهم سلِّمني وسلم مني[2].

وينبغي على المستفتي أن يلطف بالمفتي في طريقة سؤاله ولا يضجره، فإن حسن السؤال نصف العلم، قال العلامة الطوفي رحمه الله: «لما كانت الفائدة إنما تحصل بالسؤال والجواب جميعاً، كان لكل واحد منهما نصف العلم، أي: نصف السبب المحصِّل للعلم»[3].

فهذا عبدالله ابن الإمام أحمد رحمه الله قال مبيناً أثر سوء السؤال في أجوبة أبيه إمام أهل السُّنة والجماعة، حيث قال: «كنت أرى مهنّا يسأل أبي حتى يضجره، ويُكرر عليه جدّاً، حتى ربما قام وضجر، وكنت أشبهه بابن جريج حين كان يسأل عطاء»[4].

وقال زيد بن أسلم لمحمد بن عجلان: «اذهب فتعلم كيف يُسأل ثم تعال»[5].

(١) فضائل القرآن للمستغفري (١/ ٣٠٨).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٢٨٦).
(٣) الصعقة الغضبية (ص٢٩٥).
(٤) طبقات الحنابلة (١/ ٣٤٦).
(٥) المعرفة والتاريخ (١/ ٦٧٥).





فالسؤال له فقهه وأدبه ليستخرج المستفتي كنوز العالم، فلا يسأله بطريقة تضجره فتحول بينه وبين اعتدال مزاجه، قال ابن القيم رحمه الله: «ومعلوم أن الرأي لا يتحقق إلا مع اعتدال المزاج»[1].

فـإذا أضجرت المسـتفتي فقد سـددت على نفسـك باب الانتفـاع منه، قـال ابـن عقيل الحنبلي رحمه اللـه: «وإذا نفرت النفـوس عميت القلوب، وخمدت الخواطر، وانسدت أبواب الفوائد»[2].

فإذاً ليحرص المسـتفتي على إحسان السـؤال، قال الزهري رحمه الله: «إنما هذا العلم خزائن، وتفتحها المسألة»[3].

وليحذر المسـتفتي من تكرار السـؤال بلا حاجة، فإنه من دواعي غضب بعض الفقهاء، فقد روى عبدالرحمن بن حُجيرة عن أبي ذر رضي الله عنه: أن امرأته سـألته عن الساعة التي يُسـتجاب فيها يوم الجمعة للعبد المؤمن، فقال لها: هي مع رفع الشمس بيسير، فإن سألتني بعدها، فأنت طالق[4].

قـال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمـه الله: «وينبغـي أيضاً للمتعلم أن يلطـف بالسـؤال، ويرفق بمعلمه، ولا يسـأله في حالة ضجـر أو ملل أو

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٦).
(٢) الواضح في أصول الفقه (١/ ٥٢٨).
(٣) المعرفة والتاريخ (١/ ٦٣٤).
(٤) زاد المعاد (١/ ٣٩٣).




غضـب، لئلا يتصور خلاف الحق مع تشـويش الذهـن، وأقل الحالات أن يقع الجواب ناقصاً»(١).

والأصل أن يباشر السؤال صاحب المسألة، فعن محمد بن عبدالرحمن أَنَّ رَجُـلاً مِـنْ أَهْـلِ الْعِرَاقِ قَالَ لَهُ: سَـلْ لِي عُـرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ عَـنْ رَجُلٍ يُهِلُّ بِالْحَـجِّ، فَـإِذَا طَافَ بِالْبَيْتِ أَيَحِـلُّ أَمْ لَا؟ فَإِنْ قَالَ لَكَ: لَا يَحِـلُّ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّ رَجُـلاً يَقُولُ ذَلِكَ، قَالَ: فَسَـأَلْتُهُ فَقَـالَ: لَا يَحِلُّ مَنْ أَهَلَّ بِالْحَـجِّ إِلَّا بِالْحَجِّ، قُلْـتُ: فَإِنَّ رَجُلاً كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ، قَالَ: بِئْسَ مَا قَـالَ..، فَقَالَ عُرْوَةُ: فَمَا بَالُهُ لَا يَأْتِينِي بِنَفْسِهِ يَسْأَلُنِي؟ أَظُنُّهُ عِرَاقِياً: لَا أَدْرِي، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ كَذَبَ(٢).

وتجـوز الاسـتنابة فـي السـؤال خصوصـاً إذا وُجدت مصلحة شـرعية تقتضـي ذلك، فهذا أميـر المؤمنين علي بن أبي طالـب رضي الله عنه وكّل المقداد رضي الله عنه أن يسـأل النبي ﷺ عن حكم المذي، لمكان زوجته فاطمة بنت النبي ﷺ(٣).

فتاوى العلماء للسلاطين:

من خلال الاستقراء نجد أن المفتين للسلاطين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

(١) الفتاوى السعدية (ص١٠٢).
(٢) رواه مسـلم، كتاب الحج، باب بيان أن المحرم بعمرة لا يتحلّ بالطواف قبل السـعي (ص٥٢٥ - رقم ٣٠٠١).
(٣) رواه البخاري، كتاب العلم، باب مَن استحيا فأمر غيره بالسؤال (ص٢٨ - رقم ١٣٢)، ومسلم، كتاب الحيض، باب المذي (ص١٣٨ - رقم ٦٩٥).



١ - أهل عنت يفتون السلاطين بما يوجب عليهم العسر والشدة والمشقة بغير سبب ولا مسوغ شرعي، وهذا لا يجوز.

مثال ذلك: الأمير عبدالرحمن بن الحكم الأندلسي وقع يوماً في نهار رمضان على جارية له فاستفتى يحي بن يحيي الليثي رحمه الله، فقال له يحيى: يصوم الأمير أكرمه الله شهرين متتابعين، فلما قال ذلك يحيى: سكت القوم، فلما خرجوا سألوه لِمَ خصَّه بذلك دون غيره مما هو فيه، مع أن كفارته العتق؟

فقال: لو فتحنا له هذا الباب وطيء كل يوم وأعتق، فحمل على الأصعب عليه لئلا يعود[1]، وهذا الفعل لاشك أنه خطأ، فالمصلحة التي من أجلها تشدد يحيى الليثي في فتيا السلطان ملغاة وغير معتبرة في الشرع[2].

٢ - أهل تتبع رخص العلماء وزلاتهم، ومن ذلك ما قاله إسماعيل القاضي رحمه الله: «دخلت مرةً على المعتضد، فدفع إليَّ كتابا، فنظرت فيه، فإذا قد جمع له فيه الرُّخص من زلل العلماء، فقلت: مصنف هذا زنديق. فقال: ألم تصح هذه الأحاديث؟ قلت بلى، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء، وما من عالم إلا وله زلة، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه فَأَمَر بالكتاب فأُحرق»[3].

(١) ترتيب المدارك (١/ ٥٤٢).
(٢) منار أصول الفتوى (ص٣١٢) لإبراهيم اللَّقاني المالكي.
(٣) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٦٥).




٣ - أهـل عدل ووسـط يُعظمون الأوامـر والنواهي الشـرعية، فإذا أراد أحدهـم أن يفتـي بالرخصـة أفتـى عن تحرٍّ لا عـن هوى وشـهوة، واحتاط لدينـه، واسـتفتى أهـل الديانة والورع، قـال محمد بن يحيى بن سـلام عن أبيـه(١): «ينبغي للعالـم أن يحمل الناس على الرخصة والسـعة ما لم يخف المأثم».

وهـذا لاشـك مصداق ما حكته عائشـة عـن النبي ﷺ: «أنه مـا خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً».

وقـال معمر رحمه اللـه(٢): «إنما العلم أن تسـمع بالرخصة من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد».

وكان الولاة من أهل الخير والديانة يردّون الفتاوى المنحرفة البعيدة عن الكتاب والسـنة في وجـوه أصحابها، قال الإمام أحمـد: بلغني أن المهدي اشـترى جاريـة فأعجبته، فقيل لـه: أعتقها وتزوّجها، فقال: سـبحان الله ما أعجـب هـذا؟ أبطلوا كتاب الله والسُّـنة، جعل الله علـى الحرائر العدة من جهـة الحمـل، فليس مـن امـرأة تُطلَّق أو يمـوت زوجها إلا تعتـد من أجل الحمـل، ففرج يوطأ يشـتريه، ثم يعتقها علـى المكان، فيتزوجهـا فيطؤها، يطؤها رجل اليوم، ويطؤها الآخر غداً، فإن كان حاملاً كيف يصنع؟

(١) طرح التثريب (٧/ ٢١٠).
(٢) المصدر السابق (٧/ ٢١٠).



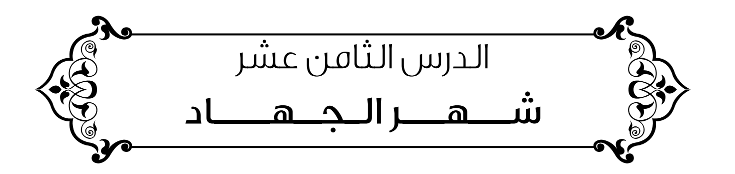
هذا نقض الكتاب والسُّنة، قال النبي ﷺ: «**لَا تُوطأ حَامل حتى تضع، ولا غير حامل حتى تحيض**»، ولا يُدري هي حامل أم لا؟

سبحان الله ما أسمج هذا؟[1].

❊ ❊ ❊

(١) بيان الدليل على بطلان التحليل (ص٢٧٦).



الدرس الثامن عشر
شـــهـــر الـجـــهــــاد

غـزوة بدر كانت في شـهر رمضـان، وفتح مكـة كان في شـهر رمضان، والجهـاد فيه جلد ونشـاط وقوة ورباطـة جأش، فهذا دالٌّ علـى ما كان من النبي ﷺ من السـعي في إعـزاز الدين، وطلب إظهاره علـى الدين كله ولو كره المشركون.

فلم يكن رمضان شـهر خمول وكسـل، بل كان شـهر نشاط وجد وعمل صالح، قيام بالليل وجهاد بالنهار.

وهنـا لابـد مـن بيـان مفهـوم الجهـاد العـام حتي نجتهد فـي عمله وتحقيقـه لنـدرك فضـل سـنام الإسـلام، ولنعـرف معانـي وحقائـق الطاعـاتالكبـرى.

فنقول إن الجهاد هو بذل الجهد في تحقيق ما يُحبه الله، وهذا هو المعنى العام الواسـع للجهاد، فيدخل في ذلك كل عمل صالح، وبهذا يتبين فسـاد وانحراف فكر جماعة ما يُسمى «الجهاد» حيث توهموا أن الجهاد هو فقط جهاد السـنان، ولذلك كتبوا كتاباً في ذلك سـموه «الفريضة الغائبة»، وكأن النـاس مقطوعـون عن هـذه الطاعة حتى جـاء هؤلاء فأحيوهـا، ثم أحيوها بمفهوم منحرف وهو الاغتيالات.




قال ابن القيم رحمه الله[1]: «رَوَى التِّرمِذِيّ من حِدِيث أبي جَعْفَر الرَّازِيّ عَن الرّبِيع بن أنس قَالَ: رَسُول الله ﷺ: «**من خرج فِي طلب الْعلم فَهُوَ فِي سَبِيل الله حَتَّى يرجع**»، قَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حسن غَرِيب رَوَاهُ بَعضهم فَلم يرفعهُ وَإِنَّمَا جعل طلب الْعلم فِي سَبِيل الله لأَن بِهِ قوام الإسلام كَمَا أن قوامه بِالْجِهَادِ فقوام الدّين بِالْعلمِ وَالْجهَادِ، وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَاد نَوْعَيْنِ جِهَاد بِالْيَدِ والسنان وَهَذَا المشارك فِيهِ كثير، وَالثَّانِي الْجِهَاد بِالْحجَّةِ وَالْبَيَان وَهَذَا جِهَاد الْخَاصَّة من أَتْبَاع الرُّسُل وَهُوَ جِهَاد الأئمة، وَهُوَ أفضل الجهادين لعظم منفعَته وَشدَّة مُؤْنَته وَكَثْرَة أعدائه، قَال تَعَالَى فِي سُورَةَ الْفرْقَان وَهِي مَكِّيَّة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥١ - ٥٢].

فَهَذَا جِهَاد لَهُم بِالْقُرْآنِ وَهُوَ أكبر الجهادين وَهُوَ جِهَاد الْمُنَافِقين أيضاً فَإِن الْمُنَافِقين لم يَكُونُوا يُقَاتلُون الْمُسلمين بل كانوا معهم فِي الظَّاهِر، وَرُبمَا كَانُوا يُقَاتلُون عدوهم مَعَهم وَمَعَ هَذَا فقد قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ ۝٩﴾ [التحريم: ٩] وَمَعْلُوم أن جِهَاد الْمُنَافِقين بِالْحجَّةِ وَالْقُرْآن.

وَالْمَقْصُود أن سَبِيل الله هِيَ الْجِهَاد وَطلب الْعلم ودعوة الْخلق به إِلَى الله.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٠).




وقـال العلامـة عبدالرحمـن السـعدي رحمـه اللـه مبيّنـاً المعنـى العام للجهاد[1]: «أليس التعلم والتعليم والصبر على ذلك من أكبر الجهاد؟

أليـس الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، والنصيحـة للخلق من الجهاد؟

أليس تنفيذ الحق ونصره، وردّ الباطل وقمعه من الجهاد؟

أليس تعليـم الجاهلين، وتنبيـه الغافلين، وإيقـاظ المعرضين، وموعظة المعارضين، ومجادلتهم من الجهاد؟

هل تتمّ الأمور بدون الجهاد؟ وهل يسـتقيم الهدي والاهتداء، ويحصل الصُّعود والارتقاء إلا بالجهاد؟

طوبى لأهل العلم، والدين، والجهاد».

وعـن أنـس بن مالك رضي اللـه عنه عن النبـي ﷺ قال: «**مَـنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجع**»[2].

وقـال معـاذ بن جبـل رضي الله عنـه[3]: «تعلَّمـوا العلم، فـإن تعلمه لله حسنة، وطلبة عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد».

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيِّرة الزاهرة (ص١٨٢ - ١٨٣).
(٢) رواه الترمذي، كتاب باب فضل طلب العلم (٥/ ٢٩ - رقم ٢٦٤٧).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (ص٩٤).



قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله معلقاً على أثر معاذ[1]: «فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولابد في الجهاد من الصبر».

وقـال أبو الدرداء رضي الله عنه[2]: «مـن رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه».

وقال الحسـن البصري[3]: «من جـاءه الموت وهو يطلب العلم يحيي به الإسلام، لم يكن بينه وبين الأنبياء في الجنة إلا درجة».

وقـال ابن القيـم رحمه اللـه: «ولا يعدلُ مـداد العلماء إلا دم الشـهداء، والرفعـة وعلو المنزلة في الدارين إنما هي لهاتين الطائفتين، وسـائر الناس رعيةٌ لهما، منقادون لرؤسائهما»[4].

وقـال الحافـظ ابن رجـب الحنبلي رحمـه الله[5]: «وكذلك من يشـتغل بالعلم، لأنه أحد نوعي الجهاد، فيكون اشـتغاله بالعلم كالجهاد في سـبيل الله والدعوة إليه».

وقـال العلامـة عبدالرحمن السـعدي رحمه اللـه[6]: «ومن أعظـم الجهاد سـلوك طريق التعلم والتعليم، فإن الاشتغال بذلك لمن صحّت نيته لا يوازيه

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (ص٦٠).
(٣) الإبانة لابن بطة (١/ ٢٠٠ - رقم ٣٦)، جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٦).
(٤) الفروسية (ص١٥٧).
(٥) الحكم الجديرة بالإذاعة، جامع رسائل ابن رجب (١/ ٢٤٤).
(٦) الفتاوى السعدية (ص٤٥).




عمل من الأعمال، لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «إن المتفقهين في دين الله يوازون تماماً المجاهدين في سبيل الله.

والذي يعرض بصره وفكره وقلبه لإدراك المسائل العلمية كالذي يعرض رقبته لأعداء الإسلام ليقاتلهم حتى تكون كلمة الله هي العليا ولست أقول ذلك مجازفة أو محاباة لكم، ولكني أقول ذلك مستنداً إلى كتاب الله عز وجل، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، اللام في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، ليست تعليلاً للفرقة النافرة، ولكنها تعليل للفرقة الباقية ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ أي: القاعدون الذين لم ينفروا للجهاد ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، فأنتم الآن ومن في ميدان القتال سواء».

وطلب الرزق الحلال والتكسب كذلك من الجهاد في سبيل الله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «طَلَبُ الحَلَالِ جِهَاد، وَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبدَ المُؤمِنَ المُحْتَرِفَ»[2].

(١) وصايا وتوجيهات لطلبة العلم (١/ ١٧٥ - ١٧٦).
(٢) إصلاح المال بواسطة الآداب الشرعية (٢/ ٢٧٧).



وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]: «ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلـيَّ من أن أموت بين شعبتي رحل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله».

وكذلك العدل في الرعية جهاد، سواء الرعاية الكبرى كرعاية السلطان للشعب، أو الرعاية الصغرى لكل من ولـي أمراً، كرعاية الوالد لأسرته، ورعاية أمير السفر لمن سافر معه، أو رعاية مسؤول العمل لمن تحت مسؤوليته من الموظفين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «ولهذا كانت الولاية لمن يتخذها ديناً يتقرب به إلى الله ويفعل فيها الواجب بحسب الإمكان، من أفضل الأعمال الصالحة، حتى روى الإمام أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغض الخلق إلى الله إمام جائر**».

وقال أيضاً: «لما تغيَّرت الرعية من وجه والرعاة من وجه؛ تناقصت الأمور. فإذا اجتهد الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان كان من أفضل أهل زمانه وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله؛ فَقَدْ رُوِيَ: «يَوْمٌ مِنْ إمَام عَادلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً» وَفي مُسْنَدِ الْإمَامِ أَحْمَد عَنْ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَحَبُّ الْخَلْقِ إلَى اللهِ إمَامٌ عَادِلٌ وَأَبْغَضُهُمْ إلَيْه إمَامٌ جَائِرٌ**».

(١) المصدر السابق.
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٥).




وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهُ ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ**..».

وعن أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول: «**أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ المقْسِطُونَ**»[1].

وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ عِيَاض بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذَو سُلْطَانٍ مُقْسِطٍ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ وَرَجُلٌ غَنِيٌّ عَفِيفٌ مُتَصَدِّقٌ**».

وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**السَّاعِي عَلَى الصَّدَقَةِ بِالْحَقِّ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ**»».

ومن معاني الجهاد الدعوة إلى الله، وكان السلف يُقدمونه على الحج والجهاد في سبيل الله، فقد قال أبو داود في إبراهيم بن طهمان: «ثقة من أهل سرخس، خرج يريد الحج، فقدم نيسابور، فوجدهم على قول جهم، فقال: الإقامة على هؤلاء أفضل من الحج»[2].

وقال ابن القيم رحمه الله «فالدعوة إِلَى الله تَعَالَى هِيَ وَظِيفَة الْمُرْسلين وأتباعهم وهم خلفاء الرُّسُل فِي أممهم وَالنَّاس تبع لَهُم، وَالله سُبْحَانَهُ قد

(١) رواه أبو نعيم في فضيلة العادلين من الولاة (ص١٣٠ - رقم ٢٢)، وقال الحافظ السخاوي في تخريج أحاديث العادلين (ص١٣٠): «رجاله ثقات إلا سعيد بن بشير، فهو صدوق، إلا أن ابن حبان قال عنه: يروي عن قتادة ما لا يتابع عليه»، باختصار.

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٨٠).



أَمـر رَسُـوله ﷺ أَن يُبلغ مَا أنـزل إِلَيْهِ وَضمن لَهُ حفظـه وعصمته من النَّاس وَهَكـذَا المبلْغـون عَنهُ من أمته لَهُـم من حفظ الله وعصمته إيَّاهُم بِحَسب قيامهـم بِدِينـهِ وتبليغهم لَهُـم، وَقد أَمر النَّبي ﷺ بالتبليغ عَنـهُ وَلَو آيَة، ودعا لمن بلغ عَنهُ وَلَو حَدِيثا، وتبليغ سـنته إِلَى الْأمة أفضل من تَبلِيغ السِّـهام إِلَى نحـور الْعَـدو لِأَن ذَلِـك التَّبلِيغ يَفْعَله كثير مـن النَّاس وَأما تَبْلِيغ السّـنَن فَلَا يقـوم بِهِ إِلاَّ وَرَثَة الْأَنْبِياء وخلفاؤهم فِي أممهـم جعلنَا الله تَعَالَى مِنْهُم بمنه وَكَرمه»(١).

وكذلك حفظ الأسـرة ورعاية شؤون الأولاد والقيام على حوائجهم من الجهاد في سـبيل الله، بل قدَّمه السلف على جهاد السنان، قال عبدالله ابن المبارك رحمه الله لأصحابه في الغزو: «هل تعلمون عملاً أفضل من هذا؟ قالوا: لا نعلمه، قال: بلى أنا أعلمه، رجل متعفف محترف أبو عيال، قام من الليل، فوجد صبيانه مكشفين فغطاهم، وثار إلى صلاته»(٢).

فتأمل هذا الكلام الصادر من ابن المبارك وهو يباشر القتال والجهاد في سبيل الله، وليس من المخلفين.

وعـن يحيى بن أبي كثير عن الأزدي قال: «سـألت ابن عباس رضي الله

(١) جلاء الأفهام (ص٥٨٢).
(٢) الإيمان الأوسط (ص٦١).




عنهما عن الجهاد، فقال: ألا أدلك علي خير من الجهاد؟ فقلت: بلى، قال: تبني مسجداً وتُعلّم فيه الفرائض والسُّنة والفقه في الدين»(١).

وبـرّ الوالديـن كذلك من الجهاد في سـبيل اللـه، فعن عبداللـه بن عمر رضي الله عنهما قال: قَالَ رجُلٍ للنبي ﷺ: «أجاهد؟ قال: لَكَ أَبَوَان؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِد»(٢).

وقـال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من برّ الوالدة»(٣).

وجهاد النفس وحملها على الطاعة وصرفها عن المعصية هو من الجهاد في سبيل الله، قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لمن سأله عن الجهاد: «ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزها»(٤).

وعـن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهمـا أن النبي ﷺ قال: «**وَالمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعِه الله**»(٥).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (ص٦٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب لا يجاهد إلا بإذن الوالدين (١٠/ ٤٠٣ - رقم ٥٩٧٢).

(٣) رواه البخـاري فـي الأدب المفـرد (١/ ٤ - رقـم ٤)، وصحَّحه العلامة الألبانـي رحمه الله في الصحيحة (٢٧٩٩).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٨٩).

(٥) رواه أحمـد (٦/ ٢١ - ٢٢)، والترمـذي (٤/ ١٦٥ - رقـم ١٦٢١)، وقـال: «حديـث حسـن صحيـح» دون قولـه: «فـي طاعة الله»، وابـن أبي عاصم فـي «الجهـاد» (١/ ١٥٢ - رقم ١٤)، وصحَّحه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (٢/ ٨١ - رقم ٥٤٩).



قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «وفُسر المجاهد بأنه الذي جاهد نفسه على طاعة الله؛ فإن النفس ميالةٌ إلى الكسل عن الخيرات، أمارةٌ بالسوء، سريعة التأثر عند المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها على الصبر عن المصائب. وهذه الطاعات هي: امتثال المأمور، واجتناب المحظور، والصبر على المقدور.

فالمجاهد حقيقة: من جاهدها على هذه الأمور لتقوم بواجبها ووظيفتها»[(١)].

ومن أوضح الأدلة على دخول هذا النوع في معنى الجهاد قوله ﷺ: «**وَانْتِظَار الصَّلاة بَعْدَ الصَّلاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاط**»[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٥١ - ٥٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (١/ ٢١٩ - رقم ٢٥١).




الدرس التاسع عشر
أســـبـاب الـنـــصـــر

لقد نصر الله المؤمنين في غزوة بدر وفتح مكة وكلها في رمضان، ولهذا النصر أسبابه، ولظهور الأعداء علينا في هذه الأيام أسبابه، فلنتعرف على هذه الأسباب لنعالج مواطن الخلل من أنفسنا.

قال ابن القيم رحمه الله: «فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى، وكان قصده وهمه وعمله لوجهه سبحانه كان الله معه؛ فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟

فإن كان الله مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجو؟ وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟ فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجاً ومخرجاً؛ وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد؛ فمن كان قيامه في باطل لم يُنصر، وإن نُصر نصراً عارضاً فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله وإنما قام لطلب المحمدة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان



هو المقصود أولاً، والقيام في الحق وسيلة إليه، فهذا لم تضمن له النصرة؛ فإن الله إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نصر فبحسب ما معه من الحق؛ فإن الله لا ينصر إلَّا الحقّ، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصورٌ أبداً، فإن كان صاحبه محقاً كان منصوراً له العاقبة، وإن كان مبطلاً لم يكن له عاقبةٌ، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه بريئاً من الحول والقوة إلا به فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجريد التوحيدين في أمر الله لا يقوم له شيء ألبتة، وصاحبه مؤيدٌ منصورٌ ولو توالت عليه زُمر الأعداء»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ومتى اهتمت الولاة بإصلاح دين الناس صلح للطائفتين دينهم ودنياهم؛ وإلا اضطربت الأمور عليهم. وملاك ذلك كله صلاح النية للرعية وإخلاص الدين كله لله والتوكل عليه. فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة كما أمرنا أن نقول في صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] فإن هاتين الكلمتين قد قيل: إنهما يجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء. وقد روي أن النبي

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٥٩ - ١٦٠).

ﷺ كان مرة في بعض مغازيه فقال: «**يا ملك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين**»، فجعلت الرؤوس تندر عن كواهلها، وقد ذكر ذلك سبحانه وتعالى في غير موضع من كتابه كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ١٠] وكان النَّبي ﷺ - إذا ذبح أضحيته - يقول: «**اللهم منك ولك**».

وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور:

أحدها: الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره. وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن.

الثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب.

ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيراً كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥] وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١١٤ - ١١٥]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ ﴿١٣٠﴾ [طه: ١٣٠] وكذلك في سورة «ق»: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩]. وقال سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨]. وأما قرانه سبحانه وتعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثيرا جداً، فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية»[(١)].

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١]، فالآية على عمومها وظاهرها، وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضادُّ الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تسبَّبوا إلى جعل السبيل عليهم كما تسبَّبوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ومخالفته»[(٢)].

وظهور البدع من أسباب ظهور الكفار على ديار المسلمين، فإن البدع شرع مبدَّل، والنصرة الموعودة إنما هي للشرع المنزل، وتبديل الشرع

(١) السياسة الشرعية (ص١٨٤ - ١٨٦).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٩٥ - ١٩٦).

بالبدع يوجب العقوبة من الله، ومنها تسليط العدو، فلذلك وجب رد البدع ونشر السُّنة، وهذا جهاد الخاصة وهم العلماء».

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: «إنما استولت التتر على بلاد المشرق لظهور الفلسفة فيهم، وضعف الشريعة»[1].

فالبدع من أسباب زوال وسقوط الدول، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهذا الجعد إليه ينسب مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة؛ فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لهم»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول ﷺ سلطت عليهم الأعداء فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة وأخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء إلى أن أخذوا بيت المقدس في أواخر المائة الرابعة.

وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار والنصارى والمنافقين الملاحدة؛ إلى أن تولى نور الدين الشهيد وقام بما قام به من أمر الإسلام وإظهاره والجهاد لأعدائه»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٤٥ – ٢٤٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٧٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٧٨).



وتحدّث والدنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله عن أسباب النصر الحقيقية، فقال: «لقد نصرَ الله المؤمنينَ في مَواطن كثيرةٍ في بدرٍ والأحزاب والفتح وحُنينٍ وغيرها، نصرَهُمُ اللهُ وفاءً بوعده: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١ - ٥٢]، نَصَرَهُمُ اللهُ لأنهم قائمونَ بدينِه وهو الظَّاهرُ على الأديانِ كلِّها، فمن تمسَّك به فهو ظاهرٌ على الأمم كلِّها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، نصرَهم اللهُ تعالى لأنهم قاموا بأسبابِ النصرِ الحقيقيَّةِ الماديَةِ منها والمَعْنَويةِ، فكان عندهم من العَزْمِ ما بَرَزُوا به على أعْدائهم أخذاً بتوجيه اللهِ تعالى لَهُم وتَمشِّياً مع هديهِ وتثبيتهِ إياهم ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٠]، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ ﴿٣٦﴾﴾ [محمد: ٣٥ - ٣٦].

فكانوا بهذه التقوية والتثبيت يسيرون بقُوةٍ وعزْم وجدٍّ وأخَذُوا بكلِّ نصيبٍ مـن القُوة امتثالاً لقولِ ربِّهم سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن



قُوَّةٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[الأنفال: ٦٠]، من القُوَّةِ النفسيةِ الباطنةِ والقوةِ العسكريةِ الظاهرة.

نصرهم اله تعالى لأنهم قامُوا بنصر دينه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين وعدَ اللهُ بالنصر من ينصرُه وعداً مؤكداً بمؤكدات لفظية ومَعنوية، أما المؤكدات اللفظية فهي القسمُ المقدَّر، لأنَّ التقديرَ: واللهِ لينصرنَّ اللهُ مَنْ ينصرُهُ، وكذلك اللام والنون في ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ﴾، كلاهُما يفيدُ التوكيدَ، وأمَّا التوكيدُ المعنويُّ ففي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، فهو سبحانه قَويٌّ لا يضْعُفُ وعزيزٌ لا يُذَلُّ، وكلُّ قوة وعزة تُضَادُّه فستكون ذُلاً وضعفاً، وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾، تثبيتٌ للمؤمنِ عندما يسْتَبعِدُ النصر في نَظَره لِبُعد أسبابه عندَه، فإنَّ عواقبَ الأمورِ لله وحْدهُ يُغيِّر سبحانهَ ما شاءَ حَسْبَ ما تَقْتَضِيه حكمَتُه.

وفي هاتين الآيتين بيانُ الأوْصافِ التي يُسْتَحَقُّ بها النصرُ، وهي أوصافٌ يَتَخَلَّى بها المؤمنُ بعدَ التمكين في الأرضِ، فلا يُغريه هذا التمكينُ بالأشَر والْبَطرِ والعلوِّ والفسادِ، وإنما يَزيدُه قوةً في دين الله وتَمسُّكاً به»[1].

***

(١) مجالس رمضان (ص١٤٥ - ١٤٧).



الدرس العشرون
العشر الأواخر وقيام ليلة القدر

ها هي ليالي العشر الأخيرة من رمضان أقبلت، أفضل ليالي السنة على الإطلاق، فيها ليلة القدر وهي خير من ألف شهر، أي خير من ثلاث وثمانين سنة مما سواها، ليلة بعمر الإنسان من أمة محمد ﷺ، فإن النبي قال: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّين إِلَى السَّبْعِين»(١)، وهذا العموم باعتبار الجنس، أي: أن أغلب أعمار أمة محمد ﷺ ما بين الستين إلى السبعين، ومنهم من يُعمّر أكثر من ذلك، ومنهم من تخترمه المنية قبل الستين.

فتأمل أخي المسلم كيف أن عمل ليلة خير من عمرك كله مما سواها، ولذلك تلمح العلماء سر اختصاص أمة محمد ﷺ بمضاعفة الحسنات؛ لأن أعمار أمة محمد ﷺ قصيرة مقارنة بسائر الأمم كأمة نوح، حيث مكث فيهم داعياً إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً.

دخلت العشر الأواخر من رمضان، والناس طبقات:

١ - **الصنف الأول:** فمنهم من دخل عليه رمضان وهو لاه غافل معرض عن الله تبارك وتعالى، الناس تلتمس تكفير السيئات وزيادة الحسنات، وتتعرض لرحمات الله عز وجل، وتبتغي فضله، وهو معرض عن ذلك

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب «أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين» (ص٨٠٩ - رقم ٣٥٥٠)، وقال: هذا حديث غريب حسن.




كلـه، عمَّـر ليله بالسـهر علـى معصيـة اللـه، وأمضى نهـاره بالنـوم وضيَّع الصلوات عن أوقاتها هذا إن صلاها.

هـذا الصنـف من الناس رمضـان وغير رمضـان عنده سـواء، والمصيبة الكبرى إن كان حاله في رمضان أسوأ من غيره.

والسـر فـي إعراض هذا هـو أنه أعرض عـن الله فأعـرض عنه، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۝٦٧﴾ [التوبة: ٦٧]، وقـال النبي ﷺ في حديـث الثلاثة نفر الذين حضروا مجلس العلم: «**أَمَّا أَحَدُهُمْ فَآوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ إليهِ، وَأَمَّا الآخر فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**»[١].

والسـر فـي إعراض هذا هو ما أصـاب قلبه من الرين بسـبب كثرة توارد الذنـوب على قلبه فجعلته قاسـياً لا يليـن لذكر الله، ولا ينقـاد لطاعته كما قـال سـبحانه: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففيـن: ١٤]. فالسـر فـي إعراض هـؤلاء عن الطاعات في رمضان هو أنه طبـع الله على قلوبهم بسـبب تضييعهم الواجبات، فقد قال النبـي ﷺ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَـاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِـمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ**»[٢]، فهذا حال من ضيَّع الواجبات، فهذا لا شـك أنه قد جنى على نفسـه وسـعى في

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس (ص١٦ - رقم ٦٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها (ص٩٦٧ - رقم ٥٦٨١).
(٢) رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب التغليظ في ترك الجمعة (ص٣٤٧ - رقم ٢٠٠٢).



هلاكها، وحرمها أسباب الخير والهدى والتقى والرحمة، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

هذا الصنف لا يُخرجه مما فيه إلا قارعة تقرع قلبه من زواجر القرآن ووعيده: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥]، أو تنزل به نازلة تُلجئه إلى الله لعلها تكون سبباً في بداية انطراحه بين يدي الله وحده لا شريك له، فيبدأ بالدعاء وهو من أجل العبادات، فإذا بدأ بهذه العبادة فقد تفتح له أنواعاً من الطاعات الأخرى كالصلاة وغيرها، أو يكتب الله له الهداية بخلطة صالح أو غيره من الأسباب، فإن الله يحيي الأرض بعد موتها، قد هدى إلى الإسلام أمماً من الكفار.

٢ - **الصنف الثاني من الناس في رمضان:** من بدأ نشيطاً في أيامه الأولى ثم تناقص نشاطه وهكذا حتى خرج رمضان، وفاته خير كثير، بل وفاته أفضل ليالي الشهر.

وهذا الصنف من الناس فيه خير، ولذلك لما دخل الشهر أقبل على الله ونشط في العبادة، لكنه لأنه لا يمارس هذه الأنواع الكثيرة من الطاعة من قبل، خصوصاً قيام الليل، فاحتملها لعدة أيام ثم لم يصبر فتفسخ عن فعلها.




وهذا الصنف لو أنه جاهد نفسه وصبر لأدرك الخير ولألف الطاعة ثم تلذذ بها وأعانه الله عليها، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، وَمَنْ يَسْتَعْفِف يُعِفُّهُ الله**»(١).

٣ - **الصنف الثالث**: الذي بدأ نشيطاً مع دخول شهر رمضان ثم فتر قليلاً، لكنه عاد بعد ذلك نشيطاً واستمر نشاطه حتى أدرك فضل العشر الأخيرة من رمضان.

والسر في نشاط هذا الصنف ثم فتوره ثم نشاطه أخرى هو أن قلبه تعتريه مادتان، مادة صلاح ونشاط وهمة ورغبة في الخير، وتعتريه مادة شرّ وخمول، فحاله لأيهما غلب.

والسر في ذلك يعود إلى ما جُبلت عليه النفوس من الفترة والكسل أحياناً، فقد قال النبي ﷺ قال: «**إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي، فَقَدْ هُدِي، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَقَدْ ضَلَّ**»(٢).

فهذا الصنف من الناس إذا نزلت به فترة خمول وكسل فلينتبه وليتعاهد إيمانه، وليتعرض لأسباب تجديده كما كان يفعل الصحابة والسلف رضي الله عنهم: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله (ص١١٢٢ - رقم ٦٤٧٠).
(٢) المسند (١/ ١٥٨)، (١/ ٦٥)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب منه حديث: «إن لكل شيء شرة» (ص٥٥٩ - رقم ٢٤٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن صحيح.



ومتى ما شعر الإنسان بنقص ورأى في نفسه تراخياً عن الطاعات فليبادر بـأداء العمرة، وزيارة العلماء، وخلطة أهل النشـاط مـن الصالحين، وليقرأ سـير السلف الصالح فإن ذلك كله مما يُجدد الإيمان ويبعث على النشاط، وليحـذر مـن تلبيس إبليـس الذي يُزين لـه حاله من الفتـور، ويقول له إنك أفضـل ممن لا يُصلـي مطلقاً مثلاً وهكذا حتى يزداد فـي إعراضه وتضييعه للاستقامة.

٤ - **الصنف الرابع**: هو الذي يبدأ نشيطاً في أول رمضان، فاجتماع الناس على الطاعة يحمله على النشـاط وفيه رغبة للخير، ثم يترك النوافل، ويبقى محافظاً على الفرائض، ثم إذا جاءت ليلة سـبع وعشـرين أحياها ظنًّاً منه أن ليلة القدر هي ليلة السـابع والعشـرين في كل سنة، وهذا خطأ وقصور علم منـه، فـإن هناك روايات كثيرة في أنها ليلة ثلاث وعشـرين، وروايات كثيرة أنها ليلة خمس وعشرين.

ولذلك اختار جماعة من السـلف أن ليلة القدر ليسـت مسـتقرة في ليلة واحدة في جميع السـنوات، وأنها تنتقل فقد تكون هذه السـنة في ليلة سبع وعشـرين، وقد تكون في السـنة القادمة ليلة تسع وعشـرين، وهكذا، وهذا أرجـح الأقـوال، فبه يُجمع بيـن جميع الروايـات المذكورة فـي تعيين ليلة القدر، ولأن مقتضى الإيمان هو تحري ليلة القدر وقيام العشـر، بخلاف ما

لـو تعينت في ليلة واحـدة بعينها فإن ذلك يفضي إلـى أن يقصد الناس قيام هذه الليلة بعينها دون سـائر الليالي، ولذلك بوَّب البخاري في صحيحه في كتـاب الإيمان (باب من الإيمان قيام ليلة القدر)، لأنه يحصل بعدم تعيينها محاب الله من كثرة الاجتهاد في الطاعة والعبادة.

٥ - **الصنف الخامس من الناس**: وهو من يبدأ العشـر الأولى نشـيطاً ثم يزداد نشـاطه أكثر في العشـر الأوسـط، ثم يبلغ الذروة في العشر الأخيرة، فهـذا أفضـل الأصناف، وهـذا الصنف مـن الناس لاشـك أنه تهيأ للشـهر قبل قدومه، فلما أقبل الشـهر فإذا هو قد أعدَّ العدة لاسـتقباله والقيام بحق الله فيه، قد أعطى كل مرحلة من العشـر حقها، يسـير في الشـهر وله هدف محدود، لا يلتفت يمنة ولا يسرة.

وهنا لابد أن نذكر الأسباب والمحفِّزات التي تحمل على لزوم الطاعة في الشـهر كله عموماً، وبلوغ ذروة الاجتهاد في العشر الأخيرة، عسى أن يكون التنبيه على ذلك عوناً على التعاون على البر والتقوى، من تلك الأمور:

١ - **معرفة فضل القيام عموماً**، وقيام ليالي العشر وليلة القدر خصوصاً: فإن معرفة قيمة الشيء ونفاسته وفضله من أعظم الأسباب التي تحمل على قيـام ليلة القدر، فهي المحرك الرئيسـي لإتيان الأعمـال، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَان إيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِر لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**».



وفـي الصحيحيـن من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه قـال النبي ﷺ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَان إِيمَاناً وَاحْتِسَـاباً غُفِر لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، فمن منّا مسـتغن عن مغفرة ذنوبه وتكفير سيئاته؟!

ومن منّا لم يُلمّ بذنب حتى يلتفت عن أسباب مغفرة الذنوب؟!

ليالي العشـر فيها ليلة تُقدّر فيها مقادير السـنة كاملة، فمن منّا لا يُريد أن يُقدَّر له فيها من خير الدنيا والآخرة؟!

٢ - تلمـح العواقب والمآلات: فإن العاقل يُقبل على الشـيء أو يُحجم بعد تلمح ما يؤول إليه؟

فثمـرات الصيـام والقيـام ثمـرات عظيمـة، فالصيـام جُنـة مـن النـار، والصائمـون لهـم باب يخصهم لدخـول الجنة، فتأمل هذا جيـداً، كيف أن وجـوه البر كثيرة وأبواب الجنة محصورة فـي ثمانية فقط، فتأمل كيف كان للصيام منها نصيب.

ومـن صام يوماً في سـبيل اللـه باعد الله النـار عن وجه سـبعين خريفاً، وتأمـل ثمرات الصيـام فإنه يُضيّق مجاري الشـيطان ويجعـل قلب صاحبه مخبتاً مقبلاً على أنواع الطاعات الأخرى من الذكر وتلاوة القرآن والصدقة والصيام، وانظر إلى ثمرات القيام العاجلة والآجلة، فالقيام دأب الصالحين، نـور في القلب وضياء في الوجه، وأنـس بالوقوف بين يدي الله، وقرة عين بمناجاته وفرح بالتهجد.




٣ - **التأسي بأهل الفضل**: فمن أعظم ما يبعث على استباق الخيرات، وفعل الطاعات التأسي بأهل الفضل، فإن التأسي بأهل التقى والصلاح والفضل دليل على شرف النفس، وتأسي الإنسان بأهل المعاصي والبطالة دليل على انحطاط نفس صاحبها ووضاعته.

قال أحمد بن حرب رحمه الله: «ليس شيء أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين، والنظر إلى أفعالهم، وليس شر أضر على القلب من مخالطة الفاسقين، والنظر إلى أفعالهم».

٤ - **شكر النعمة أن بلَّغك الله رمضان**، وغيرك اخترمته المنية قبل أن يُدركه رمضان، ولذلك كان السلف يدعون ربهم ستة أشهر أن يُبلِّغهم رمضان.

٥ - **شكر النعمة أن بلَّغك الله رمضان بعافية**، وغيرك أجلسه المرض عن القيام وأداء الطاعات.

٦ - **تحقيق العبودية**: فإن استباقك للخيرات وفعل الطاعات تحقيق للعبودية التي من أجلها خُلقت، ولذلك كان النبي ﷺ يقوم حتى تتفطر قدماه، فتكلمه عائشة رضي الله عنها، فيقول: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**».

٧ - **شكر النعمة أن بلَّغك الله رمضان وأنت عارفٌ بالطريق الموصل إلى الله**، وتأمل غيرك كيف تتقلب به الأهواء، ومنهم من تتجارى بهم كما يتجارى الكَلْبُ بصاحبه كما قال النبي ﷺ، ومن الناس من ضلَّ عن نعمة



الإسلام، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

٨ - **تلمح قصر المدة**: فإن العاقل إذا نظر وتحقق أنه يستغرق وقتاً قصيراً ليفوز كثيراً وينال نعيماً كبيراً، فلا شك أنه لا يُفرط في ذلك، بل يبذل أقصى جهده في مدة يسيرة ليفوز كثيراً، بل ويرتاح ويسعد أبد الآبدين، فالصيام والقيام كما قال الله عز وجل: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وثمرتها عظيمة من مغفرة الذنوب والفوز برضوان الرب، ويسلم لك بذلك عامه كله كما نقلنا فيما سبق عن ابن القيم رحمه الله، وهكذا الشأن بالنسبة لعمر الإنسان في هذه الدنيا بالنسبة لمآل الآخرة السرمدي إما نعيم أو جحيم مقيم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥]، وغاية ما يذكره أكثر المتحدثين عن طول مكثه في الدنيا أنه مقدار يوم، قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٤].

٩ - **إنك بقيامك الليل وإحياء العشر تحقق صدق دعواك بمحبة الله عز وجل**، وصدق دعواك بالإيمان، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال الحسن البصري رحمه الله: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي».

فمن يُحب الله يوافق محبوبه، ويتعرض لأسباب مرضاته.

١٠ - **وفاء كل زمان حقه**: فالله عز وجل فاضل بين الأزمنة وجعل




بعضهـا أفضل من بعض، والله عز وجل ما فضَّل بعضها على بعض إلا من أجل أن يكون عملنا في الأفضل أكثر، وأما من كان عمله في جميع الشهور سـواء، فهذا ضيّع حكمة الشرع في المفاضلة بين الشهور، وما قدر الأزمنة الفاضلة حق قدرها.

وقد كان النبي ﷺ يُعطي كل شـهر حقه، ففي صحيح مسـلم عن عائشـة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد فـي غيره(1). فتأمل قولها عنه: «مَا لَا يَجْتَهِد فِي غَيره» أي: إنه قد أعطى هذا الشهر حقه.

١١ - ملازمة العبادة في العشـر الأواخر شـكر لما يسره الله لك من أداء العبادات والطاعات في العشـرين الأولى من رمضان، وهي دالّة على قبول العمل في العشرين الأولى، لأن من علامة قبول الطاعة أنها تفتح لأخواتها مـن الطاعات والعبادات، قال تعالـى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴿٧٦﴾ ﴾[مريـم: ٧٦]، وقـال تعالـى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴿٩﴾ ﴾[يونس: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[محمد: ١٧].

١٢ - إن للعبادات والطاعات لذة وحلاوة يعرفها ويستعذبها من مارسها، ومن قرّت عينه باسـتلذاذ الطاعات في العشـرين الأولـى وتذوق حلاوتها

(١) صحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان (ص٤٨٤ - رقم ٢٧٨٨).

تجده يُبادر ويُسابق إلى اغتنام ما بقي من اللذات في العشر الأخيرة، ولا يؤثر لذة البطالة والراحة على ما تذوقه من حلاوة الطاعة إلا من استبدل الأدنى بالذي هو خير.

١٣ - **أداء حق عافية أعضاء البدن**: فإن للعبادات البدنية أسراراً وحكماً، منها أداء حق العافية في هذه الأعضاء، فقد ذكر النبي ﷺ أن في الإنسان ستين وثلاثمائة مفصل، وأن على كل مفصل صدقة وبيَّن كيف تؤدى حقوق هذه الأعضاء، فقال: «**وَيُجْزِيءُ عَنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعهُمَا مِنَ الضُّحَى**»(١)، فهذا الحديث واضح في أن تسبيحة الضحى شكر للعافية في البدن. فقيامك بالعبادات والطاعات من قيام ليل ونحوه من أداء حق الله في هذه الأعضاء، وهو من أسباب عافيتها والبركة فيها.

١٤ - **تجارة رابحة**: إن الإنسان بقيامه العشر الأخيرة من رمضان وإحيائه الليل إنما هو في الحقيقة يطلب ما ينفعه، والمغبون من يتاجر التجارة الكاسدة التي تبور، فالبصير هو صاحب التجارة الرابحة التي لا خسارة فيها بحال، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠].

١٥ - **كم رمضان ضيّعنا**: العاقل ينصف نفسه من نفسه، يمرّ به رمضان

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى (ص٢٩٢ - رقم ١٦٧١).




وهو يعلم تفريطه فيما مضى من عمره، ويعلم كم فاته من الفضل فيما سبق من رمضانات فائتة لا ترجع، فهل يُعقل أن يستمر في تضييع رمضانه الذي هو فيه؟!

ابـن عمـر رضي الله عنهما لما سـمع حديث رسـول اللـه ﷺ: «**مَنْ تَبِعَ جَنَـازَةً حَتَّـى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيـرَاطٌ، وَمَنْ تَبِعَهَا حَتَّى تُوْضَـع فَلَهُ قِيرَاطَانِ**» رواه البخـاري، قـال عبداللـه بن عمر رضي اللـه عنهما، فكم مـن قراريط فرّطنا فيها[1].

فهـذا يقوله ابـن عمر رضي الله عنهما وهو الذي يتحرى التأسـي بالنبي ﷺ في كل شيء، فكيف بنا نحن وقد فرطنا كثيراً!! فكم من رمضان ضيّعناه وكم من رمضان خلطنا فيه، فليكن رمضاننا هذا أفضل وأكمل.

١٦ - تضييع العشر الأخيرة من رمضان تأخير وتثاقل عن الخير والفضل والطاعة، ومن تأخر لغير عذر فإنه لا يزال به الشيطان حتى يُؤخره عن سائر الطاعات والقربات جزاءً وفاقاً، قال النبي ﷺ: «**لَا يَزَالُ أَقْوَامٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يَؤخرهُمُ الله**»[2].

١٧ - طلـب الحياة الحقيقيـة: فهذه هي الحياة الحقيقية، يحيا العبد حياةً

---

(١) كتاب الجنائز، باب فضل اتباع الجنائز (ص٢١٢ - رقم ١٣٢٤).
(٢) علقـه البخـاري بصيغة التمريض كتـاب الأذان باب الرجل لا يأتم بالإمام، ورواه مسـلم كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها (ص١٨٥ - رقم ٩٨٢).



طيبةً بلزوم الطاعات وإتيان القربات، فتقرّ عينه وينشرح صدره، فالعبد حقيقة هو الذي يعرف الحياة الحقيقية فيعيشها كما أمره الله، فما قيمة الحياة إذا لم تعمِّرها بطاعة الله؟ وما قيمتك أيها الإنسان إذا حييت حياة البهائم تأكل وتتمتع وتعيش حياة مجردة عن روحها، ومقصودها وهي طاعة الله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢].

١٨ - تذكر سكرات الموت ووحشة القبور وأهوال القيامة، فهذه مقامات صعبة عسيرة ضنكة يجعلها الله يسيرةً وهينةً ونعيماً على من أعمر دنياه بالطاعة، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

١٩ - عبادة مودع: وهذا من أعظم الأسباب في قيام الشهر بحقه خصوصاً العشر الأخيرة، فإن العبد إذا استحضر أن الموت أقرب إليه من شراك نعله، وأنه لا يدري متى تخترمه المنية، وأنه قد يفجأه الموت في أي لحظة، قام العشر قيام من يُودّع الدنيا، وشأن الصادق الحريص أن يُودّع الدنيا بأحسن أعماله، فإن العبرة بالخواتيم.

٢٠ - المقصود الأكبر هو أن ترتاض النفس على الطاعة وتألف العبادة، فصيام شهر كامل وقيامه هو في الحقيقة تهذيب للنفوس وتربية لها لتألف العبادات والطاعات، فينبغي أن يكون المسلم هكذا بعد انقضاء رمضان يتقرب إلى الله بأنواع العبادات والطاعات، ولذلك نرى أن ابن مسعود




رضي الله عنه وبعض الكوفيين كان يرى أن ليلة القدر في السنة كلها، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «من يقم الحول يصب ليلة القدر» وابن مسعود رضي الله عنه لاشك أنه لا يخفى عليه أن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وإنما أراد رضي الله عنه أن يَلزم الناس قيام الليل في السنة كلها، وأن يتعرضوا لنفحات رحمة الله في السنة كلها، فالله عز وجل ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقي ثلث الليل الأخير، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله(١): «إن الأعمال التي كان العبد يتقرب بها إلى ربه في شهر رمضان لا تنقطع بانقضاء رمضان بل هي باقية بعد انقضائه ما دام العبد حيّاً».

وقال: «قيل لبشر: إن قوماً يتعبدون ويجتهدون في رمضان، فقال: بئس القوم قَوماً لا يعرفون الله حقّاً، إلا في شهر رمضان، إن الصالح الذي يتعبد ويجتهد السنة كلها.

وسئل الشبلي: «أيما أفضل رجب أم شعبان؟ فقال: كن ربانيّاً ولا تكن شعبانيّاً»(٢).

❊ ❊ ❊

(١) لطائف المعارف (ص٤٢٠)، طبعة الأفكار الدولية.
(٢) لطائف المعارف (ص٤٢١).



الدرس الحادي والعشرون
الاعــتــكـــاف

الإعتكاف هو التعبد لله بلزوم المسجد والتخلي لطاعة الله.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله(١): «فالخلوة المشروعة لهذه الأمـة هي الاعتكاف في المسـاجد، خصوصاً في العشـر الأواخر منه، كما كان النبـي ﷺ يفعلـه، فالمعتكـف قد حبس نفسـه على طاعـة الله وذكره، وقطع نفسه عن كل شاغل يشغله عنه، وكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه، فما بقى له همٌّ سوى الله، وما يرضيه عنه».

والاعتكاف لا يصح إلا في مسـجد، لقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾ [الحج: ٢٦]، قـال العلامـة عبدالرحمـن السعدي رحمه الله(٢): «فقدّم الاعتكاف على الصلاة، مع أنها أفضل منه، لأنه انتقل من الأخص إلى ما هو أعم منه، إلى ما هو أعم، فالطواف أخصها، لأنه لا يصح إلا في المسجد الحرام خاصة، ثم الاعتكاف أخص من الصلاة، لأنه لا يصح إلا في المسجد والصلاة تصح في جميع الأرض غير مواضع النهي».

وتكلـم العلماء في معنى قولـه تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۝١٨٧﴾ [البقرة: ١٨٧]، قول ﴿ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ يُراد به العموم أو الخصوص؟

(١) لطائف المعارف ص٣٦٦.
(٢) شرح عمدة الأحكام (٢/ ٦٧٣).




قال العلامة أبو عبدالله القرطبي رحمه الله[1]: «أجمع العلماء على أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد، لقول الله تعالى ﴿ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾، واختلفوا في المراد بالمساجد، فذهب قوم إلى أن الآية خرجت على نوع من المساجد، وهو ما بناه نبي كالمسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ ومسجد إيلياء[2]، روي هذا عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وسعيد بن المسيب رحمه الله، فلا يجوز الاعتكاف عندهم في غيرها.

وقال آخرون: لا اعتكاف إلا في مسجد تُجمّع فيه الجمعة، لأن الإشارة في الآية عندهم إلى ذلك الجنس من المساجد، رُوي هذا عن علي ابن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما، وهو قول عروة والحكم وحمّاد والزهري وأبي جعفر محمد بن عليّ، وهو أحد قولي مالك.

وقال آخرون: الاعتكاف في كل مسجد جائز، يُروى هذا القول عن سعيد ابن جبير وأبي قلابة وغيرهم، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة وأصحابهما، وحجتهم حمل الآية على عمومها في كل مسجد له إمام ومؤذن، وهو أحد قولي مالك، وبه يقول ابن عُليَّة، وداود بن علي، والطبري، وابن المنذر».

وأما حديث «لا اعتكاف إلا في ثلاثة مساجد»[3]، فقد اختلف في رفعه ووقفه، رفعه هشام بن عمار ومحمود بن آدم كلاهما عن سفيان بن عيينة

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣٣٣).
(٢) المسجد الأقصى.
(٣) السنن الكبرى للبيهقي (٤/ ٣١٦)، مشكل الآثار للطحاوي (٤/ ٢٠).

عن جامع بن أبي راشد عن أبي وائل قال: قال حذيفة لعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما: «الناس عكوف بين دارك ودار أبي موسى لا تُغيّر؟! قد علمت أن رسول الله ﷺ قال: **لا إعتكاف إلا في المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ، ومسجد بيت المقدس**، قال عبدالله: لعلك نسيت وحفظوا، أو أخطأتُ وأصابوا!.

ووقفه عبدالرزاق عن ابن عيينة به على حذيفة رضي الله عنه[1].

فرّد ابن مسعود رضي الله عنه لرواية حذيفة دليل على أنها موقوفة عليه، إذا لو ثبت رفعها لما تجاسر على ردها ابن مسعود رضي الله عنه، كما نبّه على ذلك الشوكاني[2].

واعترض ابن حزم رحمه الله على رواية حذيفة هذه[3]، بأن حذيفة قال لابن مسعود: أما أنا فقد علمت أنه لا اعتكاف إلا في مسجد جماعة[4].

والأظهر والله أعلم أن «**ال**» من ﴿ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧]، للعموم، لأن الأصل في العبادات والتكاليف أن يُخاطب بها عموم المكلفين.

---

(١) مصنف عبدالرزاق (٤/ ٣٤٨).
(٢) نيل الأوطار (٤/ ٢٦٩)، ط - دار الكتب العلمية.
(٣) المحلى (٥/ ١٩٥).
(٤) ضعفه ابن حجر في الدراية (١/ ٢٨٨).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «إن صح هذا الحديث فالمراد به: لا إعتكاف تام، أي: أن المساجد الأخرى الاعتكاف فيها دون المساجد الثلاث، كما أن الصلاة في المساجد فيها دون الصلاة في المساجد الثلاثة.

ويدل على أنه عام في كل مسجد قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ ١٨٧﴾ [البقرة: ١٨٧]، فقوله ﴿فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ «**ال**» هنا للعموم، فلو كان الاعتكاف لا يصح إلا في المساجد الثلاثة لقلنا: إن «**ال**» هنا للعهد الذهني، ولكن أين الدليل؟

وإذا لم يقم دليل على أن «أل» للعهد الذهني فهي للعموم هذا الأصل، ثم كيف يكون هذا الحكم في كتاب الأمة للأمة من مشارق الأرض ومغاربها، ثم نقول: لا يصح إلا في المساجد الثلاثة، فهذا بعيد أن يكون حكم مذكور على سبيل العموم للأمة الإسلامية، ثم نقول: إن هذه العبادة لا تصح إلا في المساجد الثلاثة، كالطواف لا يصح إلا في المسجد الحرام.

فالصواب أنه عام في كل مسجد، لكن لا شك أن الاعتكاف في المساجد الثلاثة أفضل، كما أن الصلاة في المساجد الثلاثة أفضل».

والاعتكاف سنة، قال الحافظ ابن المنذر رحمه الله: أجمع أهل العلم

(١) الشرح الممتع (٦/ ٥٠٥).



علـى أن الاعتـكاف لا يجب علـى الناس فرضا، إلا أن يوجـب المرء على نفسـه الاعتكاف نذرا فيجب، لأن النبي ﷺ تـرك الاعتكاف مرة وهو مقيم ثم قضاه في شوال[1].

وفي الصحيحين من حديث عائشـة رضي الله عنها قال النبي ﷺ: «**من أحـب منكـم أن يعتكف فليعتكـف**»، فتعليق الأمر بالإرادة يـدل على عدم الوجوب.

واختلف العلماء هل يشـترط للإعتكاف صوم؟ فمن لم يشترطه إستدل بقوله تعالـى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ ١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥]، فهذا يدل على أن المقام في بيت الله هو العكوف فيه من غير شرط، وأنه عبادة بنفسه، كما كان الطواف عبادة بنفسه.

واستدل من لم يشترط الصيام للاعتكاف كذلك بحديث عمر بن الخطاب ﷺ قـال: قلت: يا رسـول الله! إني كنت نذرت في الجاهليـة أن أعتكف ليلة - وفي رواية: يوما - في المسجد الحرام؟ قال: **فأوف بنذرك**»، رواه البخاري ومسلم.

ورواية «ليلة» أصح، ولو كان الصوم شرطاً في صحة الاعتكاف لما جاز اعتكاف ليلة، لأن الليل لا صوم فيه[2].

(١) القضاء ليس لأن الاعنكاف واجب، بل لأنه إذا عمل عملا أثبته.
(٢) شرح العمدة كتاب الصيام لشيخ الإسلام (٢/ ٧٥٥).




قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أجمع الناس على استحباب الصوم للمعتكف، ولأن الصوم أعون له على كف النفس على الفضول، فإنه مفتاح العبادة».

ومن اشترط الصوم للاعتكاف استدل بأدلة عديدة:

١ - قول عائشة رضي الله عنها «السنة للمعتكف أن يصوم»، رواه أبو داود.

قال ابن القيم: هذا من قول الزهري ووهم من أدرجه في الحديث[١].

٢ - فتيا الصحابة ابن عمر، وابن عباس، وعائشة رضي الله عنهم كلهم قال: «لا اعتكاف إلا بصوم»، رواه سعيد بن منصور وعبدالرزاق وصححه ابن حجر.

وهذا فتيا لبعض الصحابة وليس بإجماع منهم، ناهيك أن ابن عباس رضي الله عنهما نفسه قال: «ليس على المعتكف صيام إلا أن يجعله على نفسه»، رواه البيهقي بسند صحيح.

٣ - أن النبي ﷺ لم يعتكف إلا في رمضان.

وأجيب عنه بأنه ﷺ كان يتحرى أفضل الأحوال في اعتكافه، ولا ريب أن الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان أفضل تحريا لليلة القدر، لكن لا يجب له الصوم.

(١) تهذيب السنن (٣/ ٣٤٤).



٤ - الاعتكاف لبث في مكان مخصوص، فلم يكن قربة حتى ينضم إليه قربة أخرى وهو الصيام. وأجيب أن الله ذكر الاعتكاف عبادة بنفسه من غير شرط كالطواف ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ ١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥].

٥ - المعتكف ممنوع مما يُمنع منه الصائم من القبلة ونحوها، فلأن يمنع مما يُمنع منه الصائم كالأكل والشرب أولى.

وأجيب بأن الله أطلق قوله: ﴿عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾، ولم يخصص به صائما من غيره.

٦ - إن الله ذكر الإعتكاف إثر الصوم فقال: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ ١٨٧﴾ [البقرة: ١٨٧]، وأجيب بأنه ليس فيه ما يدل على تلازمهما، وإلا لكان لاصوم إلا باعتكاف ولا قائل به.

وفي لزوم النبي ﷺ الاعتكاف في رمضان معنى مهم تلمحه ابن القيم رحمه الله فقال(١): «لمّا كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى، متوقّفا على جمعيتِّه على الله، ولمِّ شعثه بإقباله بالكليّة على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يَلُمّهُ إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول المنام، مما يزيده شعثا، ويشتّتُهُ في كل واد، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يُضعفه، أو يعوقه

(١) زاد المعاد ص٢٢٨ - ٢٢٩.

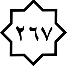



ويُوقفه: اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يُذهب فضول الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوِّقة له عن سيره إلى الله تعالى، وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضرُّه ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة.

وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعيَّتهُ عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلَها، ويصير الهمُّ كُلُّه به، والخطرات كلُّها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلا عن أنسه بالخلق فيعدّه بذلك لأنسه به يوم الوَحشة في القبور حين لا أنيس، ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

ولما كان هذا المقصود إنما يتمُّ مع الصوم، شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان، ولم يُنقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطرا قط، بل قد قالت عائشة رضي الله عنها: لا إعتكاف إلا بصوم، ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا فعله رسول الله ﷺ إلا مع الصوم، فالقول الراجح في الدليل الذي عليه جمهور السلف أن الصوم شرط الاعتكاف»[1].

(١) الصواب أنه شرط كمال، ويصح بدون الصيام.



وهنا الصائم لابد له من فقه في التخلي للطاعة في العشر الأواخر من رمضان، وهو فقه المفاضلة بين الطاعات، فيستَّفرغ وسعه في العبادة في هذه الأيام الفاضلة، سواء بالاعتكاف في المسجد، أو الخلوة في منزله والتخفف من الشواغل الدنيوية والخلطة مع الناس، وكذلك يقدّم التخلي للعبادة على طلب العلم، لأن التعليم يُدرك في غير هذا الوقت، والعشر الأواخر وليلة القدر لا عوض عنها في غيرها من العام، ولأن صلاح العبد في هذا الشهر يحفظ له طاعاته في سائر السنة، قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: «من صحَّ له رمضان وسلم، سلمت له سائر سنته».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[(٢)]: «وإنما كان يعتكف النبي ﷺ في هذه العشر التي يطلب فيها ليلة القدر، قطعا لاشتغاله، وتفريغا لباله، وتخليا لمناجاة ربه وذكره ودعاءه.

وكان يحتجز حصيراً يتخلى فيها عن الناس، فلا يخالطهم، ولا يشتغل بهم، ولهذا ذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس، حتى ولا لتعليم علم، وإقراء قرآن، بل الأفضل له الإنفراد بنفسه، والتخلي بمناجاة ربه، وذكره، ودعائه».

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣٩٨).
(٢) لطائف المعارف ص٣٦٦.




وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «إن النفع المتعدي ليس أفضل مطلقاً، بل ينبغي للإنسان أن يكون له ساعات يناجي فيها ربه، ويخلو فيها بنفسه ويحاسبها، ويكون فعله ذلك أفضل من اجتماعه بالناس ونفعهم، ولهذا كان خلوة الإنسان في الليل بربه أفضل من اجتماعه بالناس».

على كل حال يجوز للإنسان أن يُجمّ نفسه بالمباح ومن باب أولى بطلب العلم، فإنه إذا حضر مجلس علم لساعة في معتكف مسجده كما لو كان لحضور درس في المسجد الحرام فإن هذا لا يمنع منه، وربما كان ذلك من أسباب تنشيطه للعبادة في سائر اليوم، وقد رأيت بعض المعتكفين في المسجد الحرام يحضرون درس شيخنا العثيمين رحمه الله بعد صلاة التراويح.

وصفية لما جاءت للنبي ﷺ تزوره في معتكفه حادثها ثم خرج معها[2]، قال ابن الملقن رحمه الله[3]: «قال ابن المنذر: وطلب العلم أفضل الأعمال بعد أداء الفرائض، لانتشار الجهل ونقصان العلم، وذلك إذا أراد الله به طالبه.

عمل البر لا ينافي الاعتكاف، لا يقال: مجالس العلم شاغلة له عن اعتكافه، فأي شغل أهم منه، ولا يعترض بعود المريض واتباع الجنازة وهما من أعمال البر، لأنهما يحوجان إلى الخروج، وهذا الحديث حجة

(١) شرح العمدة كتاب الصيام (٢/ ٧٨٩).
(٢) رواه البخاري كتاب الاعتكاف باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه (ص٣٢٧ - رقم ٢٠٣٨).
(٣) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٣/ ٦٤٩ - ٦٥٠).

على الاشتغال بالمباح، فإن الشارع حادث صفية ومشى معها، وفيه ما ترجم له.

ثانياً: وهو زيارة أهل المعتكف له في اعتكافه ومحادثته والسلام عليه، وأنه لا بأس أن يعمل في اعتكافه بعض العمل الذي ليس من الاعتكاف من تشييع قاصد، وبر زائر، وإكرام معتقد، وما كان في معناه مما لا ينقطع به عن اعتكافه».

وبعض أهل العلم لا يرى أن خروج النبي ﷺ مع صفية رضي الله عنها في مرتبة المباحات، بل يراه في رتبة الحاجيات، فخروج النبي ﷺ كان للخوف على أهله

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله(١) «ينبغي للمعتكف أن يشتغل بطاعة الله - عز وجل - من صلاة وقراءة قرآن، وذكر الله - عز وجل - لأن هذا هو المقصود من الاعتكاف، ولا بأس أن يتحدث إلى أصحابه قليلاً، لاسيما إذا كان في ذلك فائدة».

والذي ينبغي على المعتكف ألا يخرج إلا لحاجة دلّ صفة إعتكاف النبي ﷺ على ذلك، قالت عائشة رضي الله عنها «وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان»(٢).

(١) فتاوى أركان الإسلام ص٤٩٦.
(٢) رواه البخاري (رقم ٣٠٢٩)، ومسلم (رقم ٦٨٤).




قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله[1]: «تعني رسول الله ﷺ، ففي ذلك دليل على أن المعتكف لا يشتغل بغير ملازمة المسجد للصلَّوات، وتلاوة القرآن، وذكر الله، أو السُّكوت ففيه سلامة.

«ولا يخرج من المسجد إلا لحاجة الإنسان»، كل مالا غنى بالإنسان عنه من منافعه، ومصالحه ومالا يقضيه عنه غيره».

وقال أيضاً[2]: «ومن جهة النَّظر فإن المعتكف ناذر، جاعل على نفسه المقام في المسجد لطاعة الله، فواجب عليه الوفاء بذلك، وأن لا يشتغل بما يلهيه عن الذكر والصلاة، ولا يخرج إلا لضرورة: كالمرض البيِّن، والحيض في النساء، وهذا في معنى خروجه ﷺ لحاجة الإنسان لأنها ضرورة.

واختلف قول مالك في المعتكف يخرج لعذر غير ضرورة، مثل: أن يموت أبوه، أو ابنه، ولا يكون له من يقوم به، أو شراء طعام يفطر عليه، أو غسل النجاسة من ثوبه، فروُي عنه: أنه من فعل ذلك كله يبتديء اعتكافه، ورُوي أنه يبني، وهو الأصح عندنا قياسا على حاجة الإنسان».

وقد نبّه الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله إلى أن العلماء كرهوا الاعتكاف في مسجد لا يُجمّع فيه، فالخروج لغير الجمعة من غير حاجة ولا ضرورة

(١) الاستذكار (١٠/ ٢٧٨).
(٢) الاستذكار (١٠/ ٢٧٨ - ٢٧٩).

أولى، فقال أبو عمر[1]: «ولا أراه كره الاعتكاف في المساجد التي لا يُجمَّع فيها إلا كراهية أن يخرج المعتكف من مسجده الذي اعتكف فيه».

والمعتكف لابد أن يعرف حد المسجد حتى يكون اعتكافه واقعا فيه، لا كما يفعله البعض من الاعتكاف في غرفة في ملحق المسجد، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في رواية ابن الحكم[2]: «حدّ المسجد هو الذي جُعل عليه حائط وباب»[3].

ويدخل المعتكف المسجد بنية الاعتكاف قبل غروب الشمس، لأن اليوم الذي يريد إعتكافه يبدأ بغروب الشمس، فالليالي تتبع الأيام، وأما حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكفه» متفق عليه، فهذا يدل على أن له مكانا خاصاً في المسجد يدخله بعد صلاة الفجر، حكى ابن الملقن رحمه الله توجيه العلماء لمعنى الحديث[4]: «كان ﷺ قبل المغرب معتكفاً لابثا في المسجد، فلما صلى الصبح انفرد».

وقال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله[5] «فلا أعلم من فقهاء الأمصار من قال به إلا الأوزاعي، وذكر الأثرم قال سمعت أحمد بن حنبل يسأل عن

(١) الاستذكار (١٠/ ٢٧٥).
(٢) شرح العمدة كتاب الصيام لشيخ الإسلام كتاب الصيام (٢/ ٧٢٣).
(٣) المراد به حائط وباب مكان الصلاة، لا حائط السور الخارجي.
(٤) التوضيح شرح الجامع الصحيح (١٣/ ٦٤٥).
(٥) التمهيد (١١/ ١٩٦).




المعتكف في أي وقت يدخل معتكفه؟

فقال: يدخله قبل غروب الشمس فيكون يبتديء ليلته.

واتفق مالك وأبو حنيفة والشافعي على دخول المعتكف قبل غروب الشمس.

وأما متى يخرج المعتكف من إعتكافه، فقد قال ابن بطال رحمه الله[1]: «إن ليلة العيد ويوم العيد ليس بموضع اعتكاف، والعشر يزول بزوال الشمس، والشهر يزول بزوال الشهر، والشهر ينقضي بغروب الشمس من آخر يوم من رمضان».

ويشرع للمعتكف أن يتنظف ويغتسل ويترجّل ويتطيّب، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف أدنى إليّ رأسه، فأرجِّله[2]

قال الحافظ البغوي رحمه الله[3] «فيه أن المعتكف يجوز له غسل الرأس، وترجيل الشعر، وفي معناه حلق الرأس، وتقليم الظفُّر، وتنظيف البدن من الشَّعث والدرن».

ولا يجوز للمعتكف مباشرة زوجه لأنه من وسائل الجماع، والجماع

(١) شرح صحيح البخاري (٤/ ١٧٧).
(٢) رواه البخاري كتاب الاعتكاف باب لا يدخل البيت إلا لحاجة (ص٣٢٥ - رقم ٢٠٢٩)، ومسلم كتاب الحيض باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله (ص ١٣٧ - رقم ٦٨٤).
(٣) شرح السنة (٦/ ٣٩٨).



يبطل الإعتكاف، قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ (١٨٧)﴾ [البقرة: ١٨٧]، قال قتادة: كان الناس إذا اعتكفوا يخرج أحدهم فيباشر أهله ثم يرجع إلى المسجد، فنهاهم الله عن ذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا جامع المعتكف بطل اعتكافه، واستأنف الاعتكاف، فالوطء يبطل الاعتكاف باجماع أهل العلم، ذكره ابن حزم وابن المنذر، لأنه عبادة حرم فيها الوطء فأبطلها كالصوم والإحرام.

❊ ❊ ❊




الدرس الثاني والعشرون
شــهــر الــصـــبــر

ذكرنا أن شهر رمضان شهر الصبر، وذكرنا فضيلة الصبر، وأن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

والمصائب والابتلاءات والمحن لا بد أن تنزل بالعباد امتحاناً لإيمانهم، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣].

فالمصيبة سُنَّة كونية لابد أن تقع، ولابد أن يُصاب المسلم بشيء من المصائب بحسب ما قدّره الله، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «فلم يخل جل ثناؤه أحداً من مكرمي رسله، ومقربي أوليائه من محنة في عاجله دون آجله؛ ليستوجب بصبره عليها من ربه من الكرامة ما أعد له، ومن المنزلة لديه ما كتبه له، ثم جعل تعالى - جل وعلا ذكره - علماء كل أمة نبي ابتعثه منهم ورَّاثة من بعده، والقوّام بالدين بعد اخترامه إليه وقبضه، الذابين عن عُراه وأسبابه، والحامين عن أعلامه وشرائعه، والناصبين دونه لمن بغاه وحاده، والدافعين عنه كيد الشيطان وضلاله»[١].

(١) صريح السُّنة (ص٢٠ - ٢١).





إلى أن قال ابن جرير: «ثم جعل، جل ثناؤه وذكره، علماء أمة نبينا ﷺ من أفضل علماء الأمم التي خلت قبلها فيما كان؛ قسم لهم فيه حظّاً ونصيباً، مع ابتلاء الله أفاضلها بمنافعها، وامتحانه خيارها بشرارها، ورفعائها بسفلها ووضعائها فلم يكن يثنيهم ما كانوا به منهم يُبتلون، ولا كان يصدُّهم ما في الله منهم يلقون من النصيحة لله في عباده وبلاده أيام حياتهم، بل كانوا بعلمهم على جهلهم يعودون، وبحلمهم لسفههم يتعمدون، وبفضلهم على نقصهم يأخذون»(١).

والابتلاء بالمصائب له حكم عظيمة منها تزكية النفوس وصقلها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن النفس لا تزكوا وتصلح حتى تمحص بالبلاء، كالذهب الذي لا يخلص جيِّدُه من رديئه حتى يُفْتَنَ في كِيْرِ الامتحان، إذ كانت النفس جاهلة ظالمةً، وهي مَنْشأ كلِّ شرٍّ يَحصُل للعبد، فلا يحصل له شرّ إلا منها، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩](٢).

سأل رجل الشافعيَّ فقال: يا أبا عبدالله! أيما أفضل للرجل أن يمكَّن أو يُبتلَى؟ فقال الشافعي: لا يُمكَّن حتى يُبتلَى.

(١) المصدر السابق (ص٢١ – ٢٢).
(٢) جامع المسائل (٣/ ٢٥٧).





قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقاً: «فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكَّنَهم، فلا يظن أحدٌ أن يخلص من الألم البتَّةَ»[1].

فليس أحد أكرم من رسل الله حتى يسلم من الابتلاء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لابدّ من الابتلاء بما يؤذي الناس، فلا خلاصَ لأحدٍ ممّا يؤذيه ألبتَّة. ولهذا ذكر الله تعالى في غير موضع أنه لابدّ أن يَبتليَ الإنسانَ بما يَسُرُّه ويسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابراً شكوراً، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢]. هذا في سورة آل عمران، وقد قال قبل ذلك في سورة البقرة، فإن سورة البقرة نزل أكثرها قبل سورة آل عمران: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤]»[2].

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٥٤ - ٢٥٥).
(٢) جامع المسائل (٣/ ٢٥٦ - ٢٥٧).





فليس أحد أكرم من رسل الله فإنهم قد ابتلوا جميعاً، وهذا أكرمهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ أوذي في عرضه، وأوذي بالسحر أيضاً، وهذا نبي الله سليمان، ابتلاه الله عز وجل بأن سلب منه التفكير وتدبير شؤون مملكته فصار لا يُحسن التدبير، وصار بمنزلة الجسد بلا روح، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص: ٣٤]، وقيل: إنه شيطان سُلط على كرسي سليمان فبقي فيه، وصار يدبِّر شؤون مملكته[١].

ومن المصائب ما ينزل بالإنسان بسبب ذنوبه، قال ابن القيم رحمه الله: «وإذا علم العبد حقيقة الأَمر، وعرف من أَين أُتي ومن أَي الطرق أُغير على سرحه ومن أَي ثغرة سُرق متاعه وسلب استحى من نفسه - إن لم يستح من الله - أَن يشكو أَحداً من خلقه أو يتظلمهم أَو يرى مصيبته وآفته من غيره، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النساء: ٧٩][٢].

وإذا نزلت بك مصيبة فصيِّرها باباً للعبودية لله، والانكسار بين يديه والتذلل له، والرغبة إليه، واسأل الله أن يجعل عاقبتها حميدة، وأن يخلفك خيراً.

(١) تفسير سورة ﴿ صٓ ﴾ (ص ١٦٦) لابن عثيمين.
(٢) طريق الهجرتين (ص٦٤).





فالمصيبة قد تفتح لك باباً من دعاء الله كنت أحوج ما تكون إليه، فكأنما تسـوقك إليه بالسلاسـل، قال أبو محمد عبدالله بن أبـي جمرة رحمه الله: «قـال بعض أهل التوفيق: إذا نزلت بي نازلة مـن أي نوع كانت المهمة فيها إلى اللجأ، فلا أبالي»(١).

فالسعيد من يجعل من المحن منحاً، لا أن يكون أسير الأحزان والهموم والغموم، فإنها جزء من المصيبة، بل يجتهد في رفعها، وأول أسـباب ذلك الالتجاء إلى الله وحده لا شريك له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «مـن تمام نعمـة الله على عباده المؤمنين أن يُنْزل بهم من الشـدة والضُّر ما يُلجؤهم إلى توحيده، فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحداً سـواه، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم: مـن التوكل عليه، والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان، وذَوْقِ طعمه، والبراءة من الشرك، ما هو أعظم نعمة عليهـم مـن زوال المرض والخـوف، أو الجدب أو حصول اليسـر وزوال العسـر في المعيشـة، فإن ذلك لذات بدنية، ونعم دنيوية قد يحصل للكافر منهـا أعظم مما يحصل للمؤمن؛ وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يُعبِّرَ عن كنهه مقال؛ أويستحضر تفصيله بال، ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه، ولهذا قال بعض السلف: ياابن آدم! لقد بُورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك»(٢).

---

(١) بهجة النفوس (٢/ ٧١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٣٣)، الآداب الشرعية (١/ ٦٢٤).



فالمسلم شأنه مختلف عن الكافر تماماً، المؤمن إذا نزلت به الضراء تذكّر واستعتب وأناب وادَّكر، والكافر السراء والضراء عنده سواء لا تزيده من الله إلا بعداً.

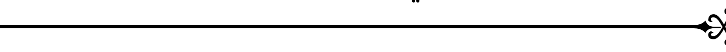
قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إنَّ المسلمَ ليُبتلى، فيكون كفارةً لما مضى ومستعتباً فيما بقى، وإنَّ الكافر يُبتلى، فمثله كمثل البعير أُطلِقَ، فلم يدر لماذا أُطلق، وعقل، فلم يدر لم عُقِلَ؟»[1].

فالسلف أئمة هدى كانوا يعرفون حقائق الأمور، وما يكون وراءها، قال سفيان الثوري رحمه الله: «ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة»، وقال وهب بن منبه: «إن من قبلكم كان إذا أصاب أحدهم بلاء عدّه رخاء، وإذا أصابه رخاء عدَّه بلاء»[2].

وروى البخاري في صحيحة عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيراً يُصِبْ مِنْهُ».

فالمصيبة امتحان ويرتفع، يُريد الله بذلك تمحيص إيمانك واختبار صبرك، وأن تنطرح بين يدي الله، وتنكسر له وحده لا شريك له، قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله: «يا بُني! المصيبة ما جاءت لتهلكك، وإنما

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٧).



جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني! القدر سبعٌ، والسَّبعُ لا يأكل الميتة، فالمصيبة كير العبد، فإما أن يخرج ذهباً أو خبثاً»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: «إذا ابتلى الله عبده بشيء من أَنواع البلايا والمحن فإن ردّه ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدة بتراء لا دوام لها وإن طالت، فتُقلع عنه حين تُقلع وقد عُوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شارداً عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائياً عنه وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضاً، وللوقوف على أبواب غيره متعرضاً. وكانت البلية في حق هذا عين النعمة، وإن ساءَته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سبباً ما مثله سبب وقوله تعالى في ذلك هو الشفاءُ والعصمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]»[2].

ومن حكم الله في المصائب أنها سبب رفعة الدرجات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لِيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ الْمَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلِهِ فَمَا يَزَالُ اللهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ، حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا**»[3].

(١) الآداب الشرعية (١/ ٦٣٠).
(٢) طريق الهجرتين (ص١٦٣).
(٣) صحَّحه ابن حبان (٤/ ٢٤٨ - رقم ٢٨٩٧).





وهـذا ما حصل لحفيد رسـول الله ﷺ الحسـين بن علـي بن أبي طالب رضـي اللـه عنهما، فإنه كان صغيراً في حياة النبـي ﷺ، فلم يدرك المغازي والغزوات مع رسول الله ﷺ، فأراد الله عز وجل أن يبلغه درجة من أدركها أو فوق ذلك فسلَّط الله عليه عبيد الله بن زياد.

والمصائـب سـبب لتكفيـر الذنـوب إذا صبـر العبـد واحتسـب، ففـي الصحيحـن عـن أبي هريرة رضـي الله عنـه: أن النبي ﷺ قال: «**مَـا يُصِيبُ الْمُسْـلِمَ، مِـنْ وَصَـبٍ وَلَا نَصَبٍ، وَلَا هَـمٍّ وَلاَ حُـزْنٍ وَلَا أَذى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ مِنْ خَطَايَاهُ**».

ولمسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً، فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ**».

وعـن شـداد بن أوس رضي الله عنه أن رسـول الله قـال: «**يَقُولُ الله عز وجـل إِذَا ابْتَلَيْـتُ عَبْداً مِنْ عِبَادِي مُؤْمِناً، فَحَمِدَنِي عَلَى مَـا ابْتَلَيْتُه، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّه مِنَ الْخَطَايا**»[1].

وعن سـعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُـولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَـدُّ بَلَاء؟ قَالَ: «**الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِه، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي**

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٣).






دِينِـهِ رِقَّـةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَـزَالُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِـيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[1].

واعلـم أن المصيبة مهما كبرت، ومهما تكاثـر صانعوها فإن لها من الله مخرجاً، والسـكينة يُنزلها الله على القلب فتندحر مكائد الأشـرار، قال ابن القيم رحمه الله: «من أدركه الضجر من قوة التكاليف، وأعباء الأمر وأثقاله – ولاسيما من أقيم مقام التبليغ عن الله، ومجاهدة أعداء الله، وقُطاع الطريق إليـه – فإن ما يحملـه ويتحمله فوق ما يحمله النـاس ويتحملونه. فلابد أن يدركـه الضجر، ويضعف صبره. فـإذا أراد الله أن يريحه ويحمل عنه: أنزل عليه سـكينته. فاطمأن إلى حكمه الديني، وحكمه القدري. ولا طمأنينة له بدون مشـاهدة الحكمين. وبحسب مشـاهدته لهما تكون طمأنينته. فإنه إذا اطمـأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المسـتقيم، وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم.

وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن. فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان. فإن المحذور والمخوف: إن لم يُقدَّر فلا سبيل إلى وقوعه، وإن قُدِّر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أُبرم تقديره. فلا جزع حينئذ لا مما قدر ولا مما لم يقدر»[2].

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤١٦).

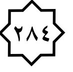


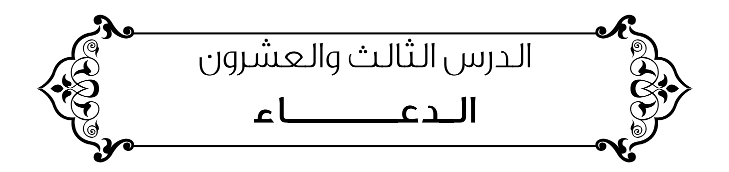
والإنسـان لا يسـتدعي المصائب ولا يطلبها فسـاحة العافية أوسـع من سـاحة الصبر كمـا قال ابن القيم: ولكن لو نزلت بـه نازلة فلابّد من الصبر، والإنسان إذا اعتصم بالله وصبر صبّره الله، وأخلفه خيراً في مصيبته.

قال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله: «والصبر كسائر الأخلاق يحتاج إلى مجاهدة النفس وتمرينها، فلهذا قال: «**ومن يتصبر**» أي: يجاهد نفسه على الصبر «يصبره الله» ويعينه، وإنما كان الصبر أعظم العطايا، لأنه يتعلـق بجميع أمور العبد وكمالاته، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر، فإنـه يحتاج إلى الصبـر على طاعة الله، حتى يقوم بهـا ويؤديها، وإلى صبر عـن معصية اللـه حتى يتركها لله، وإلـى صبر على أقدار اللـه المؤلمة، فلا يسـتخطها، بل إلى صبر علـى نعم الله ومحبوبات النفـس، فلا يدع النفس تمـرح وتفرح الفرح المذموم، بل يشـتغل بشـكر الله، فهو فـي كل أحواله يحتـاج إلـى الصبر وبالصبر ينـال الفلاح، ولهذا ذكر الله أهـل الجنة فقال: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤] وكذلك قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٥] فهم نالوا الجنة بنعيمها، وأدركوا المنازل العالية بالصبر، ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذي لا يدري ما عاقبته، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصبر. فالعافية هي المطلوبة بالأصالة في أمور الابتلاء والامتحان، والصبر يؤمر به عند وجود أسبابه ومتعلقاته، والله هو المعين»[1].

❊ ❊ ❊

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٧٢).





الدرس الثالث والعشرون
الـدعـــــــاء

الدعـاء من أجل العبادات والطاعات، وهـو صلة بين العبد وربه، فأمور الخلق كلها ومقاديرها بيد الله سبحانه، واستجلاب الخير ودفع الشر يكون بالدعاء، والمحروم من غفل عن الدعاء، فقد روى أبو يعلى والطبراني عن أبـي هريرة رضـي الله عنه أن النبـي ﷺ قال: «أَعْجَـز النَّاسِ مَـنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ»(١).

وللدعاء فوائد عظيمة، وثمرات كبيرة، منها:

١ - **أن الدعـاء عبـادة**: وهـذا واضـح من قوله تعالـى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

ولذلك ذكر بعض العلماء أن العبد لا يُستجاب له في كل ما يدعو ليكون دائمـاً علـى ارتباط بربـه، قال أبو بكر الطرطوشـي رحمه اللـه: «ولهذا قال بعضهم: لو اسـتجيب للعبد في كل ما سـأل لخرج عن حدِّ العبودية، وإنما أمر بالدعاء ليكون عبداً، والله يفعل ما يشاء»(٢).

---

(١) حسَّنه ابن مفلح في الآداب (١/ ٧٠٩).

(٢) الدعاء المأثور (ص١٠٧).

٢ – **التذلل لله**: وهـذا من أعظم ما يكون من ثمـرات الدعاء، أن يتذلل العبـد لربه ويبتهل إليه، ويخضع لـه، ويُظهر فاقته وحاجته إلى ربه، ولذلك يظهـر مـن حكمة الله عز وجل ما يُنزله بعباده من المقادير التي تُلجئهم إلى ربهم عز وجل بعد أن كانوا في غمرتهم ساهون.

٣ – **الدعـاء يفتـح أبواباً من الطاعـات التي يحبها الله عـز وجل**، وذلك أن العبـد يتحـرى عملاً صالحـاً يُقدمه بين يدي الله عز وجل ليسـتجاب له كصدقة وقيام ليل ونحوه.

ولذلـك توسـل الثلاثـة نفـر الذين أطبـق عليهم الغـار إلى اللـه بصالح أعمالهم فاستجاب الله لهم.

٤ – **الانكفـاف عـن المعاصـي**: وهـذا مـن أعظم مـا يكون مـن ثمرات الدعاء، لأن العبد يسـتحي أن يسـأل ربه وهو مقيم على المعاصي ويركب المحرمـات، فالعبد يتحرى أسـباب إجابة دعائه، ومن أعظم أسـباب ذلك ترك المعاصي والذنوب.

٥ – **انشـغال القلـب بذكر الله**: ذلك أن صاحـب الحاجة تُقلقه وتُزعجه حاجتـه، فـلا يزال قلبه مشـغولاً بها، ويعلـم أن حاجته لا يقضيهـا إلا الله، فيُنزلها بالله فيصبح قلبه مشـغولاً بسؤال الله ودعائه وطلب مرضاته، وهذا مما يُحبه الله.

٦ - **تحقيـق التوحيـد**: ذلـك أن العبد يتبـرأ من الحول والقـوة إلا بالله، ويعلـم أنه لا يُغيّر حاله من الضراء إلى السـراء، ولا يجلب له ما يرجوه من الخير إلا الله عز وجل، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولذلـك يحصـل للعبد قوة رجاء بالله عز وجل فـي إجابة حاجته، وهذا من تحقيق التوحيد أيضاً.

ولإجابة الدعاء أسباب لابد من تحقيقها حتى يجتني العبد ما يرجوه من سؤال ربه، أهمها:

١ - **صحـة الاعتقاد**: فصحة الاعتقاد سـبب لإجابة الدعـاء، فربما حُرم المبتدعة إجابة دعائهم في مواضع كثيرة بسبب سوء عقيدتهم.

قال شـيخ الإسـلام ابـن تيمية رحمـه الله: «ولهـذا قيل: إجابـة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد، وعن كمال الطاعة، لأنه عقَّب آية الدعاء بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي ١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦]»[١].

٢ - **الإلحـاح في الدعـاء**: فإن الإلحاح على الله في الدعاء من أسـباب اسـتجابة الدعـاء، فالإلحاح دليـل على أن العبد لم يطرق سـوى باب الله، وإلحاحـه دليل على أنه لم يتحوَّل عن بـاب الله، وإلحاحه دليل على تألهه لربـه عز وجل، فمثل هذا حريٌّ أن يُسـتجاب له، والنبـي ﷺ ألحّ في دعائه

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٣).



لربه عز وجل في غزوة بدر حتى أشفق عليه صاحبه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه.

٣ - **حضور القلب**: لأن غفلة القلب دليل على عدم مبالاة وعدم الحاجة والفاقة لحصول غرضه، وحضور القلب دليل الرغبة الأكيدة الصادقة في ابتغاء فضل الله وتحري أسباب إجابة الدعاء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاه**»[1].

٤ - **الاستجابة لله بالطاعات**: فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «فكأنه سبحانه قرن استجابته لعبيده فيما سألوه باستجابتهم فيما كلفهم، كأنه قال: عبدي أستجيب دعاءك وأستجيب سؤالك بشرط أن تستجيب إليَّ بامتثال أوامري، والانتهاء عن زواجري»[2].

وقيل لإبراهيم بن أدهم: ما لنا ندعو الله فلا يستجيب لنا؟ فقال: «لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب في إيجاب الدعاء (ص٧٩٤ - رقم ٣٤٧٩)، والطبراني في الدعاء (٢/ ٨١٢ - رقم ٦٢).

(٢) الدعاء المأثور (ص١٠٦).

فلم تعملوا به، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه، بل وافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم موتاكم فلم تعتبروا بهم، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس»(١).

قال ابن القيم رحمه الله متحدثاً عن موانع استجابة الدعاء: «وَإِمَّا لِحُصُولِ الْمَانِعِ مِنَ الْإِجَابَةِ: مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ، وَرَيْنِ الذُّنُوبِ عَلَى الْقُلُوبِ»، ثم قال: «وَكَذَلِكَ أَكْلُ الْحَرَامِ يُبْطِلُ قُوَّتَهُ وَيُضْعِفُهَا. كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ١٧٢﴾ [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: **يَا رَبِّ يَارَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**»»(٢).

٥ - **الجزم بما يدعو به**: لابد للداعي أن يجزم بما يدعو به مهما دعا به، فإن الله لا يتعاظمه شيء، ولا رادّ لفضله، والله يستحي أن يرد عبده

(١) الدعاء المأثور (ص ١٠٨)، والاعتصام (١/ ١٤٩).
(٢) الجواب الكافي (ص ١٧).



وقد رفع يديه للسماء، وعدم الجزم بالدعاء قد ينبيء عن الاستغناء وعدم الحاجة لما يدعو به، إن حصل مراده، وإلا فهو في عافية والعياذ بالله.

ففي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يَقُلْ: اللهُمَّ إِنْ شِئتَ فَأَعْطِنِي، فَإِنَّ اللهَ لَا مُسْتكْرِهَ لَهُ**».

والواضح أن البعض ربما لا يجزم بالدعاء لما يعلمه من حاله من التفريط في جنب الله، قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله سبحانه أجاب دعاء شر الخلق إبليس»[1].

وهنا الأفضل للعبد أن يضمّن دعاءه الاستغفار لربه من ذنوبه وسؤال حاجته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:[2]«قول النبي ﷺ لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه لما قال له: علمني دعاء أدعوا به في صلاتي، فقال: قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم. أخرجاه في الصحيحين.

فهذا وصف العبد لحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة، وفيه وصف ربه الذي يوجب أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره، وفيه التصريح بسؤال

(١) الدعاء المأثور (ص ٢٩ – ٣٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠ – ٢٤٧).




العبد لمطلوبه، وفيه بيان المقتضي للإجابة وهو وصف الرب بالمغفرة والرحمة، فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب».

٦ - **تحري ساعات ومواضع الإجابة**: فهذا من أعظم ما يكون من أسباب إجابة الدعاء، كثلث الليل الآخر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، والدعاء حال السجود، وحال نزول المطر، والدعاء في السفر، وعند النداء بالصلاة، وعند حضور الصف في سبيل الله، وعند الفطر من الصيام، وعند التعار من الليل.

قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «ليس بفقيه من كان له إلى الله حاجة فنام عنها في الأسحار»[1].

٧ - **الإخلاص وصدق اللجأ إلى الله**: قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «قال العلماء: أقرب الدعاء إجابة: دعاء الحال، أن يكون صاحبه مضطرّاً، لابد له أن يدعو لأجله، فمن صَدَّق اللجأ والاستغاثة، أجيب في الحال، قال الله سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]، وهذا تلقين للمضطر أن لا يذهل عن الدعاء في حال الاضطرار، وإشارة إلى أن دعاءه مستجاب»[2].

وقال أيضاً: «ودعاء الإخلاص مستجاب إن شاء الله تعالى، قال تعالى:

(١) الدعاء المأثور (ص٥٢).
(٢) المصدر السابق (ص٥٦).





﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٥﴾ [البينة: ٥]، وخلوصه تصفيته من الآفات والوساوس، وهو أن لا يشوبه شيء من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى»[١].

٨ - **الثناء على الله عز وجل**: فقبل طلب الحاجة من الكريم الوهاب فإنك تبدأ بالثناء عليه، وهذا الثناء على الله وهو الكامل سبحانه مما يُحبه الله، وهو من أسباب استجابة الدعاء، ومن شرع في سؤال حاجته والدعاء مباشرة دون أن يبدأ بالثناء على الله فقد عجل أو أساء الأدب.

وإن شئت أن تعرف عظم الثناء على الله وكونه من أعظم أسباب إجابة الدعاء فتأمل حديث الشفاعة العظمى كيف يحمد النبي ﷺ ربه بمحامدٍ لم يفتحها عليه من قبل فيُقال له: يا محمد! ارفع رأسك، وسل تعطه[٢].

قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «هذا إبراهيم خليل الله، لما أراد مناجاة مولاه في استقضاء حوائجه، واستدرار ما في خزائنه، بدأ بالثناء على ربه قبل سؤاله، فبدأ بالتخليق والهداية، فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٢]،

(١) المصدر السابق (ص ٦١).
(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل: {ولقد أرسلنا نوحا} (ص٥٥٥ - رقم ٣٣٤٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلاً (ص ١٠١ - رقم ٤٧٥).




فأثنـى علـى الله بخمس ثنـاءات، أنـه الخالق الهـادي، المطعم المسـقي، الشافي من الأوصاب، والمحيي والمميت، والغافر.

ثم سـأل خمس حوائج: العلم والحكمة وصلاح الخاتمة، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء: ٨٣ - ٨٥]»[(١)].

وقـال ابن القيم رحمه الله: «وروى أبو داود والنسـائي من حديث أنس رضي الله عنه: أنه كان مع النبي ﷺ جالساً ورجلٌ يصلي ثم دعا: اللهم إني أسـألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السـموات والأرض، يا ذا الجـلال والإكـرام، يا حي يـا قيوم. فقال النبي ﷺ: «**لقد دعا الله باسـمه الأعظـم الـذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُـئل به أعطى**» فأخبـر النبي ﷺ أن الدعـاء يسـتجاب إذا تقدَّمه هذا الثناء والذكر، وأنه اسـم الله الأعظم فكان ذكر الله عز وجل والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه.

وهـذه فائدة أخرى مـن فوائد الذكر والثناء، أنه يجعل الدعاء مسـتجاباً. فالدعـاء الذي تقدَّمـه الذكر والثناء أفضـل وأقرب إلى الإجابـة من الدعاء المجرد، فإن أضيف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه كان أبلغ في الإجابة وأفضل»[(٢)].

---

(١) الدعاء المأثور (ص ٣٢).
(٢) الوابل الصيب (ص٢٢٥ - ٢٢٩).






٩ - الصلاة على النبي ﷺ: عن عمر رضي الله عنه قال: «إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي علي نبيك ﷺ»(١).

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ رَجُلاً يَدْعُو فِي صَلَاتِه، لَمْ يُمَجِّدِ اللهَ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**عَجِلَ هَذَا**»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: - أَوْ لِغَيْرِهِ -: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ: فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْه، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ**»(٢) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

قال ابن القيم رحمه الله: «الصلاة على النبي ﷺ للدعاء بمنزلة الفاتحة من الصلاة»(٣).

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «إذا سألت الله حاجة فابدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم ادع بما شئت، واختم بالصلاة عليه، فإن الله سبحانه بكرمه يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما»(٤).

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الوتر، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ (ص ١٢٩ - رقم ٤٨٦).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الوتر، باب الدعاء (ص٢٢٠ - رقم ١٤٨١)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب في إيجاب الدعاء بتقديم الحمد والثناء والصلاة على النبي ﷺ قبله (ص٧٩٣ - رقم ٣٤٧٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) جلاء الأفهام (ص٤٤٨)، ط - دار عالم الفوائد.

(٤) الدعاء المأثور (ص٤٤).




١٠ - قـوة الرجـاء وحسـن الظن باللـه: عن أبـي هريرة رضـي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي**»(١).

ومن جُملة ما ذُكِر من معاني اسـم الله «المؤمن» أنه يُصدّق ظنون عباده المومنين، ولا يُخيِّب آمالهم، كما أشار إلى ذلك الخطابي(٢).

وقال أبو بكر الطرطوشي في آداب الدعاء: « أن يُقوي رجاءه في مولاه، ولا يقنط من رحمة الله، وإن تأخرت الإجابة»(٣).

وقـال ابن مفلح رحمه الله: «واعلم أن الـدواء إنما ينفع غالباً ممن تلقَّاه بالقبـول، وعملـه باعتقاد حسـن، وكلما قـوي الاعتقاد وحسـن الظن كان أنفع»(٤).

١١ - عـدم اسـتعجال إجابة الدعـاء: ينبغي على الداعـي أن يحمل همَّ الدعاء، فإن البعض من شـدة عجزه وكسـله يدع الدعاء فإذا بلغ العبد هذه الحال فقد تمَّت خسارته، وقد عاقب نفسه بنفسه فإن الله جعل من جملة ما يُعذب به من ترك الأمر بالمعروف والنهي عدم إجابة دعائه، فكيف بمن ودَّع

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله الله تعالى: {ويحذركم الله نفسـه} (ص١٢٧٣ - رقم ٧٤٠٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل ذكر الله (ص ١١٦٩ - رقم ٦٨٣٢).

(٢) شأن الدعاء (ص٤٥).

(٣) الدعاء المأثور (ص٣٥).

(٤) الآداب الشرعية (١/ ١٥٤).



الدعاء بنفسه، فهذا غاية ما يكون من الحرمان، والبعد عن التعرض لأسباب رحمة الله، وقد قال النبي ﷺ: «**أَعْجَزَ النَّاس مَنْ عَجَزَعَنِ الدُّعَاءِ**»(١).

وقال زياد بن أبي زياد: «أنا من أن أُمنع الدعاء أكثر خوفاً مني أن أُمنع الإجابة»، وكان يقول: «الإذن في الدعاء خير من العطاء»(٢).

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»(٣).

وهناك قصور عند البعض في فهم معنى استجابة الدعاء، فالاستجابة لا تنحصر في عين ما دعوت به، فقد يعوضك الله خيراً منه، أو يدفع عنك من السوء من جنس ما دعوت به وأنت لا تشعر، وقد روى أحمد في مسنده أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، قَالُوا: إِذاً نُكْثِرُ قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ**»(٤).

---

(١) رواه الطبراني في «الدعاء» (١/ ٨١١ - رقم ٦٠)، من حديث أبي هريرة، و(١/ ٨١٢ - رقم ٦١)، من حديث عبدالله بن مغفل.

(٢) الدعاء المأثور (ص٢٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (ص ١١٠٢ - رقم ٦٣٤٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب بيان أنه يُستجاب للداعي ما لم يعجل (ص١١٨٦ - رقم ٦٩٣٥).

(٤) رواه أحمد (١٨٣)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب ما من رجل يدعو الله بدعاء إلا استجيب له (ص ٨٢١ - رقم ٣٦٠٤).




١٢ - أن يتوسل في دعائه بأسماء الله الحسنى التي تُناسب ما دعا به، حتى لا يحصل تنافر بين حاجته واسم الله الذي استعمله الذي لا يقتضي مطلوبه.

قال ابن القيم رحمه الله: «إن من دعا الله تعالى بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب، ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله، حتى كأن الداعي مستشفع إلى الله متوسل إليه به، فإذا قال: «رب اغفر لي وتُبْ عليَّ إنك أنت التواب الغفور» فقد سأله أمرين وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه، وكذلك قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر؟

«**قولي اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفُ عني**»، وكذلك قوله للصديق رضي الله عنه وقد سأله أن يعلِّمه دعاء يدعو به: «**اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»»[١].

صناعة الدعاء:

جرت عادة بعض أئمة المساجد أن يأتي بأدعية يصوغها هو بنفسه، ويرتبها ترتيباً فيه كثير من التكلف في السجع، والتوسع في التفصيل والبسط لم يجر عليه عمل سلفنا الصالح، وهذا من التكلف المذموم شرعاً وإن أطرب أسماع

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦١٥).





العـوام، وأوجب لهم خشـوعاً، فإن وجد العوام ليس عياراً على الشـرع، بل السُّـنة قاضية على أهواء الجميع، والسـعيد من وسـعته السُّـنة واستحضر أن النبي ﷺ قد دلَّ الناس على أقصى ما يوجب الخشوع والبكاء.

قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «اعلموا – أرشدكم الله – أني رأيت كثيـراً من الناس يقصدون في الدعاء السـجع، وازدواج الألفاظ، ويذهبون مذاهـب الفصاحـة، والبراعة والتنطـع والفخامة، فيكون الدعاء مسـجوعاً موزونـاً يضاهي مكاتبات أهـل الدنيا التي يُقصد بها المباهـاة بين الأقران، والمباراة بين النظراء والكتاب، وهذا باب منهيٌّ عنه في الدعاء»[1].

وقـال ابن عبـاس رضي الله عنهما لمولاه عكرمة: «وإياك والسـجع في الدعاء فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون ذلك»[2].

فهـذا ابن عبـاس رضي الله عنهما يحكي هدي الرسـول ﷺ وأصحابه، ويُبيّن أنهم ما كانوا يتكلفون السـجع في دعائهـم، ولا يقصدون إلى ذلك. بـل وأخبرت عائشـة رضي الله عنهـا أن النبي ﷺ كان يُحـب الجوامع من الدعاء[3].

(١) الدعاء المأثور (ص١٣١).

(٢) رواه البخـاري، كتـاب الدعـوات، بـاب مـا يُكـره من السـجع فـي الدعـاء (ص١١٠٢ – رقم ٦٣٣٧).

(٣) رواه أبو داود كتاب الوتر، باب الدعاء (ص٢٢٠ – رقم ١٤٨٢)، وصحَّحه ابن حبان (٢/ ١١٤ – رقم ٨٦٤).




فالسُّنة أن تقصد الأدعية الجامعة الواردة في القرآن والسُّنة لا أن تتكلف صناعة أدعية مبالغ في صياغتها.

قال الخطابي رحمه الله: «ويستحب الاقتصار على جوامع الدعاء»[1].

وقال أيضاً: «ويُكره في الدعاء السجع، وتكلف صنعة الكلام له»[2].

وقال السفاريني رحمه الله في آداب الدعاء[3]: «أن يكون لفظ الدعاء غير متكلف بل عن حرقة واجتهاد، فإن المشغول يتسجيع الألفاظ وترتيبها بعيد عن الخشوع، نعم إن اتفق له ذلك من غير تكلف كقوله عليه السلام: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعْ، وَمِنْ عَيْنٍ لَا تَدْمَع**»».

❋ ❋ ❋

(١) شأن الدعاء (ص١٤).

(٢) شأن الدعاء (ص١٥).

(٣) غذاء الألباب (٢/ ٥١٤).




الدرس الرابع والعشرون
فقه تزاحم الطاعات

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يكون عليَّ الصوم من رمضان، فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان[1].

هذا حديث جليل من أحاديث الصيام، وفيه بيان ما كانت عليه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من كمال الفقه، وتلمحها لفقه تزاحم الطاعات، فإن قضاء الصيام واجب، وخدمة النبي ﷺ واجبة، فتزاحم عندها واجبان في حقها، لكنها رضي الله عنها لكمال فقهها اختارت تقديم خدمة النبي ﷺ، واعتذرت بذلك لتأخير قضاء صيام الفريضة إلى آخر وقته في شعبان، حيث قالت رضي الله عنها: «وذلك لمكان النبي ﷺ»، وهذا هو حقيقة الفقه، فليس الفقه فقط أن أعرف المعروف وأعرف المنكر، بل الفقه أن أُقدم أعرف المعروفين، وأحتمل أدنى المفسدتين لدفع أعلاها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فتفطّن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية، والمفاسد، بحيث تعرف ما مراتب المعروف، ومراتب المنكر، حتى تُقدم أهمها عند الازدحام، فإن هذا حقيقة العلم بما جاءت به الرسل، فإن التمييز بين جنس المعروف،

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب متى يُقضى قضاء رمضان (٣١٣ - رقم ١٩٥٠)، ومسلم، كتاب الصيام، باب جواز تأخير قضاء رمضان ما لم يجئ رمضان آخر (ص ٤٦٦ - رقم ٢٦٨٧).




وجنس المنكر، أو جنس الدليل، وغير الدليل، يتيسر كثيراً.

فأما مراتب المعروف والمنكر، ومراتب الدليل، بحيث يُقدم عند التزاحم أعرف المعروفين ويُنكر أنكر المنكرين، ويُرجح أقوى الدليلين، فإنه خاصة العلماء بهذا الدين»(١).

وحديث عائشة المذكور ليس هو الوحيد في تقرير هذا الفقه العظيم، فقه تزاحم الطاعات، فأدلة أصل هذا الموضوع المهم كثيرة جداً يستحضرها كل من له استقراء وعناية بأدلة الشرع ومقاصدها(٢).

من ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي: «**مَن شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعطَيتهُ خَيرَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»(٣).

ومن الأدلة كذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ: «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَم، وَلَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَم**»، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَإِنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «**انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ**»(٤).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٧٢).

(٢) وقد يسّر الله بفضله ومنّه وكرمه كتابة مصنف خاص في هذا الموضوع مطبوع بعنوان «فقه المفاضلة بين الطاعات».

(٣) رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن (ص٦٥٧ - رقم ٢٩٢٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا ذو محرم (ص٩٣٥ - رقم ٥٢٣٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (ص٥٦٦ - رقم ٣٢٧٢).



ومـن ذلـك قول علي بن أبـي طالب رضي الله عنه: «لـولا أن لا تبطروا لحدثتكم بما في قتال الخوارج من الأجر».

قـال الوزيـر ابـن هبيرة رحمه اللـه: «فيه مـن الفقه توفر الثـواب في قتل الخـوارج، وأنه بلغ إلـى أنه خاف علي رضي الله عنـه أن يبطر أصحابه إذا أخبرهـم بثوابهـم في قتلهم، وإنمـا ذكر هذا لئلا يرى أحـد في وقت ظهور مثلهـم أن قتال المشـركين أولى مـن قتالهم، بل قتالهم علـى هذا أولى من قتال المشـركين، لأن في ذلك حفظ رأس مال الإسـلام، وقتال المشركين هو طلب ربح في الإسلام»[1].

فانظـر إلـى تعليل هذا الجهبـذ في تقديم قتال الخـوارج على الكفار في حـال التزاحم حيث قال: «حفظ رأس مال الإسـلام، مقدم على طلب ربح في الإسلام».

وهكـذا أجوبـة أئمتنـا جاريـة علـى مراعـاة الأصـول العظيمة للشـرع، والمقاصد الكبيرة، وتقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة.

قيـل للإمـام أحمد بـن حنبل رحمـه اللـه[2]: «الرجـل يصـوم ويُصلّي، ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (١/ ٢٨٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨ - ٢٣١).






قال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه[1]، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل».

فتأمل هذا الجواب السديد من الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حيث قدَّم الرد على أهل الأهـواء والبدع والضلالات على صيام النافلة والاعتكاف، لأن ثمـرة الصيام والاعتكاف تعود على الصائم نفسـه، بينما ثمرة ردّ البدع تعود على عموم المسـلمين، لما فيه من صيانة أديانهم من البدع والأهواء، وذلـك أن البـدع يغترّ بها الناس ويعتقدون أنها من الدين، وهي تبعدهم من الله من حيث يظنون أنها تقربهم إليه.

وقال شـيخ الإسـلام ابن تيميّـة أيضاً: «مـن الحكايات المشـهورة التي بلغتنـا: أن الشـيخ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسـة معروفة من أبي الحسن الآمدي وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا»!!

الله أكبر! ابن الصلاح رحمه الله يرى أن انتزاع مدرسة من مبتدع أعظم من تحرير «عكا» من الكفار! لماذا؟

لأن المسـلمين يغتروّن بالمبتدع، وهو يُفسد قلوبهم ابتداءً، وهم يقبلون ذلـك، أما العـدو الخارجي فلا يلتبس على أحـد، ولا يزالون يقاتلونه، ولا يقبلون ما يأتي به، ولا يُفسد قلوبهم بسلاحه ابتداءً.

(١) قـال الحافـظ ابـن رجب الحنبلـي رحمه الله: «اللهـم إلا أن يحصل لأحد به اقتـداء في ذلك». جامع العلوم والحكم (١/ ٦٧).

قال أبو الفضل الهمذاني رحمه الله: «مبتدعة الإسلام والكذابون والواضعون للحديث أشدّ من الملحدين، لأن الملحدين قصدوا إفساد الدين من خارج وهؤلاء قصدوا إفساده من داخل، فهم كأهل بلد سعوا في فساد أحواله، والملحدون كالمحاصرين من خارج، فالدخلاء يفتحون الحصن فهم شرٌّ على الإسلام من غير الملابسين له»(١).

وقال محمد بن يحيى الذهلي: «سمعت يحيى بن معين يقول: الذبُّ عن السُّنة أفضل من الجهاد في سبيل الله، فقلت ليحي: الرجل ينفق ماله، ويتعب نفسه، ويجاهد، فهذا أفضل منه؟! قال: نعم، بكثير»(٢).

فكلمة الأئمة سواء في تقديم صيانة عقائد المسلمين وبيان السُّنة، والتحذير مما يضادها من الأهواء والبدع والضلالات على طاعات الإنسان النوافل في خاصة نفسه، وعلى جهاد الكفار.

وقال الحافظ النووي رحمه الله مقرراً تقديم ما تعدّى نفعه على ما كانت منفعته قاصرة على صاحبها ما نصه: «فهذه أحرف من أطراف ما جاء في ترجيح الاشتغال بالعلم على العبادة. وجاء عن جماعات من السلف ممن لم أذكره نحو ما ذكرته، والحاصل أنهم متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك

(١) الصارم المسلول (ص١٧١).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥١٨).

من نوافل عبادات البدن: ومن دلائله سوى ما سبق أن نفع العلم يعمّ صاحبه والمسلمين والنوافل المذكورة مختصة به، ولأن العلماء ورثة الأنبياء، ولا يُوصف المتعبدون بذلك: ولأن العابد تابع للعالم مقتدٍ به مقلد له في عبادته وغيرها واجب عليه طاعته ولا ينعكس؛ ولأن العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه والنوافل تنقطع بموت صاحبها؛ ولأن العلم صفة لله تعالى، ولأن العلم فرض كفاية - أعني العلم الذي كلامنا فيه - فكان أفضل من النافلة»(١).

وعلى هذا جرى تقرير سائر العلماء من ملاحظة ما تعدّى نفعه وتقديمه على المصلحة الخاصة، وكذلك ملاحظة سدّ الخلل فيما يحتاجه المسلمون فتكون العناية به أولى وأجدر.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «طلب العلم في هذا الزمان أفضل من سائر أنواع التطوع لأجل دروس السنن وخمولها، وظهور البدع واستعلاء أهلها»(٢).

وقال البغوي رحمه الله: «وفضل العلم على العبادة من حيث إن نفع العلم يتعدى إلى كافة الخلق، وفيه إحياء الدين، وهو تلو النبوة»(٣).

(١) المجموع شرح المهذب (١/ ٢٢).
(٢) شرف أصحاب الحديث (ص٨٦).
(٣) شرح السُّنة (١/ ٢٧٨).



وقـال الحافظ ابن رجـب الحنبلي رحمه الله: «ومما يـدلّ على تفضيل العلـم علي جميع النوافل أن العلم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرقة، فالعلم أفضل أنواع الذكر، وهو أفضل أنواع الجهاد»[1].

وقـال أيضـاً: «وقد نـصَّ الأئمة الأربعـة على أن طلب العلـم أفضل من صـلاة النافلة، والصلاة أفضل من الصيـام المتطوع به، فيكون العلم أفضل مـن الصيام بطريـق الأولى، فإن العلم مصباح يُسـتضاء به في ظلمة الجهل والهوى، فمن سـار في طريق على غير مصبـاح لم يأمن أن يقع في بئر بوار فيعطب»[2].

فلابـد للعلماء مـن النطق بما يحتاجـه وقتهم مما انـدرس علمه أو تغيّر رسـمه، قال أبو تراب النخشبي رحمه الله[3]: «إن الله ينطق العلماء في كل زمان بما يشاكل أعمال أهل ذلك الزمان».

فالحاجة داعية إلى بيان الفاضل من المفضول في العبادات والطاعات، حتى تُقدم الأحب إلى الله.

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ) مبيِّناً عقبات الشيطان[4]:

---

(١) شرح حديث أبي الدرداء (ص٣٠٢).
(٢) لطائف المعارف (ص١٣٠).
(٣) مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار (١/ ٣١٣).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٢٥).




«العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسّنها في عينه، وزيّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسباً وربحاً، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرءوسها، وسيدها ومسودها، فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً، ورئيساً ومرءوساً، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت» الحديث، وفي الحديث الآخر «**الجهاد ذروة سنام الأمر**» وفي الأثر الآخر «إن الأعمال تفاخرت» فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه».





ومعرفة أسرار العبادات مما يعين على معرفة الفاضل من المفضول منها.

فكلما كانت العبادة أقرب إلى تحقيق كمال العبودية والتذلل لله، وحصول العلم بأسمائه وصفاته، ومناجاته وتفويض الأمر إليه، والاستعانة والتوكل عليه كانت أحب إلى الله.

قال ابن القيم رحمه الله(١): «فكل عمل كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه، وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذي خلق له فهو أشرف مما دونه، وكذلك الأعمال، فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره، ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال، وأفضلها لقرب إفضائها إلى المقصود، وهكذا يجب أن يكون، فإن كل ما كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها.

فالعمل المعدّ للقلب المهيء له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك.

وإذا اشتركت عدة أعمال في هذا الإفضاء فأفضلها أقربها إلى هذا المفضي، ولهذا اشتركت الطاعات في هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله، واشتركت المعاصي في حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهيّاً عنها، وتأثير الطاعات والمعاصي بحسب درجاتها».

(١) عدة الصابرين (ص١٨٣).



والجهاد من أفضل الأعمال؛ لأنه دالّ على محبة الله - تبارك وتعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة[1]: «فجعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول ﷺ، والجهاد في سبيله».

وقال[2]: «فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله ﷺ في قلبه، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال المكروهات»، وهذا واضح بيّن كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال أيضاً:[3] «والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه؛ ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤]».

ففقه المزاحمة بين الواجبات فقه مهم جدير بالعناية، لحفظ الحقوق والقيام بأوجبها في حال التزاحم، ويدل عليه أيضا حديث الرجل الذي قال للنبي ﷺ: «إِنِّي اكْتَتَبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، وَإِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّة، فقال له النبي ﷺ: «اذْهَبْ فَحُجّ مَعَ امْرَأَتِكَ»[4].

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٩١).
(٢) المصدر السابق (١٠/ ١٩٣).
(٣) المصدر السابق (١٠/ ٢١٠).
(٤) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا ذو محرم (ص٩٣٥ - رقم ٥٢٣٣)، ومسلم، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى الحج وغيره (ص٥٦٦ - رقم ٣٢٧٢).

فبعـض الشـباب المتحمس يرى أن الشـهادة هي أقصى مـا يتمناه، وأن درجة صاحبه أعلى الدرجات.

وهذا الكلام لا يخلوا من حماسة وتنقصه مراعاة أحوال الزمان والرجال.

كما تنقصه سبر الأدلة، والوقوف على تقريرات العلماء.

فعن عبيد بن خالد - وكان من أصحاب النبي ﷺ - قَالَ: «آخَى النَّبِيّ ﷺ بينَ رَجُلَينِ فَاستُشْهِدَ أحدهمَا، وَبَقِيَ الآخر بَعْدَهُ عَاماً، ثُمَّ مَاتَ فاتَّبعنَا جَنَازَته، وَمَعْنَا نَبِيّ الله ﷺ، فَجعلَنَا نَدْعُو اللهَ وَنَرغبُ إليهِ أَنْ يُلحقهُ بِصَاحِبِهِ»!

فقـال النبـي ﷺ: «**أيهما تعدُّون أفضـل؟**» فقلنا: الله ورسـوله أعلم! ثم قلنا: الشـهيد أفضلهمـا! فقال النبي ﷺ: «**ألا تعدون لهـذا فضيلته: صلاته، وعمله بعد عمله! لما بينهما أبعدُ مما بين السماء والأرض**»[1].

فهـذان رجلان كل واحد منهما قضى نحبه، ووافى ربه بأعمال صالحة، ومنزلة من قُتل شـهيداً في سـبيل الله دون منزلة الآخر الـذي عمّر أكثر منه بعام فقط ومات على فراشه.

قـال أبو جعفـر محمد بن جرير الطبـري (ت: ٣١٠)[2]: «وَالَّذِي فِيهِ من

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٦٣)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٨٣٨)، وابن ماجه (٢٩٨٢ - ٣٩٢٥)، وصحَّحـه ابن حبان، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩).

(٢) تهذيب الآثار (الجزد المفقود) (ص٣٧٢ - ٣٧٣).




ذَلِـك: الْإِنَابَة عَن فضل صَالح الْأَعْمَال، وَأَن الْفَاضِل من النَّاس إِنَّمَا يفضل غَيره بِفضل زِيَادَة أَعماله الصَّالِحَة على عمل من فَضله. وَذَلِكَ أَن النَّبِي ﷺ لما ذكر لَهُ أَمر الرجلَيْن اللَّذين اسْتشْـهد أَحدهمَا، وعاش الآخر بعده سـنة، قَـالَ فِي الَّـذِي عَاشَ بعد صَاحبه: «**أَلَيْسَ قـد أدْرك رَمَضَان وصامه، وَصلى كَذَا وكَذَا سَجْدَة**» فَلَمَّا قَالُوا لَهُ: بلَى قَالَ: «**فَلَمَّا بَينهمَا أبعد مِمَّا بَين السَّمَاء وَالْأَرْض**» وَذَلِكَ من قَوْله ﷺ نَظِير الْأَخْبَار الْوَارِدَة عَنهُ: أَنه قَالَ: إِذْ قيل لَهُ: أَي النَّاس خير؟ قَالَ: «**من طَال عمره وَحسن عمله**»».

وقـال أبو داود فـي إبراهيم بن طهمان[1]: «ثقة من أهل سـرخس، خرج يريـد الحج، فقدم نيسـابور، فوجدهم على قول جهم، فقـال: الإقامة على هؤلاء أفضل من الحج، فأقام فنقلهم من قول جهم إلى الإرجاء»[2].

وقـال المـروذي: قيل لأبـي عبدالله رجل له خمسـمائة درهـم ترى أن يصرفه في الغزو والجهاد أو يطلب العلم؟ قال: إذا كان جاهلاً يطلب العلم أحب إليّ[3].

قال ابن القيم رحمه الله[4]: «فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهـم وهم خلفاء الرسـل في أممهم والناس تبعٌ لهم والله سـبحانه قد

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٣٨٠).
(٢) مـراده بالإرجـاء هو أنه يرجو لأهل الكبائر الغفران، ردّاً على الخوراج وغيرهم، الذين يُكفِّرون الناس.
(٣) الآداب الشرعية (٢/ ٤٠).
(٤) جلاء الأفهام (ص ٥٨٢).





أمـر رسـوله ﷺ أن يُبلغ ما أنـزل إليه وضمن له حفظـه وعصمته من الناس وهكـذا المبلغـون عنه من أمته لهم مـن حفظ الله وعصمته إياهم بحسـب قيامهم بدينه وتبليغهم لهم وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية ودعا لمن بلَّغ عنه ولو حديثاً، وتبليغ سـنته ﷺ إلى الأمة أفضل من تبليغ السـهام إلى نحـور العـدو؛ لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السـنن فلا يقـوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهـم جعلنا الله تعالى منهم بمنِّه وكرمه».

وقال تقي الدين ابن دقيق العيد رحمه الله[١]: «القياس يقتضي أن الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل، فإن العبادات على قسمين: مقصود لنفسه، ووسـيلة إلى غيره، وفضيلة الوسيلة بحسب فضيلة المتوسل إليه، والجهاد وسـيلة إلى إعلان الدين ونشـره وإخمال الكفر ودحضه، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك».

وابـن بطال لما سـاق قوله ﷺ، فـي جوابه لما سـئل: أي الناس أفضل؟ فقـال،: «مؤمن يجاهد في سـبيل الله» عقّب بقولـه[٢]: «ليس على عمومه، ولا يريد أنه أفضل الناس قاطبة؛ لأن أفضل منه من أوتي منازل الصديقين، وحمل الناس على شرائع الله وسنن نبيه ﷺ، وقادهم إلى الخيرات، وسبّب لهم أسباب المنفعة في الدين والدنيا، لكن إنما أراد، - والله أعلم - أفضل

(١) شرح العمدة بواسطة طرح التثريب (٧/ ١٩٣ - ١٩٤).
(٢) شرح صحيح البخاري (٥/ ٧-٨).



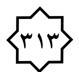

عامـة الناس؛ لأنـه قد يكون في خاصتهـم من أهل الديـن والعلم والفضل والضبط بالسنن من هو أفضل منه».

وقـال ابـن مفلح رحمـه اللـه[1] «وواجـب على الإمـام أن يتعاهـد المعلم والمتعلم كذلك ويرزقهما من بيت المال؛ لأن في ذلك قواماً للدين، فهو أولى من الجهاد؛ لأنه ربما نشأ الولد على مذهب فاسد فيتعذر زواله من قلبه».

وقيـل للإمام مالك رحمه الله: «الغزو أحب إليك أم الحج؟ قال: الحج إلا أن يكون سنة خوف»[2]، وتبعاً لذلك وجَّه عز الدين ابن جماعة الكناني (ت: ٧٦٧هـ) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: سـئل رسـول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «إيمانٌ بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[3] بقوله[4]: «وعلى هذا فقيل: الحديـث محمـول على مـا إذا تعيّن الجهاد، أو يكون جواباً في حق سـائل لفرط شجاعته».

وقال الإمام الشافعي رحمه الله[5]: «ليس بعد الفرائض شيء أفضل من طلب العلم، قيل له: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله».

(١) الآداب الشرعية (٢/ ٤٧).
(٢) هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك (١/ ٨).
(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من قال: إن الإيمان هو العمل (ص٧ - رقم ٢٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان أفضل الأعمال (ص١٥ - رقم ٢٤٨).
(٤) هداية السالك (١/ ٨).
(٥) المدخل إلى السنن (ص٣١٠ - رقم ٤٧٥).






وقال ابن المبارك لأصحابه وهو في الغزو: هل تعلمون عملاً أفضل من هـذا؟ قالوا: لا نعلمه، قال: بلى أنا أعلمه، رجل متعفف محترف أبو عيال، قام من الليل، فوجد صبيانه مكشفين فغطَّاهم، وثار إلى صلاته[(١)].

وقال الحسـن البصري رحمه الله[(٢)]: «ما من شـيء مما خلق الله أعظمُ عند الله في عظيم الثواب من طلب علم، لا حج، ولا عمرة، ولا جهاد، ولا صدقـة، ولا عتق، ولـو كان العلمُ صورة لكانت صورته أحسـن من صورة الشمس والقمر والنجوم والسماء والعرش».

وقـال أبو هريرة رضي الله عنه[(٣)]: «لأن أعلم باباً من العلم في أمر ونهي أحبُّ إليَّ من سبعين غزوة في سبيل الله».

وعـن يحيى بن أبي كثير عن الأزدي قال: سـألت ابـن عباس رضي الله عنهمـا عن الجهاد فقال: ألا أدلّك على خير من الجهاد؟ فقلت: بلى، قال: تبني مسجداً وتُعلم فيه الفرائض والسُّنة والفقه في الدين[(٤)].

قـال ابن بطال[(٥)]: «وكان طاوس يرى السـعي علـى الأخوات أفضل من الجهاد في سـبيل الله»، وهذا كله حيث كان الجهاد نافلة وإلا فلا يمكن أن

(١) شرح حديث جبريل لشيخ الإسلام (ص٦١٠).
(٢) ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء، جامع رسائل ابن رجب (١/ ٣٦).
(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ١٦).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (ص٦٠، ص١٠٥).
(٥) شرح صحيح البخاري (٩/ ١٩٢).




يُزاحم الفرائض، وعاب إبراهيم بن أدهم على سفيان ترك الغزو، وقال: هذا الأوزاعي غزا وهو أسنّ منه، فقال الخريبي: فقلت لبهيم: ما كان يعني سفيان في ترك الغزو؟ قال: كان يقول: إنهم يُضيِّعون الفرائض[1].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لحقت بالله: لولا أن أسير في سبيل الله، أو أضع جبهتي في التراب ساجداً، أو أجالس قوماً يلتقطون طيب الكلام كما يُلتقط طيب الثمرة».

وعلّق عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله[2]: «وكلام عمر رضي الله عنه من أجمع الكلام وأكمله، فإنه ملهم محدّث، كل كلمة من كلامه تجمع علماً كثيراً، مثل هؤلاء الثلاث التي ذكرهن؛ فإنه ذكر الصلاة والجهاد والعلم، وهذه الثلاث هي أفضل الأعمال بإجماع الأمة، قال أحمد بن حنبل: أفضل ما تطوع به الإنسان الجهاد، وقال الشافعي: أفضل ما تطوع به الصلاة. وقال أبو حنيفة ومالك: العلم. والتحقيق أن كُلّاً من الثلاثة لابد له من الآخرين، وقد يكون هذا أفضل في حال، وهذا أفضل في حال، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه يفعلون هذا وهذا وهذا، كل في موضعه بحسب الحاجة والمصلحة، وعمر رضي الله عنه جمع الثلاث».

وقال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[3]: «التحقيق أن

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦٩).

(٢) منهاج السنة (٦/ ٧٥).

(٣) وصايا وتوجيهات لطلبة العلم (١/ ١٤١).



يقـال: قد يكون الجهاد في سـبيل الله لبعض النـاس أفضل، والعلم لبعض الناس أفضل.

فإذا وجدنا رجلاً قوي الحفظ قوي الفهم نشـيطاً في طلب العلم، ولكنه في الجهاد ضعيف جبان.

ووجدنـا آخر قوي البدن شـجاعاً مقدامـاً لكنه في الحفـظ والفهم دون ذلك، **فالأول** نقول: العلم في حقه أفضل.

والثانـي: نقول: الجهـاد في حقه أفضـل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: ١٣٢]».

فشـيخنا رحمـه الله جعـل المفاضلة باعتبـار الأشـخاص، وغيره جعل المفاضلة باعتبار الزمان، قال تقي الدين أحمد بن المقريزي (ت:٨٤٥)[١]: «أفضـل العبادة: العمل على مرضاة الرّب - سـبحانه وتعالى -، واشـتغال كل وقـت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهـاد: الجهـاد، وإن آل إلى تـرك الأوراد من صلاة الليـل وصيام النّهار، بـل من تـرك إتمام صلاة الفـرض كما في حالة الأمـن. والأفضل في وقت حضـور الضّيـف: القيام بحقّه والاشـتغال به. والأفضل في وقت السّـحر: الاشـتغال بالصـلاة والقرآن والذّكـر والدّعاء. والأفضل فـي وقت الأذان: ترك ما هو فيه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن».

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص٤٣ - ٤٤).




وقال ابن بطال رحمه الله أيضاً[1]: «إلا أن طلب العلم ينبغي أن يكون أفضل من الجهاد وغيره؛ لأن الجهاد لا يكون إلا بعلم حدوده وما أحل الله منه وحرم، ألا ترى أن المجاهد متصرف بين أمر العالم ونهيه، ففضل عمله كله في ميزان العالم الآمر له بالمعروف والناهي له عن المنكر والهادي له إلى السبيل، فكما أن أجر المسلمين كلهم مذخور للنبي ﷺ من أجل تعليمه لهم وهدايته إياهم سبيل العلم، فكذلك يجب أن يكون أجر العالم فيه أجر من عمل بعلمه».

وحقيقة هذا التفضيل إنما هو بالنسبة لمن عنده علم، أو عنده قابلية واستعداد لطلب العلم، فالطاعة المعيّنة قد تكون هي أفضل في نفسها، لكنها بالنسبة للبعض قد يكون الأفضل في حقه هو المفضول في ذاته.

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[2]: «وها هنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أنه قد يكون العمل المعيّن أفضل منه في حق غيره، فالغني الذي بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة.

والشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته، وقوفه في الصف ساعة، وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع.

(١) شرح صحيح البخاري (٥/ ٤٩ - ٥٠).
(٢) عدة الصابرين (ص١٨٣ - ١٨٥).



والعالـم الـذي قد عرف السُّـنة والحـلال والحرام وطرق الخير والشـر مخالطتـه للناس وتعليمهم، ونصحهم فـي دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح.

وولي الأمر الذي قد نصبه الله للحكم بين عباده جلوسه ساعة للنظر في المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم، وإقامة الحدود، ونصر المحق وقمع المبطل أفضل من عبادة سنين من غيره.

ومـن غلبـت عليه شـهوة النسـاء فصومه له أنفـع وأفضل مـن ذكر غيره وصدقتـه، وتأمل تولية النبي ﷺ لعمـرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي اللـه عنهمـا وغيرهما من أمرائه وعماله وترك تولية أبـي ذر رضي الله عنه، بل قال له: «**إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم**»، وأمره وغيره بالصيام وقال: «**عليك بالصوم فإنه لا عـدل له**»، وأمر آخر بأن لا يغضب وأمر ثالثاً بأن لا يزال لسـانه رطباً من ذكر الله، ومتى أراد الله بالعبد كمالاً وفقه لاسـتفراغ وسعه فيما هو مستعد له قابلٌ له قد هُيء له، فإذا استفرغ وسعه على غيره فاق الناس فيه».

وقـال أبـو العبـاس القرافـي رحمـه اللـه (ت: ٦٨٤هـ) فـي المفاضلة بيـن الجهاد وطلـب العلم[1]: «تفضيـل العلماء على الشـهداء كما جاء في الحديـث: «**ما جميـع الأعمال في الجهـاد إلا كنقطة في بحـر، وما الجهاد**

(١) الفروق (٢/ ٣٧٥).




وجميع الأعمال في طلب العلم إلا كنقطة في بحر»، وفي حديث آخر: «**لو وُزن مداد العلماء بدم الشهداء لرجح بسبب طاعة العلماء لله تعالى**» بضبط شرائعه وتعظيم شعائره التي من جملتها الجهاد وهداية الخلق إلى الحق وتوصيل معالم الأديان إلى يوم الدين، ولولا سعيهم في ذلك من فضل الله تعالى لا نقطع أمر الجهاد وغيره ولم يبق على وجه الأرض من يقول: الله، وكل ذلك من نعمة الله عليهم».

وقال مسروق رحمه الله[(١)]: «لأن أقضي يوماً بحق أحبُّ إليَّ من أن أغزو سنة في سبيل الله عز وجل»

قال والدنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله مبيِّناً عظم خطر الغزو الفكري[(٢)]: «إن العلم نوع من الجهاد في سبيل الله؛ لأن طالب العلم يحاجُّ أعداء الشريعة بالحق ليدحض به باطلهم، وأحياناً يكون الغزو الفكري أعظم فتكاً من الغزو المسلح كما هو مشاهد، فإن الغزو الفكري يدخل كل بيت باختيار صاحب البيت بدون أن يجد معارضة أو مقاومة، لكن الغزو العسكري لا يدخل البيت، بلا ولا يدخل البلد إلا بعد قتال مرير ومدافعة شديدة، فأعداء المسلمين يتسلطون عليهم - أحياناً - بالغزو المسلح؛ لأنه يصيب المسلمين في قعر بيوتهم ولا يعلمون به، ربما يخرجون من الإسلام

(١) طبقات ابن سعد (٦/ ٨٢)، ومصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٥٤٠)، وتاريخ ابن أبي خيثمة (٣/ ١٣٣ - رقم ٤١٣٦)، سنن البيهقي (١٠/ ٨٩).
(٢) تفسير صورة الصافات (ص٣٧ - ٣٨).



ويُمسـح الإسلام من أفئدتهم مسحاً كاملاً، وهم لا يشعرون، لأنهم يغرّون المسلمين بالشهوات، والقلب إذا انغمس بالشهوات نسي ما خُلق له، نسي عبـادة الله، ولـم يكن في قلبه تعلق بالله عز وجل، فتجد الإنسـان في حال قيامـه وقعـوده وذهابـه ومجيئه لا يفكر إلا بهذه الشـهوات، ولا يسـعى إلا لهذه الشهوات، وكأنه لم يُخلق لغيرها.

كذلك يُغذون في نفوس الضعفاء تعظيم هؤلاء الكفار، وأنهم أكثر تقدماً وأشد حضارة وأقوم طريقاً وما شابه ذلك.

فينصهر المسـلم في حرائق هؤلاء القوم، وهذا لا شك أنه موجود، وأنه كثيراً من البلاد الإسـلامية زالت معنوياتها وهلكت شـخصيتها بسبب هذا الغزو الفكري.

إنهم لو غزوا البلاد الإسـلامية غزواً عسـكريّاً لحلَّوا بأبدانهم البلاد، ولكن قلـوب النـاس نافـرة مبغضة لهـم، لكن المشـكل أن يغـزوا النـاس بصفاتهم وأخلاقهم وعقائدهم وهم جالسـون في بيوتهم قد فتحوا لهم القلوب هذا هو المشـكل، وهذا هـو الدمار، ولهذا كان الغزو بالسـلاح العلمي المسـتمد من كتاب الله تعالى وسُـنَّة رسـوله ﷺ مسـاوياً إن لـم يكن أنفع وأبلـغ من الغزو العسـكري، فأنـا أحثكم - بارك الله فيكم - وأحث نفسـي علـى أن نعد العدّة لمكافحة أعدائنا الذين يريدون أن يغزونا في بيوتنا بأفكارهم الخبيثة وأخلاقهم




الملوثـة، وبأفكارهـم المنحرفـة حتى نحمي المسـلمين من شـرّ هؤلاء؛ لأن سلاحهم أعظم فتكاً وأشد من سلاح الحديد والنار، كما هو ظاهر».

وفي باب المفاضلة بين الطاعات تحدّث العلماء عن فضيلة الشـيء في نفسـه وفضيلتـه باعتبار أمـور عارضة، قال ابـن القيم رحمه اللـه[1]: «قراءة القـرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر إلى كل منهما مجرداً.

وقـد يعرض للمفضول مـا يجعله أولى من الفاضل، بل يُعيِّنه، فلا يجوز أن يُعْدل عنه إلى الفاضل، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود، فإنه أفضل مـن قراءة القرآن فيهمـا منهي عنها نهي تحريم أو كراهة، وكذلك التسـبيح والتمجيد في محلهما أفضل من القراءة،...، وكذلك إجابة المؤذن والقول كمـا يقول أفضل مـن القراءة، وإن كان فضل القـرآن على كل كلام كفضل الله على سـائر خلقه، لكن لكل مقام مقـال، متى فات مقاله وعُدِلَ عنه إلى غيره اختلت الحكمة، وفاتت المصلحة المطلوبة».

ثم قال[2]: «وكذلك أيضا قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر لم يَحْضُر قلبه فيها، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء لها اجتمع قلبه كله على الله تعالى، وأحدث له تضرعا وخشوعا وابتهالا، فهذا

(١) الوابل الصيب ص ٢٣١.
(٢) الوابل الصيب ص ٢٣٢.



قـد يكون اشـتغاله بالدعاء - والحالة هذه - أنفـع، وإن كان كلٌّ من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجرا.

وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفس، وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وفضيلته العارضة، فيُعطى كل ذي حق حقه، ويوضع كل شيء موضعه».

❊ ❊ ❊




الدرس الخامس والعشرون
فـقــه الـمـنـاظـــرة

روى البخاري في «صحيحه» من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج ليُخبر أصحابه بليلة القدر فتلاحى رجلان فرفعت.

فهذه الملاحاة وقعت من الصحابة في شهر رمضان، وكانت سبباً لنسيان العلوم، فحينئذٍ ونحن نستلهم دروس رمضان يتعين علينا أن نتكلم عن أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة.

والجدال أدلة مشروعيته متنوعة الكتاب، والسنة، والإجماع، وشريعة من قبلنا.

وأدلة القرآن كثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أخبر سبحانه أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلا جاءه الله بالحق، وجاءه من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيراً وكشفاً وإيضاحاً للحق من قياسهم»(١).

وكذلك أثنى الله على من أخذ بمجامع الحجة وهو دليل على مشروعية المناظرة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ

(١) نقص المنطق (ص٨٩).





﴿دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: ٨٣]، ذكر الله أنواعا من المناظرات والمجادلات في القرآن كمناظرة إبليس، ومناظرة الملائكة، قال القرطبي رحمه الله: «فالقرآن مملوء من حكاية المناظرات والمحاورات، وهذا كله تعليم من الله عز وجل المجادلة في الدين»[(١)].

كذلك نجد القرآن مليء بذكر الحجج والأدلة والبراهين في تقرير الحقائق والعقائد والأحكام في صورة مناظرات، وهذا تأصيل لقواعد هذا العلم، قال ابن القيم رحمه الله: «وإذا تأملت القرآن وتدبَّرته وأعرته فكراً وافياً اطلعت فيه من أسرار المناظرات وتقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشبه الفاسدة وذكر النقض والفرق والمعارضة والمنع على ما يشفي ويكفي لمن بصَّره الله وأنعم عليه بفهم كتابه»[(٢)].

وكذلك جاء الأمر صراحةً في القرآن بالمجادلة بالحسنى، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥]، قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «فأمر الله رسوله ﷺ في هذه الآية بالجدال، وعلَّمه منها جميع آدابه من الرفق والبيان والتزام الحق والرجوع إلى ما أوجبته الحجة»[(٣)].

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ٢٨٦).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٠).
(٣) الفقيه والمتفقه (١/ ٢٣٢).




والسُّـنة بأنواعها الثلاث: القوليـة، والفعليـة، والإقراريـة دلت على مشـروعية المناظـرة، أمـا مـن السُّـنة القولية فعـن أنس بـن مالك رضي اللـه عنـه أن النبـي ﷺ قـال: «**جَاهِـدُوا الْمُشْـرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ وَأَلسِنَتِكُمْ**»[1].

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله: «وهذا حديث في غاية الصحة، وفيه الأمر بالمناظرة، وإيجابها كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله»[2].

وأما السُّـنة الفعليـة فهي واضحة في وقـوع المناظرات منـه؛: فقد ناظر النبي ﷺ اليهود والنصارى، وناظر مشـركي قريـش في حل بهيمة الأنعام، وناظر عبدالله بن الزبعرى، وناظر ابن صياد، كذلك ناظر النبي ﷺ أصحابه في صلح الحديبية.

وكذلك سـنته ﷺ الإقرارية ثبت بها وقوع المناظرة من أصحابه رضوان الله عليهم بحضرته، فقد تجادل أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما بحضرة النبي ﷺ فيمن يجب تأميره على ركب بني تميم[3].

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٤)، والنسـائي (٦/ ٧)، وأبو داود (٣/ ٢٢) كلهم من طريق حماد بن سـلمة عـن حميد عن أنس بـه. قال ابن عبدالهادي فـي المحرر في الحديث (٢/ ٤٣٩): إسـناده على شرط مسلم.
(٢) الأحكام في أصول الأحكام (١/ ٢٧).
(٣) رواه البخـاري، كتاب التفسـير، بـاب {إن الذين ينادونك من وراء الحجـرات أكثره لا يعقلون} (٨/ ٥٩٢- رقم ٤٨٤٧).





وأما الإجماع فقد حكاه أكثر من عالم، فقد قال الخطيب البغدادي رحمه الله عن المجادلة بالحسنى: «وقد وجدنا الأمة متفقة على حسن المناظرة»(١).

وشريعة من قبلنا شاهدة كذلك بأن النبيين جميعاً وقعت منهم المناظرات، وهذا واقع ضرورةً لكل صاحب رسالة يجادل خصومه، فلابد أن يردهم إلى الحق، وأن يدفع عن الحق.

فآدم تجادل مع موسى، في القدر، وهذا نوح، بالغ في جدال قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، حتى قالوا له: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا ﴿٣٢﴾﴾ [هود: ٣٢]، وكذلك ناظر إبراهيم، عبّاد الكواكب، وامتدح الله حجته وبيّن أنها ربانية، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣]، وكذلك ناظر إبراهيم، النمروذ في توحيد الربوبية، وكذلك ناظر موسى، فرعون.

والصحابة كذلك مجمعون على المناظرة، ومناظراتهم كثيرة ومشهورة معلومة، فقد تناظروا في سقيفة بني ساعدة فيمن يلي الخلافة بعد النبي ﷺ، وتناظر أبو عبيدة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في القدر، وناظر عثمان بن عفان رضي الله عنه الخارجين عليه المبتغين

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٢).






لقتلـه، وكذلك تناظر معاوية مع أبـي ذر رضي الله عنهما في كنز المال، وتناظـر الصحابـة في جمع القرآن فـي مصحف واحـد، وتناظر أبو بكر الصدّيـق مع عمر بـن الخطاب رضي الله عنهما في قتـال مانعي الزكاة، وتناظـر ابـن عباس رضي الله عنهما مع أبي سـعيد الخـدري رضي الله عنه في ربا الفضل، وتناظر ابن عباس رضي الله عنهما مع معاوية رضي اللـه عنـه في اسـتلام الركنين الشـاميين، إلى غير ذلك ممـا لا يأتي عليه الحصر.

قـال ابن حـزم رحمه الله: «ومـا أنكر قط أحد من الصحابـة الجدال في طلب الحق»[١].

وقـال ابن القيم رحمـه الله: «وهذه مناظرات رسـول الله ﷺ وأصحابه لخصومهـم وإقامـة الحجـج عليهـم، لا يُنكـر ذلـك إلا جاهـل مفرط في الجهل»[٢].

وهـذه الأدلـة المتنوعة الكثيرة التـي ذكرناها هي في الجـدال المحمود الـذي فيه إقامة الحجـج بأوضح البراهيـن، ومجادلة الخصوم بالحسـنى، والنية فيه صالحة وهو إظهار الحق لا طلب المغالبة.

(١) الإحكام (١/ ٢٨).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٦).



وهنا لابد من الإشارة إلى فوائد الجدل المحمود، وهي كثيرة من أهمها:

١ - تمييز الحق من الباطل: فالمناظرة يحصل بسببها المقابلة بين الأقوال، وتمحيص الأدلة ومناطها، ويتبين بسبب ذلك أرجح القولين.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «الأدلة إنما وضعت ليستبين الصواب، وقد كان مقصود السلف المناصحة والحق»(١).

٢ - تنشيط الذهن: فقه المناظرة وإيراد الأدلة ودلالاتها ومعارضة الأقوال تُنشّط الذهن، قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «رأيت المناظرة تلقيحاً لألبابهم»(٢).

وقال ابن عقيل الحنبلي رحمه الله: «فالجدل يشحذ ويرهف ويثير الخواطر، ويُخرج الدقائق، وكل ذلك آلة لإدراك العقل للحق»(٣).

٣ - مذاكرة العلم: المناظرة نوع من مذاكرة العلم، لما فيها من سرد الأدلة وتحرير دلالتها، وكان الإمام أحمد رحمه الله يُذاكر أصحابه، بل وتلاميذه بهذه الطريقة، فقد كان الإمام أحمد يقول للميموني في أجوبته لبعض مسائله: «لا تكتب، تعال حتى تناظر»(٤).

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٢٠).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٧٢).
(٣) الواضح في أصول الفقه (١/ ٥٢١).
(٤) تهذيب الأجوبة (ص١٠٩).




٤ - **كـفّ عـدوان المبطليـن**: أهـل الباطـل يلقـون بالشـبه علـى الناس ليجتذبوهم إلى أهوائهم وضلالاتهم وباطلهم، فقيام أهل الحق بمناظرتهم ورد شبههم يحصل بذلك كف عدوانهم وصيانة أديان الناس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فمن كان عالماً بالحق فمناظرته المحمودة أن يبيّن لغيره الحجة التي تهديه إن كان مسترشداً طالباً للحق إذا تبيـن لـه، أو يقطعه ويكـفّ عدوانـه إن كان معانداً غير متبع للحـق إذا تبين لـه، ويوقفه ويسـلكه ويبعثه علـى النظر في أدلة الحـق إن كان يظن أنه حق وقصده الحق»(١).

٥ - **شحذ الهمة للاستزادة من العلم**: طالب العلم الحريص تراه يجتهد فـي تقصي أدلة الشـرع ومعرفة ما يضادها وطرق نقضهـا خصوصاً إذا كان يجلس لنشـر العلم، أو يقوم بواجب صيانة الشريعة من الأهواء، فهذا يُهيج الحرص لديه لمعرفة الحق على سبيل الاستقصاء.

قـال الراغـب الأصفهاني فـي فوائد المناظـرات: «يثير الأنفـة لاقتباس العلم»(٢).

٦ - **التـدرب على مآخذ الأحكام**: المناظرات لاشـك أنها تُدرّب طالب العلم على معرفة مواقع الخلاف، وتمييز الأدلة وتحرير مواضع النزاع، وبيان وجه الدلالة من الأدلة على الأحكام، وهذا من أعظم ثمرات المناظرات.

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ١٦٧).
(٢) الذريعة (ص٢٥٩).



قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «ومناظرة الأكفاء ومعاشرة النظراء تلقيح للعقول، وتهذيب للنفوس، وتدريب لمآخذ الأحكام»(١).

٧ – **ظهور الدين والإيمان**: إذا عارض أهل الباطل أهل الحق، فإن ردود أهل الحق سبب لظهور الحقائق وكشف التلبيسات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فَالْحَقُّ كَالذَّهَبِ الْخَالِصِ، كُلَّمَا امْتُحِنَ ازْدَادَ جَوْدَةً، وَالْبَاطِلُ كَالْمَغْشُوشِ الْمُضِيءِ، إِذَا امْتُحِنَ ظَهَرَ فَسَادُهُ، فَالدِّينُ الْحَقُّ كُلَّمَا نَظَرَ فِيهِ النَّاظِرُ، وَنَاظَرَ عَنْهُ الْمُنَاظِرُ، ظَهَرَتْ لَهُ الْبَرَاهِينُ، وَقَوِيَ بِهِ الْيَقِينُ، وَازْدَادَ بِهِ إِيمَانُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْرَقَ نُورُهُ فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ»(٢).

٨ – **التحرر من التقليد**: المقلد يأخذ قول غيره من غير حجة، ومثل هذا المنهج يُعطّل البحث والنظر، بل ويُلغي عقل صاحبه، قال ابن حزم رحمه الله: «المقلد راض أن يغبن عقله»(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن التقليد لا يُورث إلا بلادة»(٤).

---

(١) سراج الملوك (ص١٥٠).
(٢) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ١٥).
(٣) مداواة النفوس (ص٧٤).
(٤) منهاج السنة (٥/ ٢٨١).



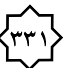

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «فاحرص يا أخي على معرفة المسائل بأدلتها ومآخذها، والمقابلة بين الأقوال الخلافية، واستوعب كل دليل قيل فيها، فبذلك ترتقي إلى درج ومعارف وعلوم لا يُوصل إليها إلا بهذا الطريق»[1].

٩ - **فهم العلوم**: بالمناظرات تتسع معارف طالب العلم، ويصير قادراً على ترتيب مقدمات العلوم منتظمة، ويكون مميّزاً بين الحقائق والمغالطات، ولديه ميزان عادل يزن به العلوم، ويغوص في بحارها ملتقطاً دررها بثبات ورسوخ على بصيرة وهدى ودراية.

قال بعض المتأخرين في ابتداء علم النظر: «وما زال هذا العلم إذا وقف الإنسان منه على بعضه انفتح له ما وراء ذلك كالإنسان الذي يرى قصراً على بعد فيأتيه فيرى من قربه ما لم يكن يرى من بُعده، وكذلك إن تهيأ له في الدخول إليه»[2].

١٠ - **إثراء في التأليف**: المناظرات لا تنتهي ذيولها أحياناً عند ما جرى مشافهةً في مجلس المناظرة، فقد يستتبع ذلك تأكيد الحق ونشره بأسباب أخرى كالتأليف في المسألة المُتناظر فيها، قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله: «لكل شَـيْء فَائِـدَة وَلَقَد انتفعت بمحك

(١) المناظرات الفقهية (ص٣٧).
(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥).



أهـل الْجَهْـل مَنْفَعَة عَظِيمَـة وَهِي أَنـه توقد طبعي واحتـدم خاطري وحيّ فكري وتهيج نشـاطي فَكَانَ ذَلِك سَـبباً إِلَى تواليف لي عَظِيمَة النَّفْـع وَلَوْلَا اسـتثارتهم سَـاكِني واقتداحهم كامني مَـا انبعثت لتِلْك التواليف»(١).

١١ - استخراج الخفي من العلوم: المناظرة والمشاورة مع المبرزين في العلم مع إمعان النظر في النصوص والتفتيش عن معانيها سبب لاستخراج دقيـق وخفي الفوائـد والأحكام والمسـائل، قال عبدالله بـن المعتز رحمه الله: «بالبحث والنظر تُستخرج دقائق العلم»(٢).

وأما المجادلة المذمومة، فهي أنواع:

١ - الجـدال بغيـر علم: يقول الله عز وجل مبكتـاً أهل الكتاب جدالهم بغير علـم: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

قـال القرطبي رحمه الله: «في الآيـة دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده»(٣).

٢ - الجـدال فيمـا طُـوي علمه: الغيبيات لا سـبيل إلـى معرفتها إلا عن

(١) مداواة النفوس (ص٤١).
(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٥).
(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٠٨).




توقيف، وما لا توقيف فيه فالبحث عنه تكلف وتنطع، والواجب قطع النظر، والكف عن البحث فيما أخفاه الشرع.

قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: «إن ربنا تعالى أبدى شيئاً وأخفى أشياء، وإن المحفوظين بولاية الإيمان حفظوا ما أبدى وتركوا ما أخفى، وذهب آخرون يطلبون علم ما أخفى فهتكوا فهلكوا، فأداهم الترك لأمره إلى حدود الضلال فكانوا زائفين»[(١)].

وقال القاسم بن محمد رحمه الله: «يكفيكم أن تنتهوا إلى ما انتهى الله إليه»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**»[(٣)].

وعن النبي ﷺ قال: «**إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَت النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا**»[(٤)].

---

(١) الإبانة (١/ ٤١٩).

(٢) المعرفة والتاريخ (١/ ٦٧٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (ص٥٤٦ - رقم ٣٢٧٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (١/ ١٢٠ - رقم ١٣٤).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٩٦ - رقم ١٤٢٧)، وأيضاً في (١٠/ ٢٤٣ - رقم ١٠٤٤٨)، قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٣٦): إسناد حسن وصحَّحه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (١/ ٤٢ - رقم ٣٤).



٣ - جدال التدارؤ بالنصوص: حرَّم الشرع تدافع النصوص والتدارؤ بها، لأن الكل وحي من عند الله، مؤتلف غير مختلف، متفق غير مفترق، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء: ٨٢]، وعن عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَنَّ نَفَراً، كَانُوا جُلُوساً بِبَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ كَذَا وَكَذَا؟ فَسَمِعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخَرجَ كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ فَقَالَ: «**بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ؟ أَنْ تَضْرِبُوا القُرْآن بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ إِنَّمَا ضَلَّتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا، فَانْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ، فَاعْمَلُوا بِهِ وَانْظُرُوا الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ، فَانْتَهُوا عَنْهُ**»(١).

قال ولي الله الدهلوي رحمه الله: «يحرم التدارؤ بالقرآن، وهو أن يستدل واحد بآية فيردّه آخر بآية أخرى طلباً لإثبات مذهب نفسه وهدم وضع صاحبه، أو ذهاباً إلى نصرة مذهب بعض الأئمة على مذهب بعض، ولا يكون جامع الهمّة على ظهور الصواب، والتدارؤ بالسنة مثل ذلك»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِرَاءٌ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ**»(٣).

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٩٥ - ١٦٠)، وابن ماجه (١/ ٣٣ - رقم ٨٥)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٥٣): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».
(٢) الحجة البالغة (١/ ٣٨٩).
(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٦٨)، وأبو داود (٥/ ٩)، والحاكم (٢/ ٢٢٣).




قـال البغـوي رحمه الله: «ذلك أنه إذا جادلـك فيه أداه إلى أن يرتاب في الآية المتشـابهة منه، فيؤديه ذلك إلى الجحود، فسمَّاه كفراً باسم ما يخشى من عاقبته إلا من عصمه الله»(١).

٤ - **الجدال في المتشابه**: المتشابه جعله الله فتنةً للذين في قلوبهم ميل وزيـغ وهوى ومرض، فيخوضـون فيه ويتناظرون فيـه، ويضلون ويُضلون بذلـك، وهذه طريقة أهل البـدع كما نعتهم الإمام أحمـد رحمه الله بقوله: «هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يتكلمون بالمتشـابه من الكلام، ويُلبسـون على الجُهال بما يتكلمون به من المتشابه»(٢).

قـال تعالـى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧].

٥ - **جـدال الانتصـار للمذاهـب**: وقـع بين أتبـاع أئمة المذاهب تشـاحن وتشاجر وتنافر، وحصل بسبب ذلك عداوات وخصومات، ودُونت الخلافات والردود في بعضها بدواعي العصبية العمياء، وهذا كله من عمل الشيطان.

(١) شرح السنة (١/ ٢٦١).
(٢) الرد على الجهمية (ص١٧٠).





قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «لَا يزَال التعصب للمذاهب يمْلَأ الْقُلُوب بالشحناء يشحنها وَقد نهى الله عَن المجادلة لأهل الْخلاف فَكيف بِأَهْل الْوِفَاق إِلَّا أَن يُقَال أَحْسنهَا وَمَا علمنَا أَن فِي ذَلِك نِيَّة تتَّخذ وَلَا مصلحَة تُوجد وَلَا هِدَايَة تعتقد بدراسة تفقد بل نَار عَدَاوَة توقد وقلما أثمرت المشاجرة إِلَّا خلافاً»(١).

٦ - **جدال الأغلوطات**: وقع من بعض فقهاء أهل الكوفة توليد المسائل قبل وقوعها، واشتغلوا بتكلف الجواب عن ذلك، ثم تجادلوا في هذه المسائل وافترقت القلوب وظهرت بسببها الأهواء والشحناء.

والواجب أن يطلب الناس العلم في الواضح الجلي، وما يحتاجونه، ويتركوا التكلف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرة سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيائِهِمْ، فَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»(٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «فالتفقه في الدين إنما يُحمد إذا كان للعمل لا للمراء والجدال»(٣).

---

(١) الاتباع (ص٨٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (١٣/ ٢٥١ - رقم ٧٢٨٨).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٢٦٤).

٧ - **جـدال اللـدد وسـوء الأدب**: البعـض إذا جـادل غيره ظلـم وتعدى وبغى، وربما أطلق العنان للسـانه في سبّ مخالفه، وهذا مذموم شرعاً ولو كان صاحبه محقاً، فكيف إذا كان مبطلاً.

عن عائشـة رضي الله عنها قالت: إن النبـي ﷺ قال: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَال إِلَى الله الأَلَدُّ الخَصِم**»[(١)].

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: «لابد أن تُحرس السُّـنة بالحق والصدق والعدل، لا تُحرس بكذب ولا ظلم»[(٢)].

٨ - **الجـدال بعـد ظهـور الحـق**: المجـادل في الحـق بعد ظهـوره هذا مسفسط، وهذا دليل سوء قصده، وأنه مشاغب لا يقصد طلب الحق.

فـإذا ظهر الحق واضحـاً وجب الانقياد له، والكف عن الاسترسـال في مناظـرة أهـل الشـغب، قـال تعالـى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ۞﴾ [الأنفال: ٦].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «فكل من جادل في الحق بعدما تبين علمه أو طريق عمله فإنه غالط شرعاً وعقلاً»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير باب (وهو ألد الخصام) (٨/ ١٨٨ - رقم ٤٥٢٣).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٨٢).
(٣) القواعد الحسان (ص١٣٠).



وعـن عبدالله بن عمر رضـي الله عنهما قال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «**مَنْ جَادَلَ فِي بَاطِل يعلمه لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنزَع**»[1].

والجدال المحمود إنما يكون مع أصحاب القصد الحسن، وأهل الأدب، والعلم النافع، ولذلك ذكر العلماء أصناف من لا تحسن مناظرتهم، وهم:

١ - **الجاهل**: الجاهل لا علم عنده حتى يُناظر، ومقصود المناظرة تبيين الحق وكشفه، وإبداء المدارك التي هي مستند الأقوال، وكل ذلك مفقود عند الجاهل.

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله: «ولقد أخبرني غير واحد عن أبي حامد الإسفراييني أنه خرج يوماً على أصحابه مسروراً، فسألوه، فقال: ناظرت اليوم عاميّاً فظهرت عليه.

فقيل له: وأنت تظهر على الأئمة، فكيف تفرح بالظهور على العوام؟

فقال: «العالم يردّه علمه وعقله ودينه، والعامي لا يرده فهم، ولا يردعه دين، فغلبته نهزة ونادرة»[2].

وقال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأقضية، باب في الشهادات (٤/ ٢٣ - رقم ٣٥٩٧)، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٣٠): إسناده صحيح.
(٢) العواصم من القواصم (ص٢١١).




قال أبو علي السكوني رحمه الله: «ولا يناظر إلا أهل التقدم في العلوم، إذ من ناظر من ليس بشيء، كان خاسراً في كلا الطرفين: لأنه إن ظهر لم يظهر على شيء، وإن ظُهر عليه فقد ظُهر عليه لا بشيء»[(١)].

٢ - **المبتدع**: المبتدع صاحب هوى، وأهل الأهواء المقيمون على أهوائهم سنوات طويلة لا يُنتفع بمناظرتهم؛ لأن طول مكثهم على بدعهم صيَّر اعتقادهم في البدع اعتقاداً راسخاً يصعب معه أن ينتقل صاحبه من البدعة إلى السُّنة والهدى إلا أن يشاء الله، لذلك قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «اثنان لا تعاتبهما: صاحب طمع، وصاحب هوى، فإنهما لا ينزعان»[(٢)].

وقال أيوب السختياني رحمه الله: «إن المبتدع لا يرجع»[(٣)].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «ما ناظرت أحداً علمت أنه مقيم على بدعة»[(٤)].

وهذا في الغالب، وإلا فهذا أبو الحسن الأشعري رحمه الله مكث في الاعتزال أربعين سنة ثم انتقل إلى مذهب ابن كُلاب، ثم إلى مذهب أهل السُّنة على سبيل الجملة وبقيت فيه بقايا من البدع.

---

(١) عيون المناظرات (ص٢٧٩).
(٢) الاعتصام (١/ ١٥٣).
(٣) غذاء الألباب (٢/ ٥٨٣)،
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ١٧٥).



وأما حديث عهد بالبدعة فإنه يُناظر كما ناظر ابن عباس رضي الله عنهما الخوارج فرجع منهم ألفان.

٣ - السفيه: السفيه لا رشد في أقواله وأفعاله، فهذا الصنف من الناس تُهيِّج المناظرة خبيء نفسه، فتراه يُطلق لسانه في سب وتقبيح مناظره، وقد أمر الله بالإعراض عن السفهاء ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال سبحانه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال العلامة عبد الحميد بن باديس رحمه الله: «فعلى المؤمن أن يكون حاضر البال بهذه الآية عندما تسوق إليه الأقدار جاهلا، فيخاطبه بما لا يرضيه حتى يسلم من شره، ويكسر من شرته، فيسلم له عرضه ومروءته ودينه ويسلم ذلك الجاهل أيضاً من اللجاج في الشر، والتمادي فيه»[1].

قال الشاعر[2]:

لا ترجعن إلى السفيه خطابه * إلا جواب تحية حياكها**
فمتى تُحركه تُحرك جيفة * تزداد نتناً إن أردت حراكها**

٤ - المتعنت: المتعنت ليس غرضه طلب الحق، فهو يجادل مغالبة، وهذا الصنف من الناس تؤول مناظرته إلى المراء، قال ابن سيرين رحمه الله: «لا تجادل إلا رجلاً إن كلمته رجوت أن يرجع، فأما من كلمته فجادلك

(١) آثار ابن باديس (١/ ٤٤١).
(٢) الحلم لابن أبي الدنيا بواسطة «الهمة العالية» (ص٦٣).

فإياك أن تكلمه»[1].

٥ - **الظالم**: العلماء كانوا يفرون من مناظرة من لا ينصف من نفسه، لأن مع عدم الإنصاف يحصل الاعتساف، ولا ينتزع الحق من مثل هذا إلا بشغب وإساءة وغير ذلك مما هو مذموم شرعاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والمناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف وإلا فالظالم يجحد الحق الذي يعلمه: وهو المسفسط والمقرمط أو يمتنع عن الاستماع والنظر في طريق العلم: وهو المعرض عن النظر والاستدلال»[2].

٦ - **المجبول على الخلاف**: المجبول على الخلاف مذهبه مضادة من أمامه، ولذلك يتبدل مذهبه بحسب من يعارضه، فينكر ما كان يثبته بالأمس لأن مناظره اليوم مذهبه يختلف، فبالمضادة يتبدل المذهب.

قال ابن حزم رحمه الله: «واحذر من مكالمة من ليس مذهبه إلا المضادة والمخالفة»[3].

وقال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: «وإذا رأيت إنساناً قد جُبل على الخلاف إن قلت: نعم، قال: لا، وإن قلت: لا، قال: نعم، فألحقه بعالم

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٨٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١٠٩).
(٣) التقريب لحد المنطق (ص١٩٦).

الحمير، فإن دأب الحمار إن أدنيته بعد وإن أبعدته قرب، وأنت تستمتع بالحمار ولا تسبه ولا تفارقه، فاستمتع أيضاً بهذا الإنسان ولا تسبه ولا تفارقه»[1].

٧ - **المقلد**: المقلد لا يعرف دليل القول الذي انتحله فضلاً عن أن يتمكن من المقابلة بين الأقوال المختلفة أو أن يزنها بميزان الشريعة، فمثل هذا لا يُنتفع بمناظرته، قال العلامة صديق حسن خان رحمه اللهُ: «إن المقلد ليس من يعقل حجج الله إذا جاءته فضلاً عن أن يعرف الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والراجح من المرجوح، بل لا ينبغي أن يُنسب المقلد إلى العلم مطلقاً»[2].

أما آفات الجدال المذموم فإنها كثيرة: الشيطان ينصب رايته في ميدان المناظرة، لأن الإنسان مجبول على دفع الهزيمة والانقطاع، فتراه يُنزِّل المناظرة منزلة المقاتلة، ومن كان هذا شأنه فإنه يستعمل كل ما في وسعه لئلا ينقطع، وإن كان ذلك بما يُذم شرعاً.

قال مسلم بن يسار: «إياكم والمراء فإنها ساعة جهل العالم، وعندها يبتغي الشيطان زلته»[3].

(١) سراج الملوك (ص٢٥٩).
(٢) ظفر اللاظي (ص٤٩).
(٣) رواه الدارمي (١/ ١٠٩)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٤٩٦).




وهذا سرد لكثير من آفات الجدال المذموم:

١ - **تهييج الغضب**: المناظرة تُحرك دواعي الغضب، والمناظر إذا غلبه الغضب حمله على أنواع من الشرور والمنكرات وما لا يُحمد.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله: «الخصومة تُوغر الصدور، وتُهيِّج الغضب، وإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما حتى يفرح كل واحد منهما بمساءة الآخر، ويحزن لمسرته، ويُطلق لسانه في عرضه»[(١)].

٢ - **مفتاح للعداوة والبغضاء**: المناظرات تورث الضغائن وتهيج العداوة بين الإخوان، ويحصل مع انقطاع البعض مخاشنة ومضايقة.

قال الإمام مالك رحمه الله: «الجدال في الدين يُنشئ المراء، ويذهب بنور العلم من القلب، ويُقسي القلب، ويورث الضغن»[(٢)].

٣ - **الترخص بالغيبة**: بعد انقضاء المناظرة يخوض البعض في مخالفه ومناظره، ويغتابه بدعوى حكاية المناظرة، وربما انضاف إلى ذلك شيء من الكذب والتزيد في الكلام.

قال ابن الجوزي رحمه الله مبيناً مفاسد المناظرات: «ومن ذلك ترخصهم في الغيبة بحجة الحكاية عن المناظرة، فيقول أحدهم: تكلمت

(١) الكبائر (ص ٢٢٢).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (ص٢١٢).



مع فلان فما قال شـيئاً، ويتكلم بما يوجب التشفي من عرض خصمه بتلك الحجة»[1].

٤ - **إفساد النيات**: المناظرات تُفسد النية، فترى المناظر همّه الغلبة والظهور على مخالفه والزهوّ عليه، وهذه أحوال النفوس الردية، أما النفوس الزكية فعلى العكس من ذلك تحب الخير، وأن يوفق الناس إلى الحق.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يُوفق ويُسدد ويُعان، وتكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما كلمت أحداً قط إلا ولم أبال بيّن الله الحق على لساني أو لسانه»[2].

٥ - **مشاغلة وتضييع للوقت**: طالب العلم وقته ثمين لا يُضيّعه بمجادلات ومناظرات ثمراتها في الغالب ضعيفة أو معدومة، وليحذر طالب العلم من حيل بعض المبطلين الذين يصطنعون المناظرات مشاغلة وشغباً بغيرهم.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله مبيناً مفاسد اللجاج: «وأقل ما فيها اشتغال القلب حتى أنه يكون في صلاته وخاطره متعلّق بالمحاجة والخصومة فلا تبقى حاله على الاستقامة»[3].

(١) تلبيس إبليس (ص١٢٠).
(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٦).
(٣) الكبائر (ص٢٢٢).




٦ - **مدافعـة الحـق وردّه**: المناظر إذا قصد المغالبة، فـإن هذا يمنعه من الانقياد للحق، فتراه يرد الحق ويدفعه ويأباه، مكابرةً وعناداً.

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمـه الله: «فإذا ظهر لـه الحق فعند عنه، كان ظالماً، وذلك مثل الألد في الخصام»[١].

٧ - **المخيلة بالمعرفة**: المخيلة من أشهر وأظهر آفات المناظرة، قال ابن الجوزي رحمه الله: «أيذهب زمانكم يافقهاء في الجدل والصياح، وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة؟! أوما سمعتم: «من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو ليماري به السـفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه؛ لم يرح رائحة الجنة»»[٢].

٨ - **الترخص بالكذب**: قد لا يخلص للمناظر جواب لكل إيراد يورده عليه مخالفه، فربما حمله قصده الفاسد على الكذب حتى يحصل له الظهور.

وقـد علّق ابن الأثيـر الجزري على حديث: «مَنْ طَلَـب صَرْفَ الْحَدِيثِ يْبتغِـي بِـهِ إِقْبَـالَ وُجُـوهِ النَّـاسِ» بقولـه: «أراد بصـرف الحديث مـا يتكلفه الإنسـان من الزيـادة فيه على قدر الحاجـة. وإنما كره ذلك لمـا يدخله من الرياء والتصنع، ولما يخالطه من الكذب والتزيد»[٣].

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٣٨).
(٢) صيد الخاطر (ص٣٨٣).
(٣) النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢٤).





٩ - تقحم الباطل: المناظرات تُقحم الإنسـان في أمور ربما لا يعتقدها، وإنما يفعل ذلك دفعاً لمن يُناظره.

قـال أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب رضي الله عنه: «إن للخصومات قحماً وإن الشيطان يحضرها»(١).

١٠ - تحريف النصوص: متى ما قصد المناظر المغالبة، فإنه ربما يهتك حرمـة نصـوص القرآن والسُّـنة، ويُحرِّفها ليجعلها تبعاً لهـواه، فإن هذا من المراء الذي قال فيه النبي ﷺ: «مِرَاء فِي القُرْآنِ كُفْر».

وقـال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما اجتمع رجلان يختصمان فافترقا حتى يفتريا على الله عز وجل»(٢).

وقال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: «فمن دفع نصوصاً يحتج بها غيـره لـم يؤمن بهـا، بل آمن بمـا يحتج، صـار ممن يؤمن ببعـض الكتاب، ويكفر ببعض»(٣).

١١ - مشـاكلة العلمـاء: المتعالمون يجدون فـي المناظرات بغيتهم في إظهـار تعالمهم، وإظهار تشـبههم بالعلماء، قال ابن القيـم رحمه الله: «قد أقـام الله - سـبحانه - لكل عالم ورئيس وفاضل مـن يُظهر مماثلته، ويرى

(١) منهاج السُّنة (٦/ ١٦٩).
(٢) الإبانة (٢/ ٥١٩).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٢٧).




الجُهال وهم الأكثرون مساجلته ومشاكلته، وأنه يجري معه في الميدان، وأنهما عند المسابقة كفرسي رهان، ولاسيما إذا طوَّل الأردان، وأرخى الذوائب الطويلة وراءه كذنب الأتان، وهدر اللسان، وخلا له الميدان الطويل من الفرسان.

فلو لبس الحمار ثياب خز   لقال الناس: يالك من حمار

وهذا الضرب إنما يُستفتون بالشكل لا بالفضل، وبالمناصب لا بالأهلية، قد غرهم عكوف من لا علم عنده عليهم، ومسارعة من أجهل منهم إليهم، تمجُ منهم الحقوق إلى الله - تعالى - مجّاً عجيباً، وتضجّ منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجاً»[1].

١٢ - **تفحّش اللسان**: أصل المناظرة تردد القول ودفعه بين اثنين، فاللسان هو فارس الميدان، ومتى استعرت المناظرة واشتدت انفلت اللسان، وتعسر ضبطه، ووثاقه.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله: «ضبط اللسان في الخصومة على حدّ الاعتدال متعذر»[2].

وقيل لحاتم الأصم: أنت رجل أعجمي لا تفصح، وما ناظرت أحداً إلا قطعته، فبأي شيء تغلب خصمك؟

(١) أعلام الموقعين (٤/ ٢٠٨).
(٢) الكبائر (ص٢٢٢).



قال: «بثلاث، أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ لساني أن أقول له ما يسوؤه»(١).

١٣ - نسيان العلوم: اللجاج قد يُحرم بسببه العبد بركة العلم والانتفاع به، فهذا النبي ﷺ خرج ليُخبر أصحابه بليلة القدر فتلاحى رجلان فرُفعت(٢).

قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله: «وأما الملاحاة فهي التشاجر ورفع الأصوات والمراجعة بالقول الذي لا يصلح على حال الغضب، وذلك شؤم»(٣).

١٤ - تتبع العورات: من أعظم آفات المناظرات أنها تبعث في بعض الفجار من المناظرين تتبع عورات مخالفه، طلباً لقهره وتشفيّاً لنفسه.

قال ابن فرحون المالكي رحمه الله: «اعلم وفقنا الله وإياك أن المراء والجدال يُورث العداوة والبغضاء، ويبعث على كشف العورات والحمية»(٤).

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «وليحذر أهل العلم من الاشتغال بالتفتيش عن أحوال الناس وعيبهم، فإنه مع أن صاحبه مستحق للعقوبة، فإنه يُشغل عن العلم، ويصدّ عن كل أمر نافع»(٥).

---

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة (ص٣٥).
(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يُنهى من السباب واللعن (ص١٠٥٦ - رقم ٦٠٤٩).
(٣) التمهيد (٢/ ٢٠١).
(٤) الزاهر (ص٣٤٥).
(٥) نور البصائر والألباب (ص٧٨).




١٥ - الحرمـان مـن الاهتداء إلى الحـق: من صار فـي مناظراته لجوجاً ممارياً قصده الظهور وقهـر خصمه فإنه يُحرم التوفيق إلـى الحق والهداية إليـه إلا ما شـاء الله، قـال تعالـى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، قـال الإمـام أحمـد رحمه الله: «لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلكه».

وقال ابن عقيل الحنبلي رحمه الله: «ومن خاض في الشغب تعّوده، ومن تعوَّده حُرم الإصابة واستروح إليه، ومن عُرف به سقط سقوط الذرة»(١).

١٦ - إحداث البدع: المناظر إذا كان قصده الغلبة لعله يدفع بسبب ذلك قول مناظره باختراع قول جديد ليُفرّج به مضايق وإلزامات مخالفه، ثم يأتي الأتباع فيتابعونه على بدعته.

قـال عمرو بن قيـس للحكم بن عتيبـة: «ما اضطر المرجئـة إلى رأيهم؟ قال: الخصومات»(٢).



(١) الواضح في أصول الفقه (٣/ ١٤٥٤).
(٢) ذم الكلام (٥/ ٦٢).






الدرس السادس والعشرون
التوبة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتَنَبَتْ الْكَبَائِرَ**»(١).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ صَامَ رَمَضَان إيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِر لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، وفيهما أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً غُفِر لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**».

فرمضان مدرسة في التوبة، وهذه النصوص التي ذكرتها تدلّ دلالة واضحة على أن الأعمال الصالحة تُكفر السيئات، وأن حسنات الصيام والقيام تُكفر السيئات، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود: ١١٤]، وعن أبي ذر ومعاذ ابن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»(٢).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما جتنبت الكبائر (ص١١٧ – رقم ٥٥٠).

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس (ص٤٦٠ – رقم ١٩٨٧)، وقال: حسن صحيح.




وعـن عقبة بن عامـر رضي الله عنه قال: قال رسـول اللـه ﷺ: «**إِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ يَعْمَلُ الْحَسَنَاتِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ عَلَيْهِ دِرْعٌ ضَيِّقَةٌ قَدْ خَنَقَتْهُ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَـنَةً فَانْفَكَّتْ حَلْقَةٌ، ثُمَّ حَسَـنَةً أُخْرَى فَانْفَكَّتْ أُخْرَى، حَتَّى تَخْرُجَ إِلَى الْأَرْضِ**»(١).

فالله عز وجل يريد منا أن نتعرض لرحمته وأسـباب عفوه ورضاه، لأننا بشـر وورثنا طبيعة أبينا آدم،: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه: ١١٥]، وقال النبي ﷺ: «فَعَصَى آدَمَ فَعَصَتْ ذُرِّيَته».

وفـي حديث أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قـال: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»(٢).

فاللـه عـز وجل يريد منـا أن نسـتغفر ونتوب إليـه ونتودد إليـه بمرضاته ومحابه وهي الطاعات، قال شـعيب، داعياً إلى الاستغفار والتوبة إلى الله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود: ٩٠].

ومـن علـم أن ربه رحيـم وودود غفور فلا شـك أنه يبادر إلـى التوبة إليه، والله عز وجل يحب التوبة من عباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٨٤)، وابن أبي الدنيا في التوبة (٣/ ٤١٤ - مجموع رسائل ابن أبي الدنيا).

(٢) رواه الترمـذي، كتاب صفة القيامة، باب في اسـتعظام المؤمن ذنوبه (ص٥٦٨ - رقم ٢٤٩٩)، وابن ماجه، كتاب الزهب، باب ذكر التوبة (ص٦١٩ - رقم ٤٢٥١).



ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ويفرح الله عز وجل إذا تاب عبده إليه، فأي ترغيب في التوبة أعظم من هذا، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ نَـزَلَ فِـي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ – مَفَـازَةٍ – مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَـرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَـهُ فَنَامَ فَاسْـتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتهُ، فَطَلَبَهَا حَتَّى إذَا اشْـتَدَّ عَليه الحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَـاءَ الله، قَالَ: أَرْجعُ إِلَـى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيه، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَـهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْـتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَه عَلَيْهَا زَادُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِه**»(١).

بـل إن الله عز وجل أخبـر أن العبد لو جاء بملء الدنيا ذنوباً ثم أقبل إلى اللـه تائبـاً صادقاً مسـتغفراً منيباً فإن الله يغفر له، فعـن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَـا دَعَوْتَنِـي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْـكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَـتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّـمَاءِ ثُمَّ اسْـتَغْفَرْتَنِي غَفَـرْتُ لَكَ، يَا ابْـنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِـي بِقُـرَابِ الأَرْضِ خَطَايَاً ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْـرِكُ بِي شَـيْئاً لَأَتَيْتُـكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة (ص١٠٩٧ – رقم ٦٣٠٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة (ص١١٨٩ – رقم ٦٩٥٣).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب الحديث القدسي: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني.» (ص٨٠٧ – رقم ٣٥٤٠)، وقال: حديث حسن غريب.




والله عز وجل أخبر أنه يقبل توبة المشرك والكافر إن انتهى، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

بل إن الله عز وجل ذكر قصص الأنبياء والصالحين ومقاماتهم في توباتهم وإناباتهم لنتعرض لرحمة الله ونبتغي عفوه ورضوانه ومغفرته وإحسانه، كما ذكر الله في قصة يونس،: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والنبي ﷺ كذلك ذكر قصة الذي قتل تسعةً وتسعين نفساً فغفر الله له، وفيه قال المفتي العالم: «**ومن يحول بينك وبين التوبة**»(١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(٢).

ولا أحد يستغني عن التوبة، فإن الله عز وجل ذكر الأنبياء ومقاماتهم في تكميل عبوديتهم بعد توبتهم، فمن هذا الذي هو فوقهم حتى يستغني عن التوبة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء (ص٥٨٥ - رقم ٣٤٧٠)، ومسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل (ص١١٩٩ - رقم ٧٠٠٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب (ص١١٩٦ - رقم ٦٩٨٩).





قال الإمام الشافعي رحمه الله: «لا أعلم أحداً أُعطي طاعة الله حتى لم يخلطها بمعصية إلا يحيى بن زكريا»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وينبغي أن يُعرف أن التوبة لابد منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها»(٢).

والله عز وجل له حكمة بالغة فيما يُقدره على عباده من الذنوب، فإنه سبحانه يريد أن يجعل عباده بعد التوبة أكمل منهم قبل مقارفة الذنب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه؛ ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع والخشوع لله والإنابة إليه وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة كمن ذاق الجوع والعطش والمرض والفقر والخوف ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه والحذر أن يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك»(٣).

وقال أيضاً: «الذنب الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة فأما ما

(١) رواه الخطيب في الكفاية (١/ ٢٧٠ - رقم ٢١٥)، وإسناده صحيح.
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٥٥).
(٣) المصدر السابق (١٥/ ٥٥).




حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة كما قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة أحسن منه حالاً قبل الخطيئة»[1].

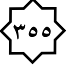
وقال أيضاً: «فالعبد المؤمن إذا تاب وبدَّل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له، بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية»[2].

والعبد مركوز فيه حب الشهوات كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]، وتعتريه كذلك الغفلة، فإذا غفل وسوس له الشيطان، ووردت خواطر المعاصي على قلبه، ثم تصير الخواطر إرادات فتؤزه الشياطين إلى المعاصي أزًّا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴿٢١﴾﴾ النور: ٢١، ولذلك أمرنا الله بالتعوّذ من وسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ١ - ٦].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٥٥).

(٢) المصدر السابق (١٥/ ٥٥).





قـال ابـن القيم رحمه اللـه: «فإن العبـد إذا غفل عن ذكر اللـه جثم على قلبه الشيطان وانبسط عليه وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلهـا فـإذا ذكر العبد ربه واسـتعاذ بـه انخنس وانقبض كما ينخنس الشـيء ليتـوارى، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضاً تجمُّع ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج فهو تأخر ورجوع معه اختفاء»[1].

وقـال أيضاً: «فإن ذكـر الله هو مقمعته التي يُقمع بها كما يُقمع المفسـد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعِصي ونحوها، فذكر الله يقمـع الشـيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسـياط والمقامع التي تـؤذي من يضرب بهـا، ولهذا يكون شـيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مُضنى ممـا يعذبه المؤمن، ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفي أثر عن بعض السـلف أن المؤمن يُنضي شـيطانه كما يُنضي الرجل بعيـره فـي السـفر، لأنه كلمـا اعترضـه صـبَّ عليه سـياط الذكـر والتوجه والاسـتغفار والطاعة، فشـيطانه معه في عذاب شـديد ليس بمنزلة شـيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة ولهذا يكون قويّاً عاتياً شديداً.

فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعتـه عذَّبه شـيطانه في الآخـرة بعذاب النار، فلابد لـكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه»[2].

(١) بدائع التفسير (٥/ ٤٤٩).
(٢) بدائع التفسير (٥/ ٤٥٠).






وهنا لابد من بيان وتوضيح ما يكون حاجزاً يحجز العبد عن الوقوع في المحرمات ومقارفة السيئات:

أولاً: أن يعلم العبد أن الحرب مع الشيطان مستمرة، وأن الشيطان عدو يبتغي أذيتك منذ ولادتك، فكن منه على حذر دائم، واصرعه قبل أن يصرعك، وتأسى بالسلف الصالح فإنهم وأرواحهم في النزع يرون أن الحرب مع عدو الله إبليس لم تنته بعد.

فالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يقول عنه ابنه عبدالله: «لما حضرت أبي الوفاة، جلستُ عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه، فجعل يغرق ثم يفيق، ثم يفتح عينيه، ويقول بيده هكذا لا بَعْدُ، ثلاث مرات. فلما كان في الثالثة، قلت: يا أبه، أي شيء هذا الذي لهجت به في هذا الوقت؟ فقال: يابني، ما تدري؟ قلت: لا. قال: إبليس - لعنه الله - قائم بحذائي، وهو عاض على أنامله، يقول: يا أحمد فُتَّني، وأنا أقول: لا بَعْدُ حتى أموت»[1].

ثانياً: الالتجاء إلى الله أن يعصمك من الزلل ويجنبك الفتن، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وإذا كان النبي ﷺ المعصوم والمسدد بالوحي أكثر دعاءه: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» كما في صحيح البخاري فنحن أحوج.

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٤١).





وقد ذكر محمد بن أحمد الواعظ عن أحد الأشياخ وهو يودع طالب علم خراساني بعد انقضاء رحلته من العراق أنه قال له: من أين أنت؟ قال: من خراسان، قال: هل يكون هناك شيطان؟ قلت: نعم، الشيطان في كل موضع، قال: فما يصنع أحدكم إذا قصده الشيطان ليفتنه ويضله؟ قلت: يردّه بالجدّ والاجتهاد وبالمحاربة، قال: فإن عاد؟ قلت: يعود، قال: إذاً يذهب عمرك في مكايدة الشيطان ولا تتفرغ للعبادة والخدمة، أرأيت إذا مررت براعي غنم وله كلب عقور يقصد من أقبل وأدبر؟ فإذا أردت أن تحاربه وتدفعه عن نفسك: لم تتفرغ لشيء، قلت: فما أصنع، قال: تنادي صاحب الكلب فيدفعه عنك ويمنع كلبه إذ ذلك بفضل سلطانه»[1].

ثالثاً: تذكّر عواقب الأمور: فالعاقل يعرف أنه سيوافي ربه، وأن أعماله محصاة عليه، وأن الحساب والعقاب آت لا محالة، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾[الطور: ٧-٨]، والنبي ﷺ قال: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَـرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ؟ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْمَرُ لَهُ**»، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا**»[2].

وكذلك ينبغي على العبد أن يتذكر سوء عاقبة الذنوب والمعاصي في الدنيا قبل الآخرة، فإنها والله تحجزه عن الطاعات إن كان يعقل ذلك.

(١) ملتقط الحكايات لابن الجوزي (ص٢٤٢).
(٢) رواه أحمد (١/ ٣٢٦)، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧١): «وهو حديث جيد» وقال البغوي في شرح السنة (١٥/ ١٠٣): «حديث حسن».




قال مالك بن دينار رحمه الله: «إن لله عقوبات في القلوب والأبدان، ضنك في المعيشة، ووهن في العبادة، وما ضُرب العبد بعقوبة أعظم من قسوة القلوب»(١).

وقال ابن خيرة وهو من أصحاب علي رضي الله عنه: «جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة، قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال إلا جاء من يُنغصه إياها»(٢).

وفي الإنسان عدة بواعث تحجزه عن المعاصي والذنوب، **فأولها**: باعث الفطرة: فإن النبي ﷺ لما أُسري به إلى بيت المقدس، قُدم له قدح من لبن وقدح من خمر، فاختار اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة(٣).

ثانيها: باعث الغيرة، فإن النبي ﷺ لما صلى الكسوف وعظ الناس بعد الصلاة، وقال: «لَا أَحَد أَغْيَرَ مِنَ الله أَنْ يَزْنِي عَبْدَهُ، أَوْ تَزْنِي أَمَتُهُ»(٤).

قال ابن القيم رحمه الله: «فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها»(٥).

---

(١) سير السلف الصالح (٣/ ٩٨٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٠٨).
(٣) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فُرضت الصلاة (ص٦٢ - رقم ٣٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء (ص٨٢ - رقم ٤١١).
(٤) رواه البخاري، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف (ص١٦٧ - رقم ١٠٤٤)، ومسلم، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف (ص٣٦١ - رقم ٢٠٨٩).
(٥) الجواب الكافي (ص٩٤).

ثالثها: باعث الحياء والمروءة، فذو المروءة يستحي أن يسيء في حق من أحسن إليه، قال يوسف، لامرأة العزيز لما راودته عن نفسه ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: ٢٣]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي، أي: منزلي وأحسن إلي، فلا أقابله بالفاحشة في أهله»(١).

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي، فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح»(٢).

وفي حديث سيد الاستغفار: «**أَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّه لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»(٣).

وقال ابن سمعون البغدادي رحمه الله: «رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءة، فاستحالت ديانة»(٤).

وقال الوزير ابن هبيرة رحمه الله: «زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة»(٥).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٧٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٧٢).
(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار (ص١٠٩٧ - رقم ٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.
(٤) فتح الباري لابن رجب (١/ ١٠٣).
(٥) الآداب الشرعية (١/ ١٢٧).




وقال ابن القيم رحمه الله: «وإن مقابلة العظيم به - أي: بالذنوب - العظيم الذي لا شيء أكبر منه، الجليل الذي لا أجلَّ منه ولا أجمل، المنعم بجميع أنواع النعم دقيقها وجليلها يعدّ من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحدٍ مؤمنٌ وكافرٌ. وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل، فكيف بعظيم السماوات والأرض؟ وَملك السموات والأرض؟ وإله أهل السموات والأرض»[1].

وقال العلامة محمد بن نصر المروزي رحمه الله[2]: «الحياء حياءان حياء من الله، وحياء من الناس، والذي هو أولى بالعبد الحياء من الله عز وجل، ولولا أن الله تعالى جعل الحياء من خلقه خلقاً كريماً لما كان أحد غير الله يستوجب أن يستحى منه إذ لا مالك لنفع، ولا ضر غيره، ولكنه أحب أن يستحي خلقه بعضهم من بعض فيستروا عيوبهم منهم، فلا يفتضح بعضهم عند بعض، فمن الحياء من الله ما هو فرض، ومنه ما هو فضيلة ونافلة، وهو هائج عن المعرفة بعظمة الله وجلاله وقدرته، لأنه إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله العظيم، والهيبة له فغلب على قلبه ذكر اطلاع الله العظيم ونظره بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه، وذكر المقام غداً بين يديه وسؤاله إياه عن جميع أعمال

(١) الجواب الكافي (ص١١٨).
(٢) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٢٥ - ٨٢٦).



قلبه وجوارحه، وذكر دوام إحسانه إليه، وقلة الشكر منه لربه فإذا غلب ذكر هذه الأمور على قلبه هاج منه الحياء من الله فاستحى من الله أن يطّلع على قلبه وهو معتقد لشيء يكره، أو على جارحة من جوارحه، يتحرك بما يكره فطهّر قلبه من كل معصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه إذ فهم عنه قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس: ١٤]، وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۝٦١﴾ [يونس: ٦١] وقال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۝١٠٥﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال منكراً على من استخف بنظره: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۝١٤﴾ [العلق: ١٤]».

رابعاً: باعث العقل: فالعاقل يعرف أن الذنوب تقطع عن السفر إلى الدار الآخرة، قال ابن القيم رحمه الله: «قال بعض السلف: ما عصى الله أحدٌ حتي يغيب عقله، وهذا ظاهرٌ فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى، أو تحت قهره، وهو مطلعٌ عليه، وفي داره على بساطه وملائكته شهودٌ عليه ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله، والاستخفاف به ذو عقلٍ سليمٍ؟»[١].

(١) الجواب الكافي (ص٨٤).




والصبر عن الشهوات المحرمة هو الطريق للتوبة والخلاص من الذنوب، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «يا شبان التوبة لا ترجعوا إلى ارتضاع ثدي الهوى من بعد الفطام فإن صبرتم تعوضتم عن لذة الهوى بحلاوة الإيمان في القلوب، من ترك لله شيئاً لم يجد فقده عوضه الله خيراً منه: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال: ٧٠] وفي الحديث: «**النظر سهم مسموم من سهام إبليس من تركه من خوف الله أعطاه إيمانا يجد حلاوته في قلبه**»»[1].

فالنفس إذا لم تشغلها بطاعة الله شغلتك بمعصيته، وضاعت عليك أيام حياتك، قال ابن القيم رحمه الله[2]: «وبالجملة، إذا أعرض العبد عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غب إضاعتها يوم يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٤].

فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلاً، وإن كان له تطلع إلي ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسّرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

(١) لطائف المعارف (ص٤٢٤) - ط - بيت الأفكار
(٢) الجواب الكافي (ص٧٩).



وسـر المسـألة أن عمر الإنسـان مدة حياته، ولا حياة لـه إلَّا بإقباله على ربه، والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته».

فـإذا ألممت بذنـب فبادر إلى التوبـة، ولو تكرر منك ذلـك فتب إرغاماً للشـيطان وطاعـة للرحمن، والواجب على أهل العلـم أن يدلوا الناس إلى أسباب التوبة ومحو السيئات.

قال شـيخ الإسـلام ابـن تيمية رحمـه الله: «فـإن الفقيـه كُلّ الفقيه الذي لا يؤيـس النـاس من رحمه اللـه عز وجل، ولا يجرؤهم علـى معاصي الله تعالـى: وجميـع النفوس لابـد أن تذنب، فتعريف النفوس مـا يخلصها من الذنوب من التوبة والحسـنات الماحيات كالكفـارات، والعقوبات هو من أعظم فوائد الشريعة»[1].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إِنَّ عَبْداً أَذْنَبَ ذَنْباً، فَقَالَ: رَبِّ، أَذْنَبْتُ ذَنْباً فَاغْفِرْ لِي، قَالَ اللهُ تَعَالَى: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَـهُ رَبّاً يَغْفِـرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرتُ لعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَـاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً آخَرَ، فذكر مثل الأوَّل مرتين أخريين**». وفي رواية لمسلم: أنه قال فِي الثَّالِثَةِ: «**قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**».

قـال الحافظ ابـن رجب الحنبلي رحمه اللـه: «والمعنى ما دام على هذه

(١) الآداب الشرعية (١/ ٧٧ - ٧٨).




الحـال كلَّما أذنـب اسـتغفر، والظاهر أن مراده الاسـتغفار المقـرون بعدم الإصـرار، ولهـذا في حديث أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه، عن النَّبِّي ﷺ قـال: «ما أصرَّ من اسـتَغْفَر وإن عادَ في اليومَ سَـبْعِينَ مـرَّة» خرَّجه أبو داود والترمذي، وأما اسـتغفار اللسـان مع إصرار القلب على الذنب، فهو دعاء مجرد إن شاء الله أجابه، وإن شاء ردَّه»[1].

ومـما ينبغي التنبيه عليه أن التوبة من الاعتقادات الباطلة والبدع المضلة آكـد وأولى مـن التوبة من المعاصي، قال شـيخ الإسـلام ابـن تيمية رحمه اللـه[2]: «التوبة من الاعتقـادات أعظم من التوبة من الإرادات، فإن من ترك واجبـاً أو فعل قبيحا يعتقـد وجوبه وقبحه، كان ذلك الاعتقـاد داعيا له إلى فعـل الواجب ومانعا من فعل القبيـح، فلا يكون فعله وتركه ثابت الدواعي والصوارف، بل تكون دواعيه وصوارفه متعارضة، ولهذا يكون الغالي على هذا التلوم، وتكون نفسـه لوامة، تارة يـؤدون الواجب وتارة يتركونه، وتارة يتركون القبيح وتارة يفعلونه».

ثم قال[3]: «وأما ما فعله الإنسان من اعتقاد وجوبه، وتركه اعتقاد تحريمه، فهذا يكون ثابت الدواعي والصوارف، أعظم من الأول بكثير.

(١) جامع العلوم والحكم (ص٤٦٨ - ٤٦٩)، ط - الرسالة - الأولى.
(٢) جامع الرسائل (١/ ٢٣٧-٢٣٨) تحقيق د: محمد رشاد سالم رحمه الله.
(٣) جامع الرسائل (١/ ٢٣٧-٢٣٨) تحقيق د: محمد رشاد سالم رحمه الله.



وهـذا تحتاج توبته إلى صلاح اعتقـاده أولا وبيان الحق، وهذا قد يكون أصعـب مـن الأول، إذ ليـس معه داع إلـى أن يترك اعتقـاده[1]، كما كان مع الأول داع إلى أن يترك مراده».

❊ ❊ ❊

(١) صـدق رحمـه الله فقد روى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته» رواه البيهقي في شعب الإيمان والطبراني وحسنه الألباني.




الدرس السابع والعشرون
التربية على مكارم الأخلاق

رمضان مدرسة عظيمة في مكارم الأخلاق يحرص المسلم أن يتأسى بأخلاق رسوله الكريم ﷺ الذي هو أسوة المؤمنين جميعاً كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والنبي ﷺ جمع مكارم الأخلاق كلها كما نعته ربه سبحانه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤].

ومن أظهر أخلاقه، وأبرز صفاته وأوضح شمائله الكرم والجود والسخاء، وهذا الخلق واضح لكل أحد، للمسلم والكافر، حتى سار الركبان بقولهم: «إن محمداً يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر».

وجوده، في كل وقت وحين، إلا أن جوده في رمضان أظهر وأوضح.

كان النبي ﷺ أجود الناس، وإذا دخل رمضان كان أجود بالخير من الريح المرسلة.

وفي تضاعف جوده ﷺ في شهر رمضان بخصوصه فوائد كثيرة ذكرها الحافظ ابن رجب رحمه الله، منها:

١ - شرف الزمان، ومضاعفة أجر العمل فيه.

٢ - إعانة الصائمين والقائمين والذاكرين على طاعاتهم، فيستوجب المعين لهم مثل أجرهم، وفي حديث زيد بن خالد الجهني، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ فَطَّرَ صَائِماً فَلَهُ مِثْلُ أَجْرُهُ، غير أَنَّهُ لَا يَنْقُص مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ**»(١).

٣ - شهر رمضان يجود الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعتق من النار لاسيما في ليلة القدر، والله تعالى يرحم من عباده الرحماء كما قال ﷺ، فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه بالعطاء والفضل، والجزاء من جنس العمل.

٤ - الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة كما جاء عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا**»، قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**»(٢).

٥ - الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا واتقاء جهنم والمباعدة عنها، خصوصاً إن ضُمّ إلى ذلك قيام الليل، ففي حديث معاذ

(١) رواه الترمذي، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل من فطر صائماً (ص٢٠١ - رقم ٨٠٧)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب الصيام، باب في ثواب مَن فطر صائماً (ص٢٤٩ - رقم ١٧٤٦)، وصحَّحه ابن حبان (٥/ ١٨١ - رقم ٣٤٢٠).
(٢) رواه أحمد (١/ ١٥٦)، والحاكم (١/ ٨٠)، وصحَّحه ابن حبان (١/ ٣٦٣ - رقم ٥٠٩).




رضـي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «**الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ مِن جَوفِ اللَّيلِ**»[1].

٦ - الصيـام لابـد أن يقـع فيه خلـل أو نقـص، وجبر هـذا الخلل يكون بصدقة الفطر وأنواع الصدقات.

٧ - مواسـاة الفقـراء من شـكر اللـه على نعمـه، فالصائـم إذا ذاق طعم الجوع لم ينس إخوانه الفقراء المساكين.

والجود والكرم ليس محصوراً ببذل المال، بل هو أنواع، منه: بذل المال، وبذل العلم، وبذل الجاه في الشفاعة للناس وقضاء حوائجهم وهكذا، قال الحافـظ ابن رجب الحنبلي رحمه اللـه: «وكان جوده، بجميع أنواع الجود من بذل العمل، والمال، وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق من إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم»[2].

والكـرم والجود من صفـات المؤمنين الصالحين، قـال حبيش الثقفي: قعـدت مع أحمد بن حنبل، ويحيى بـن معين، والناس متوافرون فأجمعوا: أنهم لا يعرفون رجلاً صالحاً بخيلاً[3].

---

(١) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة (ص ٥٩٥ - رقم ٢٦١٦) في قطعة من حديث طويل، وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) لطائف المعارف (ص ١٧٣ - ١٧٤).
(٣) الآداب الشرعية (٣/ ٣١٣).





والكرم والسخاء من مكارم أخلاق العرب، وجاء الإسلام وزادها شدة، قال عروة بن الزبير: جاء الإسـلام وفي العرب بضع وسـتون خصلة، كلها زادها الإسلام شدة، منها قرى الضيف، ووفاء العهد، وحسن الجوار(١).

وعـروة بن الزبير نفســه إذا كان أيام الرطب ثلـم حائطه، وأذن للناس أن يدخلوا فيأكلوا ويحملوا(٢).

وهكذا سائر أئمة السلف أئمة يُقتدى بهم في الجود والكرم، قال محمد ابن سـيرين: «ما رأيـت بيتاً أكثر قرآنا وعلماً، وأوسـع خبزاً ولحماً من بيت ابن عباس رضي الله عنهما»(٣).

وكان الليـث بن سـعد كلما خرج مـن منزله، وجد ببابه مـن قَدم، قام له بالباب يسأله الشيء فيعطيهم، فجاء يوماً وقد كثروا، فرفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم لا يسعهم غيرك، ثم أعطاهم واحداً واحداً الدينار والحنطة إلى الدرهم(٤).

وقال أبو داود الطيالسـي: كان سـعيد بن أبي عروبة قد حبس نفسه على إخوانه، فكان الرجل يدخل وشـاة معلقة، فمن شـاء قطع وطبخ، ومن شاء

---

(١) الجود والسخاء (ص٢٨٠ - رقم ٥٩).
(٢) تاريخ ابن أبي خيثمة (٢/ ١٦٢ - رقم ٢٢٣٥).
(٣) الجود والسخاء للطبراني (ص٢٤٨ - رقم ٧).
(٤) الجود والسخاء (ص٢٥٩ - رقم ٢٣).




شوى، ومن احتاج إلى جُبّة أخذ جُبّة، ومن احتاج إلى قميص أخذ قميصاً، ومن احتاج إلى دراهم دخل إلى صندوق فأخذ من الكيس حاجته، لا أحد يقول: ما أخذت ولا ما أبقيت[1].

قال محمد بن عباد المهلبي: دخل أبي على المأمون فوصله بمئة ألف درهم، فلما قام من عنده تصدّق بها، فأخبر بذلك المأمون، فلما عاد إليه عاتبه في ذلك، فقال: «يا أمير المؤمنين! منع الموجود من سوء الظن بالمعبود، فوصله بمئتي ألف أخرى»[2].

والكرم يستر العيوب، قال الإمام الشافعي رحمه الله: «السخاء والكرم يُغطي عيوب الدنيا والآخرة بعد أن لا يلحقه بدعة»[3].

وهل ساد من ساد من أشراف العرب إلا بالجود والسخاء، قال عروة ابن الزبير: أدرك سعد بن عبادة ومناد يُنادي على أُطمه: من أحب شحماً ولحماً فليأت سعداً، ثم أدرك ابنه قيساً يُنادي بمثل ذلك.

قال: وقال سعد بن عبادة: اللهم هب لي حمداً، وهب لي مجداً، لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال، اللهم إنه لا يصلح لي القليل، ولا أصلح عليه[4].

---

(١) الجود والسخاء (ص٢٩١ - رقم ٨١).
(٢) السر المكتوم (ص ١٤٣).
(٣) الآداب الشرعية (٣/ ٣١٣).
(٤) الجود والسخاء (ص٢٥٥ - رقم ١٧).





قـال ابن القيم رحمه الله: «والسـخي قريب من اللـه تعالى، ومن خلقه، ومـن أهله، وقريب من الجنة، وبعيـد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من خلقه، بعيد من الجنة، قريب من النار، فجود الرجل يُحبِّبه إلى أضداده، وبخله يُبغِّضه إلى أولاده»[1].

عـن أبـي هريرة رضي الله عنـه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**قَـالَ اللهُ عز وجل: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَـإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَـابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ**»[2].

فهـذا الحديث فيـه تربية على مكارم الأخلاق وتهيئـة النفوس لاحتمال الأذى، والشريعة جاءت لتكميل مكارم الأخلاق وتتميم الفضائل كما قال النبي ﷺ: «**بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**»[3].

والشـرائع كلهـا متفقـة علـى تتميـم مـكارم الأخـلاق وتزكيـة النفوس والتحذيـر مـن الأخـلاق الردية، فعن ابن مسـعود رضي الله عنـه قال: قال رسـول الله ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى، إِذَا لَمْ تَسْتَحي فَافْعَلْ مَا شِئْتَ**»[4].

(١) الوابل الصيب (ص ٧٦).
(٢) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول: أنا صائم (ص٣٠٦ - رقم ١١٩٠٤).
(٣) رواه الحاكم (٢/ ٦١٣).
(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت (ص١٠٦٧ - رقم ٦١٢٠).

والعقـلاء كلهـم وحتى العرب فـي جاهليتهم وسـائر الأمم متفقون على استحسـان مـكارم الأخلاق ورعايتها، فهذا أبو سـفيان لما سـأله هرقـل عن صفات نبينـا ﷺ، صدق في أجوبته مع أنـه وقتها كان كافراً عـدوًّا للنبـي ﷺ وقال: «فَـوَ اللهِ لَـوْلَا الحَيَاءُ مِـنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَـيَّ كَذِباً لَكَذَبْتُ عَلَيهِ»[1].

قال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله[2]: «حسـن الخلق هذا هو مـادة الأخلاق الجميلة كلها، وقد اتفق الشـرع والعقل على حسـنه، ورفعة قدره، وعلو مرتبته».

وكان النبي ﷺ يفرح بمن تجمل بالأخلاق الجميلة أو طبعه الله عليها، فقد قال النبي ﷺ لأشـج عبدالقيس رضي الله عنه: «**فِيكَ خَصْلَتَانِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ**»[3].

وبيّـن النبـي ﷺ أن حسـن الخلق والسـمت هو مـن أجزاء النبـوة، فعن ابـن عباس رضـي الله عنهما قال: «إن الهدي الصالح، والسـمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[4].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدد الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (ص٢ - رقم ٧).
(٢) فتح الرحيم الملك العلام (ص١١٣).
(٣) رواه البخـاري، كتـاب الإيمـان، باب أداء الخمـس من الإيمان (ص١٢ - رقم ٥٣)، ومسـلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان (ص٣٠ - رقم ١١٨).
(٤) رواه البخـاري فـي الأدب المفـرد (٢/ ٤٢٤ - رقـم ٧٩١)، وأبو داود، كتـاب الأدب، باب في الوقار (ص٦٧٧ - رقم ٤٧٧٦)، وحسَّنه الألباني رحمه الله.

وحسن الخلق جماع الخير كله، فإنه يحمل الإنسان على أن يلزم حسن الخلق مع الله، ومع الناس، لذلك قال النبي ﷺ: «**الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ**»(١)، فكأنه حصر «**البر**» في حسن الخلق، مع أن وجوه البر كثيرة جداً، كما قال الله عز وجل: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[البقرة: ١٧٧]، فأراد النبي ﷺ في الحصر في قوله: «**الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ**» بيان مكانة حسن الخلق في الدين.

وبيّن النبي ﷺ التلازم بين كمال الإيمان وحسن الخلق فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً**»(٢). وحسن الخلق من أجل الطاعات، وهو من أسباب رفعة الدرجات في الآخرة، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَا مَنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ**»(٣).

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم (١١٢٠ - رقم ٦٥١٦).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٧٢)، وأبو داود، كتاب السُّنَّة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (ص٦٦١ - رقم ٤٦٨٢)، وصحَّحه ابن حبان (١/ ٣٥٠ - رقم ٤٧٩).
(٣) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (ص٦٧٩ - رقم ٤٧٩٩)، والترمذي، كتاب البر والصلة (ص٤٦٢ - رقم ٢٠٠٣).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَى الله سُبْحَانهُ وَتَعَالَى، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»** قَالُوا: بَلَى، قَالَ: **«أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً»**[1].

فحسن الخلق جمال وزينة، وحلية ما تجمل أحد بمثل ما تجمل بحسن الخلق، قال أبو حاتم ابن حبان رحمه الله[2]: «لا زينة أحسن من زينة الحسب، كما أن من أجمل الجمال استعمال الأدب، ولا حسب لمن لا أدب له[3] ومن كان من أهل الأدب ممن لا حسب له يبلغ به أدبه مراتب أهل الأحساب لأن حسن الأدب خَلفَ من الحسب».

والنبي ﷺ ذكر أن الإيمان ذو شعب، وذكر أعلاه وأدناه، وذكر من شعب الإيمان الحياء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً أَعْلَاهَا: قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»**[4].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[5]: «ولعل ذكر الحياء؛ لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان، فإن من استحيا من الله لتواتر

---

(١) رواه أحمد (١١/ ٣٤٧ - رقم ٦٧٣٥)، وصحّحه ابن حبان (١/ ٣٥٢ - رقم ٤٨٥).

(٢) روضة العقلاء (ص٢٢٢).

(٣) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورعَ كالكف، ولا حسب كحُسن الخلق» رواه ابن حبان (١/ ٢٢٨٩ - رقم ٣٦٢).

(٤) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (ص٥ - رقم ٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (ص٣٨ - رقم ١٥٢).

(٥) بهجة قلوب الأبرار (ص١٤٥).



نعمه، وسوابغ كرمه، وتجليه عليه بأسمائه الحسنى، والعبد – مع هذا كثير التقصير مع هذا الرب الجليل الكبير يظلم نفسه ويجني عليها – أوجب له هذا الحياء التوقِّي من الجرائم، والقيام بالواجبات المستحبات».

وقد تكلم العلماء في عبارات جامعة تجمع معاني حسن الخلق ومكارم الأخلاق، فمن أجمع ما قيل في ذلك ما قاله عبدالله بن المبارك رحمه الله[1]: «بسط الوجه، وبذل المعروف، وكفّ الأذى».

وقال الحسن البصري رحمه الله[2]: «حسن الخلق: الكرم، والبذلة، والاحتمال».

وأجمع من ذلك ما قاله ابن شيخ الحزاميين رحمه الله[3]: «تبديل الصفات المذمومة من الجبلة بأضدادها من الصفات المحمودة».

وأما وجوه التحلي بالأخلاق الجميلة وتحصيلها، فهي:

١ – الالتجاء إلى الله وسؤاله أن يطبعك على أحسن الأخلاق، ويجنبك منكراتها: فالله عز وجل هو الذي يهدي إلى أحسن الأخلاق، ويصرف عن سيئها، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**»[4].

(١) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (ص٤٦٣ – رقم ٢٠٠٥).
(٢) شرح منظومة الآداب (ص٢٠١).
(٣) مدخل أهل الفقه واللسان إلى ميدان المحبة والعرفان (ص٧١ – ٧٢).
(٤) رواه ابن حبان (٢/ ١٥٤ – رقم ٩٥٥).




وعن زياد بن علاقة عن عمه قال: كان النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَهْوَاءِ، وَالْأَسْوَاءِ، وَالْأَدْوَاءِ**»[1].

قال الشوكاني رحمه الله[2]: «استعاذ ﷺ من منكرات الأخلاق لأن الأخلاق المنكرة تكون سبباً لجلب كل شر ودفع كل خير، واستعاذ ﷺ من منكرات الأعمال لأنها إذا كانت منكرة فهي ذنوب، واستعاذ ﷺ من الأهواء لأنها هي التي تُوقع في الشر ويتأثر عنها من معاصي الله سبحانه كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]، وإذا كان الهوى يصيّر صاحبه باتباعه كالعابد له فكأنه إلهه فلا شيء في الشر أزيد من ذلك ولا أكثر منه، واستعاذ ﷺ من الأدواء وهي جمع داء وهو السقم الذي عرّض له الإنسان، وقد يُراد بذلك أدواء الدين والدنيا من جميع ما يضرّ بالبدن والدين».

٢ - **خلطة أهل الفضل والمروءات والمكارم**: فإن الإنسان بطبعه يتأَسَّى بما يشاهده من أخلاق غيره، ويتطبع بطباعهم، قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله[3]: «ومن طلب الْفَضَائِل لم يُسَايِر إِلَّا أَهلهَا، وَلم يرافق فِي تِلْكَ الطَّرِيق إِلَّا أكْرم صديق من أهل الْمُوَاسَاة وَالْبر والصدق وكرم الْعَشِيرَة وَالصَّبْر وَالْوَفَاء وَالْأَمَانَة والحلم وصفاء الضمائر وَصِحَّة الْمَوَدَّة».

(١) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب دعاء أم سلمة رضي الله عنها (ص٨١٨ - رقم ٣٥٩١)، وقال: حسن صحيح غريب، وابن حبان (٢/ ١٤٥ - رقم ٩٥٦).
(٢) تحفة الذاكرين (ص٢٨٣).
(٣) مداواة النفوس (ص١٨).





ومن هنا صارت قريش خيار العرب بسبب اختيارهم أحسن أخلاق سائر العـرب إذ اختلطوا بهم في الحج، قال أبو سـليمان الخطابي رحمه الله[1]: «بلغني عن بعض العلماء، أنه سُئل عن قريش، كيف صارت أفضل العرب قاطبة وإنما هي قبيلة من مضر؟ فقال: لأن دار قريش لم تزل موسـم الناس ومنسـك الحاج وكانت العرب تقصدها في كل عام لحجهم وتردها لقضاء نُسكهم فهم لا يزالون يتأملون أحوالهم ويراعونها فيختارون منها أحسن ما يشاهدونه ويتكلمون بأفصح ما يسمعون من كلامهم ويتخلَّقون بأحسن ما يرونه من شـمائلهم فصاروا أفضل العرب من قِبَل حُسن الاختيار الذي هو ثمرة العقل، فلما ابتعث الله تعالى نبيه ﷺ منهم تمّت لهم الفضيلة وكملت لهم به السيادة».

وقـال سـهل بن عبدالله التسـتري رحمه اللـه: «انظر ما استحسـنت من غيرك فالزمه، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه»[2].

٣ - القـرآن: فالقـرآن الذي أنزله الله فيه كل هداية وخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ۝٩﴾ الإسراء: ٩.

قال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله وهو يتحدث عن أوصاف القرآن[3]: «ووُصف بأنه كله صلاح، ويهدي إلى الإصلاح، وإلى أقوم الأمور

(١) العزلة (ص١٤٤).
(٢) الفوائد والحكايات (ص١٤٤).
(٣) تيسير اللطيف المنان (ص٨).






وأرشـدها في كل شـيء من دون اسـتثناء، وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شـيء، فهو إصـلاح للعقائد والقلوب، وللأخـلاق والأعمال، ويهدي إلـى كل صـلاح ديني ودنيوي بحيث تُقوّم به الأمـور، وتعتدل به الأحوال، ويحصـل بـه الكمال المتنـوع من كل وجه بالإرشـاد إلى كل وسـيلة نافعة تـؤدي إلى المقاصد والغايات المطلوبة، فلا سـبيل إلـى الهداية والصلاح والإصلاح لجميع الأمور إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها القرآن، وحثّ العباد عليها».

وهذه عائشـة رضي الله عنه تصف أخلاق النبي ﷺ وتقول: «كان خلقه القـرآن»[1]، قال أبو المظفر السـمعاني رحمه اللـه[2]: «أي: كان موافقاً لما نزل به القرآن».

قال الحافظ ابن رجـب الحنبلي رحمه الله[3]: «أنه تأدب بآدابه، وتخلّق بأخلاقه».

وقـال الأوزاعي رحمه الله[4]: «لم يزل للـه نصّاحاً من خلقه في أرضه، يعرضـون أعمـال العباد علـى القرآن، فبالقـرآن يعرفون هـدي من اهتدى، وضلالة من ضلَّ، أولئك خلفاء الله عز وجل في أرضه».

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل (ص٣٠١ - رقم ١٧٣٩).
(٢) تفسير القرآن (٦/ ١٨).
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧٠).
(٤) الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥١٠).





فالقـرآن إذا التـزم العبد بما فيه من أوامر واجتنب مـا فيه من زواجر فإنه يكون بذلك من خيار عباد الله خلقاً وسـمتاً وهدياً وأدباً، فالقرآن يزرع كل خلق فاضل.

قال الإمـام مالك رحمه الله[1]: «يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكـم؟ فـإن القـرآن ربيع المؤمن، كمـا أن الغيث ربيـع الأرض، وقد ينزل الغيث من السـماء فيصيب الحش فيكـون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضر وتحسـن، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟».

وقال الإمام أحمد رحمه الله[2]: «فمن أولى بحسن الخلق من قاريء القـرآن، ومـن أولـى بالنصفـة من نفسـه من قـاريء القرآن، ومـن أولى ببـر الوالدين من قـاريء القرآن، ومـن أولى بالفرائض كلهـا من قاريء القـرآن؟ لأن الدليـل معـه، فإن قبل منـه لـم يخطئه باب الجنة، ويُوشـك أن لا يفعـل لأن الله عز وجل يقـول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴿٣٠﴾﴾[النـور: ٣٠]، قـال: هـذا أريد، أنظـر إلى هذا أزدري بـه، وأنظر إلى هذا أسـتعظمه، وأنظر إلى محارم المسلمين فأتلذذ بالنظر، فإذا فعل فقد عصى الدليل».

---

(١) سير السلف الصالح (٣/ ٩٣٤).
(٢) الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥٠٩).




٤ - **الجبلة**: وهو أن يُطبع العبد بكريم الأخلاق، كما قال النبي ﷺ لأشج عبدالقيس رضي الله عنه: «**فِيكَ خَصْلَتَانِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ**»(١).

وما لم يُطبع عليه العبد من الأخلاق الجميلة فليجتهد في تحصيلها، فإنها بالممارسة مع الاستعانة بالله يتطبع العبد بها، لذلك قال النبي ﷺ: «**مَنْ يَتَصبَّر يُصبِّره الله، وَمَنْ يَسَتَعِف يُعفه الله**»(٢).

وجاء رجل وسأل النبي ﷺ أن يُوصيه، قال له: «**لَا تَغْضَبْ**»(٣)، وهذا يدّل على أنه في مقدور الملكلف اكتساب الأخلاق الحميدة، وإلا كان خطابه بذلك من التكليف بما لا يطاق(٤).

قال أبو بكر ابن أبي الدنيا رحمه الله(٥): «وليس ينبغي لذي الفهم إن قُصِّر به في هذه الخصال عن جمعها أن يُنافس في بعضها، ويتمسك بصالح ما وُهب له منها، فقد قال النبي ﷺ: «**إذا أحب الله عبداً منحه منها خُلقاً**»».

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (ص١١٢٢ - رقم ٥٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان (ص٣٠ - رقم ١١٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله (ص١١٢٢ - رقم ٦٤٧٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (ص١٠٦٦ - رقم ٦١١١).

(٤) المعين على تفهم الأربعين، لابن الملقن (ص١٦٩).

(٥) مكارم الأخلاق (٤٣٦).



فالشـريعة شـريعة يسـر، وهذا دال على سـهولة تحصيل أوامره سواء ما يتعلـق بالأخلاق والمعامـلات أو العبادات، قال العلامـة ابن الوزير رحمه اللـه[1]: «إن النفوس الخبيثة تستعسـر السـهل من الخيـر لنفرتها عنه وعدم رياضتها عليه، لا لصعوبته في نفسـه، ولهذا نجد أهل الصلاح يستسـهلون كثيراً مما يستعسـره غيرهم، فلو كان العسـر في نفس الأمر المشـروع لكان عسـيراً على كل أحد، وفي كل حال، وقد نصَّ الله تعالى على هذا المعنى فقال في الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥]، فدَّل على أن العسـر والحرج لا يكون في أفعال الخير، وإنما يكون في النفوس السـوء، قـال تعالـى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۝١٢٥﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فمدار المشـقة التي في الطاعات على الدواعي والصـوارف، ولهذا تجـد قاطع الصلاة يقوم نشـطاً إلى أعمال كثيرة أشـقّ من الصلاة، وقد يكون العسـر الموهوم في أعمال الخير من قساوة القلب، وكثـرة الذنوب، وعـدم الرياضة، وملازمة البطالة، ألا ترى ما في قيام الليل وإحيائه بالعبادة من المشـقة على النفوس، وهو يسهل عليها سهره في كثير من الأحوال في العرسات، والأسمار، والسروات في الأسفار، فإذا عرفت هـذا فاعلـم أن من الناس مـن يحصل له من شـدة الرغبة في العلم وسـائر الفضائـل ما يسـهل عليه عسـيرها، ويُقرب إليـه بعيدها، فلا يتعنى لتعسـير الأمر الشرعي في نفسه، لأن ذلك يخالف كلام الله وكلام رسوله ﷺ».

(١) الروض الباسم (ص١٣ – ١٤).




ثم قال[1]: «أما علمت أن حب المعالي يرخّص الغوالي، ويقوي ضعف الصدور على الصبر للعوالي»، وقال: «فإياك والاستبعاد لكل ما عزَّ عليك، والاستنكار لوجود ما خرج من يديك»[2].

نعم إنما يستبعد التخلق بالفضائل من حُرمها، قال العلامة الشوكاني رحمه الله[3]: «وَأما مُجَرّد استبعاد أَن يهب الله سُبْحَانَهُ لبعض عباده أمراً عَظِيما وَيُعْطِيه مَا تتقاصر عَنهُ قوى غَيره من الْمنح الجليلة، والتفضلات الجزيلة فَلَيْس مرادات المتصفين بالإنصاف. وَكَثِيراً مَا ترى الجبان إِذا حكيت لَهُ أَفعَال الْأَفْرَاد من أهل الشجَاعَة من مقارعة الْأَبْطَال، وملابسة الْأَهْوَال ومنازلة الْعدَد الْكثير من الرِّجَال يستبعد عقله ذَلِك ويضيق ذهنه عَن تصَوره ويظنه بَاطِلا، وَلَا سَبَب لذَلِك إِلَّا أن غريزته المجبولة على الْجُبْن الخالق تقصر عَن أقل قَلِيل من ذَلِك وتعجز عَن الملابسة لأحقر مِنْهُ.

وَهَكَذَا الْبَخِيل إِذا سمع مَا يحْكى عَن الأجواد من الْجُود بالموجود والسماحة بالكثير الَّذي تشح نفوس من لم يهب الله لَهُ غريزة الْكَرم المحمود بعشر معشاره ظن أَن تِلْكَ الحكايات من كذب الوراقين وَمن

(١) المصدر السابق (ص١٤).

(٢) المصدر السابق (ص١٥).

(٣) قطر الولي على حديث الولي للشوكاني (ص٢١٨).





مَخْرَقَـةِ الْمُمَخْرِقِين وَهَكَذَا من قل حَظه من المعارف العليمة، وَقصر فهمه عَـن إِدْرَاك الْفُنُـون المتنوعة اسـتبعد عقله، ونبا فهمه عَن قبُـول مَا منح الله بِـهِ أَكَابِر عُلَمَاء هَذِه الْأمة من التَّوَسُّـع فِي المعارف والاسـتكثار من الْعُلُوم الْمُخْتَلفَـة وفهمها كَمَا يُنْبغِي، وحفظها حـق الْحِفْظ، وَالتَّصرُّف الْكَامِل فِي كل مَا يرد عَلَيْهِ مِنْهَا فيورده موارده، ويصدره مصادره».

ولا شك أن استبعاد وجود الفضائل لمن فاته الاتصاف بها قبيح، وأقبح منه من نزَّل الفضائل والرذائل منزلة سواء، قال أبو الحسن الماوردي رحمه اللـه (ت: ٤٥٠)[1]: «وقـد قال بعـض البلغاء: أخبث الناس المُسَـاوي بين المحاسن والمساوئ؛ وعلة هذا أنهم ربما رأوا عاقلاً غير محظوظ، وعالماً غيـر مرزوق، فظنوا أن العلم والعقل هما السـبب في قلة حظه ورزقه. وقد انصرفـت عيونهـم عن حرمان أكثـر النوكى وإدبـار أكثر الجُهَّـال؛ لأن في العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سـمة. ولذلك قيل: العلماء غرباء لكثـرة الجهـال. فإذا ظهرت سـمة فضلهم وصادف ذلـك قلة حظ بعضهم تنوَّهـوا بالتمييز واشـتهروا بالتعيين، فصاروا مقصودين بإشـارة المتعنِّتين، ملحوظين بإيماء الشـامتين. والجهال والحمقـى لما كثروا ولـم يتخصصوا انصرفـت عنهـم النفـوس فلم يُلحـظ المحروم منهـم بطَرْفِ شـامت، ولا قُصد المحدود منهم بإشـارة عائب. فلذلك ظن الجاهل المرزوق أن الفقر

(١) أدب الدنيا والدين (ص٣٠).






والضيق مختص بالعلم، والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء، مع قلتهم، لوجدت الإقبال في أكثرهم. ولو اختبرت أمور الجهال والحمقى، مع كثرتهم، لوجدت الحرمان في أكثرهم. وإنما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظاً مشتهراً؛ لأن حظّه عجيب وإقباله مستغرب. كما أن حرمان العاقل العالم غريب وإقلاله عجيب».

ثم قال[1]: «على أن العلم والعقل سعادة وإقبال، وإن قل معهما المال، وضاقت معهما الحال. والجهل والحمق حرمان وإدبار وإن كثر معهما المال، واتسعت معهما الحال؛ لأن السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقي ومقل سعيد. وكيف يكون الجاهل الغني سعيداً والجهل يضعه. أم كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه؟».



(١) أدب الدنيا والدين (ص٣١).



الدرس الثامن والعشرون
أحكام زكاة الفطر والعيدين

زكاة الفطر أضيفت إلى الفطر؛ لأنها تجب بالفطر، وزكاة الفطر يُراد بها الصدقة عن البدن والنفس، ويُراد بها جبر الخلل في صيام العبد، وإغناء فقراء المسلمين عن الحاجة للطعام في يوم عيد المسلمين ليشاركوا المسلمين أفراحهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طُهرةً للصائم من اللغو، والرفث، وطعمة للمساكين(١).

وحكى إسحاق وابن المنذر وابن قدامة الإجماع على فرضيتها ووجوبها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير، على كل حر وعبد، ذكر وأنثى، من المسلمين. متفق عليه.

وأما من تجب عليه صدقة الفطر فهو الواجد لها الذي له قوت يوم العيد، وهذا واضح من قوله ﷺ: «**أَغْنُوهُمْ عَنِ السُّؤَالِ فِي هَذَا اليوم**»، فمن ليس له غناء ليلة العيد ويومه فهو محتاج أن تُبذل له زكاة الفطر لا أن يتكلف

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطرة (ص٢٣٨ - رقم ١٦٠٩)، وابن ماجه، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر (ص٢٦ - رقم ١٨٢٧)، والحاكم (١/ ٤٠٩)، والدارقطني وقال: ليس في رواته مجروح، وصحَّحه ابن الملقن في البدر المنير (٥/ ٦١٨)، وحسَّن إسناده المنذري كذلك، وابن قدامة في المغني (٤/ ٢٨٤)، والنووي في شرح المهذب (٦/ ١٢٦).

مفقوداً ليعطيه غيره، قال الإمام مالك رحمه الله: «من جاز له أخذ صدقة الفطر لم تلزمه»[1].

وقال الحافظ العراقي رحمه الله: «لم يُقيّد في الحديث افتراض زكاة الفطر باليسار، لكن لابد من القدرة على ذلك لما عُلم من القواعد العامة، وقد قال ابن المنذر: أجمعوا على أن لا شيء على من لا شيء له»[2].

وأما اليتيم فعامة أهل العلم يُوجبون زكاة الفطر عليه، ويخرجها عنه وليه من ماله، لم يخالف في ذلك إلا محمد بن الحسن حيث قال: «ليس في مال الصغير من المسلمين صدقة»، وقد ردَّ عليه العلماء قوله، قال ابن قدامة رحمه الله: «وعموم قوله: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر على كل حر وعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير، من المسلمين»، يقتضي وجوبها على اليتيم، ولأنه مسلم فوجبت فطرته كما لو كان له أب»[3].

وزكاة الفطر يُستحب إخراجها يوم الفطر قبل صلاة العيد، لأن النبي ﷺ أمر بها أن تُؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة، متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

---

(١) الاستذكار (٣/ ٥٨٨).
(٢) طرح التثريب (٤/ ٦٥).
(٣) المغني (٤/ ٢٨٣).

والصحابة كانوا يُعجّلون إخراج الزكاة قبل العيد بيوم أو يومين، ففي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كانوا يُعطون قبل الفطر بيوم أو يومين»، وتوسع بعض الفقهاء وجوَّز تعجيل زكاة الفطر بعد دخول شهر رمضان، وهذا قول خلف بن أيوب من أصحاب محمد ابن الحسن وهو قول الشافعي، وقال نوح بن أبي مريم يجوز تعجيلها في النصف الأخير من رمضان، وقال بعضهم في العشر الأخيرة، وهذا توسع غير محمود، والصواب أن الرخصة إنما تكون قبل الفطر بيوم أو يومين، وهو قول أحمد ومالك، وذلك لعدة أدلة:

١ - قول النبي ﷺ: «**مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلاةِ فِهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ**»[1].

٢ - إجماع الصحابة، فقد حكى ابن عمر رضي الله عنهما فعل الصحابة رضي الله عنهم فقال: «وكانوا يعطون قبل الفطر بيوم أو يومين»[2].

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «وهذه إشارة إلى جميعهم فيشبه الإجماع»[3].

(١) رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر (ص٢٣٨ - رقم ١٦٠٩).
(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر على الحر والمملوك (ص٢٤٥ - رقم ١٥١١).
(٣) التنبيه على مشكلات الهداية (٢/ ٨٨٨).




٣ – مقتضى التعليل والقياس، لأن النبي ﷺ قال: «**أَغْنُوهُم عَنِ السّؤالِ فِي هَذَا اليَوم**»، قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «يعني السؤال يوم الفطر، والفطر وإن كان شرطاً لكنه في قوة السبب، لأنها تضاف إليه، يقال: صدقة الفطر ويتكرر بتكرره وذلك أمارة السببية.

والمعنى المقصود منها إغناء الفقير عن السؤال يوم العيد، وهذا لا يحصل بالصدقة قبله بزمان طويل، ولا بالصدقة بعده، وإن كانت القربة فيها معقولة المعنى، وهي سدّ خلة المحتاج فالمراد إغناؤه عن السؤال يوم العيد»[١].

وزكاة الفطر واجبة على الإنسان بنفسه، ولو أخرجها الإنسان عمن يمونهم وبرضاهم وأعلمهم بذلك فلا بأس.

ويستحب إخراج زكاة الفطر عن الجنين بعد الشهر الرابع؛ لأنه نُفخت فيه الروح، وهو فعل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث كان يُعطي صدقة الفطر عن الصغير والكبير والحمل[٢].

وعلى هذا مضى الصحابة كما حكاه عنهم التابعون، قال أبو قلابة رحمه الله: «كان يعجبهم أن يعطوا زكاة الفطر عن الصغير والكبير حتى يعطوا عن الحبل في بطن أمه»[٣].

(١) المصدر السابق (٢/ ٨٨٩).
(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣/ ٢١٩)، وابن حزم في المحلي (٦/ ١٣٢).
(٣) رواه عبدالرزاق (٣/ ٣١٩ – رقم ٥٧٨٨)، وابن حزم في المحلى (٦/ ١٣٢).



وابـن حـزم رحمه الله يرى أن الجنين يقع عليه اسـم الصغير في حديث ابـن عمـر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ فـرض زكاة الفطر صاعاً من طعام على كل حرّ وعبد، وذكر وأنثى، وصغير وكبير من المسلمين»[1].

والواجـب في زكاة الفطـر صاع نبوي من غالب قوت أهـل البلد، وهذا واضـح من قول أبي سـعيد الخدري رضـي الله عنـه: «وكان طعامنا يومئذٍ التمر والزبيب والشعير والأقط»[2].

وزكاة الفطـر مصرفها للفقـراء فقط؛ لأنها زكاة عن البدن وليسـت زكاة مال ينمو، قال ﷺ في زكاة الفطر: «طُعمة للمسـاكين»، قال شـيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في فوائده: «نصَّ في أن ذلك حقا للمسـاكين»، وقال: «صدقة الفطر وجبت طعاماً للأجل لا للاستنماء»[3].

ولا يحسن إخراج زكاة الفطر نقداً، لعدة أمور:

١ – إن العبادات توقيفية.

٢ – إنه عمل ليس عليه أمر الله ورسوله، وفي صحيح مسلم من حديث عائشـة رضي الله عليها أن رسـول الله ﷺ قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**».

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب فرض صدقة الفطر (ص٢٤٤ – رقم ١٥٠٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين (ص٣٩٥ – رقم ٢٢٧٨).
(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل العيد (ص٢٤٥ – رقم ١٥١٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٧٥).




٣ - إن زكاة الفطر شعيرة ظاهرة، وإخراجها نقداً يفضي إلى تضييع هذه الشعيرة الظاهرة التي فرضها الشارع لحكمة.

٤ - إن النبي ﷺ قال في زكاة الفطر: «**طُعمة للمساكين**»، وإذا أُخرجت نقداً فقد يتمولها الفقير في غير الطعام فيضيع المعنى الذي من أجله فرض الشارع هذه الشعيرة.

٥ - إن زكاة الفطر تختلف عن زكاة المال، فزكاة الفطر طُهرة للبدن، وزكاة المال تجب عن القيمة ونصابها خمس وثمانون غراماً من الذهب، فلا يمكن إلغاء الفارق بين زكاة البدن وزكاة القيمة بإخراج زكاة الفطر نقداً، قال ابن قدامة رحمه الله: «وزكاة التجارة تجب عن القيمة، ولذلك تجب في سائر الحيوانات وسائر الأموال، وهذه طُهرة للبدن، ولهذا اختص بها الآدميون، بخلاف زكاة التجارة»(١).

٦ - إن الصحابة أهل تيسير وتوسعة في الأحكام ومراعاة لحظ الفقراء، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «كنا نُطعم الصدقة صاعاً من طعام»(٢).

٧ - الشارع نصَّ على الطعام وإخراج القيمة عدول عن المنصوص عليه، قال ابن قدامة رحمه الله: «إن النبي ﷺ فرض صدقة الفطر أجناساً معدودة، فلم يجز العدول عنها، كما لو أخرج القيمة وذلك لأن ذكر الأجناس بعد

(١) المغني (٤/ ٢٨٤).
(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر صاعٌ من شعير (ص٢٤٥ - رقم ١٥٠٥).



ذكره الفرض تفسير للمفروض، فما أُضيف إلى المُفَسَّر يتعلق بالتفسير، فتكون هذه الأجناس مفروضة فيتعين الإخراج منها، ولأنه إذا أخرج غيرها عدل عن المنصوص عليه، فلم يجز، كإخراج القيمة، وكما لو أخرج عن زكاة المال من غير جنسه»(١).

٨ - إن إخراجها طعاماً هو مقتضى القياس، فإن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كنا نُخرج في عهد رسول الله ﷺ يوم الفطر صاعاً من طعام، وكان طعامنا الشعير والزبيب والأقط والتمر»(٢).

فقول أبي سعيد رضي الله عنه: «وكان طعامنا» له دلالة واضحة في حصر زكاة الفطر في قوت البلد، فمقتضى القياس أن يُلحق بالشعير والزبيب والأقط والتمر ما كان قوتاً كالقمح والأرز لا النقد، قال ابن قدامة رحمه الله: «وأقيسهما أنه لا يجوز غير الخمسة، إلا أن يُعدمها، فيُعطي ما قام مقامها. وقال مالك: يخرج من غالب قوت البلد. وقال الشافعي: أيُّ قوتٍ كان الأغلب على الرجل، أدى الرجل زكاة الفطر منه»(٣).

٩ - إن إخراج زكاة الفطر صاعاً من طعام من غالب قوت أهل البلد مجزيء في قول جميع العلماء، وإن إخراجها نقداً مجزيء في قول نفر

(١) المغني (٤/ ٢٩٣).
(٢) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر صاعٌ من شعير (ص٢٤٥ - رقم ١٥٠٦).
(٣) المغني (٤/ ٢٩٢).




يسـير من الفقهاء كالحسن، وعمر بن عبدالعزيز، وأبي حنيفة رحمهم الله، والمسلم يستبرأ لدينه.

قـال أبو داود قيـل لأحمد وأنا أسـمع: أعطي دراهـم - يعني في صدقة الفطـر - قـال: أخـاف أن لا يُجزئه خلاف سُـنة رسـول اللـه ﷺ. وقال أبو طالـب: قال لي أحمد بن حنبـل: لا يعطي قيمته، قيل له: قوم يقولون، عمر ابن عبدالعزيز كان يأخذ بالقيمة، قال: يدعون قول رسول الله ﷺ ويقولون: قال فلان[١].

علـى أنه ينبغـي تحرير مذهب عمر بـن عبدالعزيز رحمه اللـه، فإنه كان يـرى أن زكاة الفطـر سُـنَّة نُسـخت بالـزكاة المفروضة، كما حـكاه عنه ابن الفرس الأندلسي رحمه الله[٢].

١٠ - تحديـد قيمة موحَّـدة في زكاة الفطر مع اختـلاف أثمان كل صاع من أنواعه من بر، وزبيب، وتمر، أو شـعير تحكّم بدون مستند شرعي، قال ابن الفرس الأندلسـي رحمه الله: «إيجـاب الصاع في زكاة الفطر من التمر والزبيب والبر والشعير مع تفاوت قيمتها غالباً، فهذا من أقوى الحجج على إبطال القيمة»[٣].

(١) المغني (٤/ ٢٩٥).
(٢) أحكام القرآن (٣/ ٦١٦).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٦٦).



صلاة العيد

يُسنّ أن يتجمل المسلم للعيد وأن يلبس أحسن الثياب، لأن عمر رضي الله عنه أخذ جُبة من استبرق وقال للنبي ﷺ ابَتعْ هذه تجمَّل بها للعيد والوفود، وأقرَّه النبي ﷺ في التجمل للعيد بأحسن الثياب، وإنما أنكر نوع الثوب وهو كونه حريراً[(١)].

وهذا يوم يُشرع فيه التوسعة على العيال وإظهار الفرح والسرور خصوصاً للنساء والصبيان، لأن النبي ﷺ أقام عائشة وراءه وجعل خدها على خده وجعلها تنظر لأهل الحبشة وهم يلعبون[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين»[(٣)].

والسُّنة أن يفطر يوم عيد الفطر قبل أن يذهب للمُصلى فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ويأكلهن وتراً[(٤)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب في العيدين والتجمّل فيه (ص١٥٣ - رقم ٩٤٨).
(٢) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب الحراب والدّرَق يوم العيد (ص١٥٣ - رقم ٩٤٩، ٩٥٠)، ومسلم، كتاب العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه (ص٣٥٦ - رقم ٢٠٦١).
(٣) فتح الباري (٢/ ٥٧١).
(٤) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب الأكل يوم الفطر قبل الخروج (ص١٥٣ - رقم ٩٥٣).




وكل هذا من المبادرة إلى الفطر استجابة لأمر الله حيث حرَّم صوم يوم العيد إجماعاً.

وتستحب التهنئة بالعيد بين المسلمين، ففي المحامليات عن جبير ابن نفير رحمه الله عنه قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقوا يوم العيد يقول بعضهم لبعض: تقبَّل الله منا ومنك. قال ابن حجر: «إسناد حسن»[(١)].

ولا ينبغي للمسلم أن يشتغل يوم العيد بشيء غير التأهب للصلاة والخروج إليها؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ فِي يَوْمِنَا هَذَا** - يوم عيد - **أَنْ نُصَلِّيَ**»[(٢)].

ويُسنّ التكبير من غروب الشمس ليلة العيد إلى خروج الإمام لخطبة العيد لقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقالت أم عطية رضي الله عنها: «كُنَّا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْرُجَ يَوْمَ العِيدِ، حَتَّى نُخْرِجَ البِكْرَ مِنْ خِدْرِهَا، حَتَّى نُخْرِجَ الحُيَّضَ، فَيَكُنَّ خَلْفَ النَّاسِ، فَيُكَبِّرْنَ بِتَكْبِيرِهِمْ، وَيَدْعُونَ بِدُعَائِهِمْ يَرْجُونَ بَرَكَةَ ذَلِكَ اليَوْمِ وَطُهْرَتَهُ»[(٣)].

(١) الفتح (٢/ ٥٧٥).
(٢) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب سنة العيدين لأهل الإسلام (ص١٥٣ - رقم ٩٥١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
(٣) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب إذا لم لها جلباب في العيد (ص١٥٧ - رقم ٩٨٠).



ووقت صلاة العيد بعد طلوع الشمس وارتفاعها قيد رمح وذهاب وقت الكراهية، وصلاة العيد ليس لها سُنَّة قبلها ولا بعدها فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خرج يوم الفطر فصلَّى ركعتين لم يُصلِّ قبلها ولا بعدها[1].

وصلاة العيد تُصلى جماعة بلا أذان ولا إقامة ولا قول «الصلاة جامعة»، تُصلى الصلاة ركعتين ثم يخطب الإمام خطبتي العيد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرجت مع النبي ﷺ يوم فطر، فصلى ثم خطب ثم أتى النساء فوعظهنَّ وذكَّرهن، وأمرهنَّ بالصدقة»[2].

وهناك تكبيرات زوائد في ركعتي صلاة العيد سوى تكبيرة الإحرام وتكبيرات الانتقال، فيكبر سبعاً في الأولى سوى تكبيرة الافتتاح والركوع، وخمساً في الثانية سوى تكبيرة النهوض وتكبيرة الركوع، قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «وهذا هو مذهب فقهاء المدينة السبعة، وعمر ابن عبدالعزيز، ومالك، وأحمد، ويحيى الأنصاري، والزهري، وإسحاق، والأوزاعي، والليث، وهو مروي عن أبي هريرة، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وابن عمر رضي الله عنهما، حكاه عنهم ابن المنذر في الإشراف،

(١) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب الصلاة قبل العيد وبعدها (ص١٥٩ - رقم ٩٨٦)، ومسلم، كتاب العيدين، (ص٣٥٦ - رقم ٢٠٥٧).
(٢) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد (ص١٥٧ - رقم ٩٧٩)، ومسلم، كتاب صلاة العيدين، باب كتاب صلاة العيدين (ص٣٥٤ - رقم ٢٠٤٥).




وابن قدامة في المغني، يزيد أحدهما على الآخر، إلا أن مالكاً وأحمد قالا: سبعاً في الأولى بتكبيرة الإحرام»[(١)].

والعمدة في ذلك حديث كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كبَّر في العيدين في الأولى سبعاً قبل القراءة، وفي الآخرة خمساً قبل القراءة، رواه الترمذي، وقال البخاري: «ليس في هذا الباب شيء أصحَّ من هذا، وبه أقول».

ويُسن أن يذهب لصلاة العيد من طريق ويرجع من طريق آخر، وذلك لإظهار شعائر الإسلام، وليشهد له الطريقان، وليتصدق على من فيهما، ولغيره من المعاني، فعن جابر رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا كان يوم عيد خالف الطريق»[(٢)].

ويُسن الاغتسال لصلاة العيد، قال ابن القيم رحمه الله: «صحّ الحديث فيه»[(٣)].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يغتسل لصلاة العيد، وكان النبي ﷺ يخطب في صلاة العيد قائماً على الأرض، ولم يكن هنالك منبر يرقى عليه[(٤)].

❊ ❊ ❊

(١) التنبيه على مشكلات الهداية (٢/ ٧٦٠).
(٢) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب مَن خالف الطريق إذا رجع يوم العيد (ص١٥٨ - رقم ٩٨٦).
(٣) زاد المعاد (١/ ٤٤١).
(٤) المصدر السابق (١/ ٤٤٥).



الدرس التاسع والعشرون
الشعائر بحقائقها لا برسومها وصورها

نحن على وشك أن نودّع هذه العبادة العظيمة التي هي أحد أركان الإسلام الخمسة، هذه العبادة التي لا تعود إلا مرةً واحدة كل عام.

نودع هذه العبادة ونرى حقّاً علينا أن نتأمل في معانيها وأسرارها العظيمة، ومقاصدها الكبيرة، وحقائقها التي يستشعرها من يعرف أن أحكام الله وعباداته إنما فرضها الله لحكمة.

فمن أعظم حكم هذه العبادة امتحان المكلف في فعلها ولزومها، لذلك نجد أن صوم رمضان من فروض الأعيان، فالمقصود فيه فعل العبد.

ومن أعظم مقاصد الصوم تحقيق التقوى، هذا الوصف الذي متى ما قام بالعبد فقد أخذ الله بناصيته لكل خير، ذلك أن التقوى تحمل على امتثال المأمور واجتناب المحظور، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾[البقرة: ١٨٣]، فمن أدى هذه العبادة على أساس إبراء الذمة فقط دون تلمح معانيها وأسرارها وحكمها فهذا مغبون، والسعيد من وقف على مقاصد الشريعة وأسرارها، ونظر هل قام بالعبادات على الوجه الذي تتحقق معه مقاصد الشريعة في هذه العبادات.




قال ابن القيم رحمه الله: «لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدَّتها وسَوْرتها، ويذكِّرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين.

وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرُّها في معاشها ومعادها، ويُسكّنُ كُلَّ عضو منها وكُلَّ قوةٍ عن جماحه وتُلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجُنَّة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعلُ شيئاً، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاته، وهو سِرٌّ بين العبد وربه لا يطَّلعُ عليه سواه، والعباد قد يطلَّعُون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمرٌ لا يَطَّلِعُ عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها





أفسـدتها، واسـتفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهـو من أكبـر العون على التقوى، كما قـال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقـرة: ١٨٣]. وقال النبي ﷺ: «**الصوم جنة**». وأمر من اشـتدت عليه شهوة النكاح ولا قُدرة له عليه بالصيام، وجعله وجاء هذه الشهوة.

والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودةً بالعقول السليمة والفطر المستقيمة، شرعه الله لعباده رحمةً بهم، وإحسانا إليهم وحميةً لهم وجُنَّة.

وكان هدي رسول الله ﷺ فيه أكمل الهدي، وأعظم تحصيل للمقصود، وأسهله على النفوس.

ولمـا كان فطـمُ النفـوس عـن مألوفاتهـا وشـهواتها مـن أشـقِّ الأمـور وأصعبها، تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطَّنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فنُقلت إليه بالتدريج»[1].

فالمقصـود هنـا أن ننظـر في أحوالنا ونحن نودع شـهر الصـوم، هل زاد إيماننا؟!

هل زادت طاعاتنا، وعباداتنا؟!

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٨ - ٣٠).






هل سلم المسلمون من شرورنا؟!

هل انفطمنا عن فضول الطعام والنظر والكلام والنوم؟!

فهـذه وغيرها مما هو مـن آثار الإيمان والصلاح والبـر والتقوى. فلكل شـيء حقيقة، والدعاوى لابد لها مـن بينات ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴿١٢٣﴾ ﴾ النساء: ١٢٣.

وقـد قال النبي ﷺ لحارثة: «**كَيْفَ أَصْبَحْـتَ يَا حَارِثُ؟**» قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنـاً بِاللـهِ عز وجل، قَالَ: «**انْظُـرْ مَا تَقُولُ، فَإِنَّ لِكُلِّ قَـوْلٍ حَقِيقَةً**»، قَالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ، عَزَفَتْ نَفْسِـي عَـنِ الدُّنْيَا، فَأَسْـهَرْتُ لِيَلِي، وَأَظْمَـأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّـي بِعَرْشِ رَبِّي عز وجـل بَارِزاً، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْـلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ، وَكَأَنِّـي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَعَاوَوْنَ فِيهَا، قَالَ: «**أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ الإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ**»[(١)].

وقـال الحافـظ ابن رجب الحنبلـي رحمه الله: «اعلم أنـه لا يتمّ التقرب إلـى الله تعالـى بترك هذه الشـهوات إلا بعد التقرب إليه بتـرك ما حرم الله في كل حال من الكذب والظلم والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم لهذا قال النبي ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[(٢)].

---

(١) رواه البزار (١/ ٢٦ - رقم ٣٢ - كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٣/ ٣٠٢)، وقد أفاض الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في ذكر طرقه في معرفة الصحابة (٢/ ٧٧٧ - ٧٧٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب مَن لم يدع قول الزور (ص٣٠٦ - رقم ١٩٠٣).



وفـي حديث آخـر: «**ليس الصيام من الطعام والشـراب إنمـا الصيام من اللغو والرفث**»، قال الحافظ أبو موسى المديني: على شرط مسلم.

قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام.

وقـال جابر: «إذا صمت فليصم سـمعك وبصرك ولسـانك عن الكذب والمحـارم ودع أذى الجـار، وليكن عليك وقار وسـكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء»[١].

إذاً حقيقـة الصيـام هـو تحقيـق التقوى، فتصـوم الجـوارح وتنكفّ عن المعاصـي وتنبعـث الجـوارح لطاعـة اللـه، قال الخليفـة الراشـد عمر ابن عبدالعزيـز رحمـه الله: «ليـس تقوى اللـه بصيام النهـار، ولا بقيـام الليل، والتخليـط فيمـا بين ذلك، ولكـن تقوى الله تـركك ما حرَّم اللـه، وأداء ما افترض الله، فمن رزُق بعد ذلك خيراً، فهو خير إلى خير»[٢].

نعـم حقيقة التقـوى هو حفظ الجـوارح عما حرم اللـه ولزومها طاعته، وفي حديث ابن مسـعود رضي الله عنه المرفوع: «**الِاسْـتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَتَحْفَظَ البَطْنَ وَمَا حَوَى**»[٣].

---

(١) لطائف المعارف (ص١٦٣ - ١٦٤).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٠).

(٣) رواه أحمـد (١/ ٣٨٧)، والترمـذي، كتاب صفة القيامة، باب في بيان ما يقتضيه الاسـتحياء من الله حق الحياء (ص٥٦٠ - رقم ٢٤٥٨)، وقال: غريب.




قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه[1]: «وحفظ الرأس وما وعى يدخل فيه حفظُ السَّمع والبصر واللسان من المحرمات، وحفظُ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عَنِ الإصرار على محرم. قال الله عز وجل: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ ﴿٢٣٥﴾﴾ البقرة: ٢٣٥، وقد جمع الله ذلك كُلَّه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

ويتضمن أيضاً حفظُ البطنِ من إدخال الحرام إليه من المآكل والمشارب. ومِـنْ أعظم ما يجبُ حفظُه من نواهي الله عز وجل: اللسـانُ والفرجُ، وفي حديـث أبـي هريرة رضـي الله عنه، عن النَّبـيِّ ﷺ، قال: «**مَنْ حَفِـظَ ما بَينَ لَحييه، وما بَينَ رِجليهِ، دَخَلَ الجنة**»[2].

فالمقصـود من العبـادات والطاعات حقائقها وروحهـا وليس صورها، قـال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: ٣٧].

قـال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله: «وهكذا سـائر العبادات إن لـم يقترن بهـا الإخلاص وتقوى الله كانت كالقشـور الـذي لا لبَّ فيه، والجسد الذي لا روح فيه»[3].

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٦٣ - ٤٦٤).
(٢) رواه الترمـذي، كتـاب الزهـد، باب ما جاء في حفظ اللسـان (ص٥٤٨ - رقـم ٢٤٠٩)، ورواه البخـاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسـان (ص١١٢٣ - رقم ٦٤٧٤)، من حديث سـهل ابن سعد عن رسول الله قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة».
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٢٦).

وقال ابن القيم رحمه الله مبيّناً ما في وعظ النبي ﷺ من الحقائق وما في خطب غيره من الرسوم دون الحقائق: «ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد، وذكر صفات الرب جل جلاله، وأصول الإيمان الكلية، والدعوة إلى الله، وذكر آلائه تعالى التي تُحبّبه إلى خلقه، وأيامه التي تُخوِّفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يُحبِّبهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره، وذكره ما يحببهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبُّوه وأحبهم، ثم طال العهد وخفي نور النبوة، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تُقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها وزيَّنوها بما زينوها به، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها وأخلُّوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصَّعوا الخطب بالتسجيع والفِقر، وعلم البديع، فنقص بل عَدِمَ حظُّ القلوب منها، وفات المقصود بها»[1].

والآن أنت يا عبدالله ارتاضت نفسك على طاعة الله وعبادته من صيام وقيام وتلاوة قرآن واعتكاف وعمرة وصدقة وزكاة، فاستصحب هذه الطاعات بعد رمضان، فإن مقصود الصيام أن تلين وتخبت لله عز وجل وأن تترك فضول الكلام والطعام والنظر والنوم الذي يثقل البدن ويصيبه بالخمول والكسل ويصرفه عن استباق الخيرات وفعل الطاعات. فلا تكن

(١) زاد المعاد (١/ ٤٢٣ - ٤٢٤).

مـن أهل التعبد المقيد، الذي يكون عبداً شكوراً في رمضان، فإذا انقضى رمضـان أسـرف وضيّـع وودع بعـض أو كل الطاعات، بل كـن ربانيّاً تلتزم طاعة الله على الدوام.

قـال ابن القيم رحمه الله: «وهؤلاء هـم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهـم أهـل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النـوع الذي تعلّق به من العبـادة وفارقه يرى نفسـه كأنه قد نقـص وترك عبادته، فهـو يعبد الله على وجـه واحـد، وصاحب التعبد المطلـق ليس له غرض في تعبـد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليهـا، واشـتغل بهـا حتى تلوح لـه منزلة أخـرى، فهذا دأبه في السـير حتى ينتهي سـيره، فـإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيـت العُبَّاد رأيته معهم، وإن رأيـت المجاهديـن رأيته معهـم، وإن رأيت أربـاب الجمعية وعكوف القلـب علـى اللـه رأيتـه معهم، فهـذا هو العبـد المطلـق، الذي لـم تملكه الرسـوم، ولم تقيّـده القيود، ولـم يكن عمله على مراد نفسـه ومـا فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه، ولو كانت راحة نفسـه ولذتها في سـواه، فهـذا هو المتحقـق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] حقاً، القائم بهما صدقاً، ملبسـه ما تهيأ، ومأكله ما تيسـر، واشـتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسـه حيث انتهـى به المكان ووجده خالياً، لا تملكه إشـارة، ولا يتعبده قيد، ولا يسـتولي عليه رسـم، حر مجرد، دائر



مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلبت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها، فواهاً له! ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه![1] والله المستعان، وعليه التكلان».

والحقيقة الكبرى التي لا تغيب عن العارفين بالله هو سرعة زوال الدنيا ومفارقة أهلها لها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴿١٨٤﴾ ﴾[البقرة: ١٨٣ - ١٨٤]، فالعارف بالله هو الذي عمَّر وقته بطاعة الله وفي الأيام المعدودات، ولم يُقدّم عليها لذات المعاصي والمحرمات، فهذه اللذات أشبه ما تكون بالطعام المسموم التي تُهلك من تعاطاها.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «إن لَذَّاتِ الذنوبِ لا نسبةَ لها إلى ما فيها من الآلام والمفاسد ألبتةَ فإنَّ لذاتها سريعةُ الانقضاءِ وعقوباتِها

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٨ - ٧٩).




وآلامِها أضعافُ ذلك ولهذا قيل: «إن الصبرَ عن المعاصِي أهونُ من الصبرِ على عذابِ الله».

وقيـل: «رُبَّ شـهوةِ سـاعة أورثتْ حزناً طويـلاً»، وما فـي الذنوبِ من اللذاتِ كما في الطعام الطيبِ المسموم من اللذةِ، مغمورة بما فيه المفسدةِ، ومؤثـرُ لـذة الذنـبِ كمؤثر لذة الطعـامِ المسـمومِ الذي فيه من السـموم ما يمرضُ أو يقتلُ.

ومـن هاهُنـا يُعلمُ: أنـه لا يُؤثِرُ لـذاتِ الذنوبِ إلا من هـو جاهل بحقيقةِ عواقِبهـا، كما لا يؤثرُ أكلَ الطعامِ المسـمومِ للِذَّتِـهِ، إلا من هو جاهل بحالهِ أو غير عاقل، ورجاؤه التخلصَ من شـرها بتوبةٍ أو عفو أو غيرِ ذلك كرجاءِ آكلِ الطعامِ المسـمومِ الطيب للخلاصِ من شـرِّ سُمِّه بعلاج أو بغيره، وهو فـي غايـةِ الحمقِ والجهلِ، فقـدْ لا يتمكنُ من التخلصِ منـه بالكليةِ، فيقتلُهُ سمّه، وقد لا يتخلصُ منه تخلصاً تاماً فيطولُ مرضُهُ، وكذلكَ المذنبُ قد لا يتمكـنُ مـن التوبةِ، فإنَّ من وقعَ في ذنبٍ تجرَّأ على غيره وهان عليه خوضُ الذنوبِ وعَسُـرَ عليه الخلاصُ منها ولهـذا قيل: «من عقوبةِ الذنب: الذنبُ بعـدَهُ». وقد دلَّ على ذلك القرآنُ في غيرِ موضع، وإذا قُدِّرَ أنه تابَ منه فقدْ لا يتمكنُ من التوبةِ النصوح التي تمحو أثرَه بالكليةِ، وإنْ قدِّر أنه تمكنَ من ذلـكَ، فلا يقاومُ اللـذةَ الحاصلةَ بالمعصيةِ ما في التوبةِ النصوح المشـتملةِ على النَّدمِ والحزنِ والخوفِ والبكاءِ وتجشـم الأعمالِ الصالحةِ؛ من الألـم

والمشـقةِ، ولهذا قال الحسـنُ: «تركُ الذنبِ أيسـرُ من طلبِ التوبةِ، ويكفي المذنبُ ما فاته في حالِ اشـتغالِهِ بالذنوبِ من الأعمـالِ الصالحةِ الَّتي كانَ يمكنهُ تحصيلَ الدرجاتِ بها»»(١).

والتنبيـه على الحقائق الكبرى منهج نبـوي كان يقوم به النبي ﷺ ليكون إسلامنا حقيقيّاً لا مجرد التوسم به.

فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**»(٢).

قـال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمـه الله: «ذكر فـي هذا الحديث كمال هذه الأسـماء الجليلة التي رتب الله ورسـوله ﷺ عليها سعادة الدنيا والآخرة، وهي الإسلام والإيمان، والهجرة والجهاد. وذكر حدودها بكلام جامع شامل، وأن الْمُسلِمُ مَنْ سَلَمَ الْمُسلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ.

وذلك أن الإسلام الحقيقي: هو الاستسلام لله، وتكميل عبوديته والقيام بحقوقـه، وحقوق المسـلمين. ولا يتم الإسـلام حتى يحب للمسـلمين ما يحب لنفسه، ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شرّ لسانه وشرّ يده. فإن هذا أصل هذا الفرض الذي عليه للمسلمين.فمن لم يسلم المسلمون من لسانه

(١) مجموع رسائل ابن رجب (٢/ ٧٩٦).
(٢) رواه البخـاري، كتـاب الإيمـان، باب المسـلم من سَـلِمَ المسـلمون من لسـانه ويـده (ص٥ – رقم١٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام (ص٤٠ – رقم ١٦٢).




أو يده كيف يكون قائماً بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين؟ فسلامتهم من شره القولي والفعلي عنوان على كمال إسلامه.

وفسر المؤمن بأنه الذي يأمنه النـاس على دمائهم وأموالهم، فإن الإيمان إذا دار فـي القلب وامتلأ به، أوجب لصاحبـه القيام بحقوق الإيمان التي من أهمها: رعاية الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دمائهم وأموالهم. ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه، وأمنوه على دمائهم وأموالهم، ووثقوا به، لما يعلمون منه مراعاة الأمانات، فإن رعاية الأمانة من أخصّ واجبات الإيمان، كما قال ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**».

وفسَّـر ﷺ الهجـرة التـي هي فـرض عيـن على كل مسـلم بأنهـا هجرة الذنـوب والمعاصي. وهذا الفرض لا يسـقط عـن كل مكلف في كل حال مـن أحوالـه؛ فإن الله حـرّم على عباده انتهـاك المحرمـات، والإقدام على المعاصـي. والهجرة الخاصة التي هي الانتقال مـن بلد الكفر أو البدع إلى بلد الإسـلام والسُّـنة، جزء من هذه الهجرة، وليسـت واجبة على كل أحد، وإنما تجب بوجود أسبابها المعروفة.

وفُسـر المجاهد بأنه الذي جاهد نفسـه على طاعة الله؛ فإن النفس ميَّالة إلى الكسـل عـن الخيـرات، أمَّارة بالسـوء، سـريعة التأثر عنـد المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد فـي إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها



عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها على الصبر عند المصائب، وهذه الطاعات: امتثال المأمور، واجتناب المحظور، والصبر على المقدور.

فالمجاهد حقيقة: من جاهدها على هذه الأمور لتقوم بواجبها ووظيفتها.

ومن أشرف هذا النوع وأجلّه: مجاهدتها على قتال الأعداء، ومجاهدتهم بالقول والفعل فإن الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين.

فهذا الحديث من قام بما دل عليه فقد قام بالدين كله: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، وهجر ما نهى الله عنه، وجاهد نفسه على طاعة الله**»، فإنه لم يبق من الخير الديني والدنيوي الظاهري والباطني شيئاً إلا فعله، ولا من الشر شيئاً إلا تركه. والله الموفق وحده»[(١)].

والنصوص كثيرة في توجيهنا للأخذ بالحقائق لا بالرسوم، من ذلك قوله ﷺ: «**لَيسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغنى غِنَى النَّفْس**»[(٢)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص١٤ – ١٦).
(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس (ص١١١٩ – رقم ٦٤٤٦)، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل القناعة (ص٤٢٢ – رقم ٢٤٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وكذلك الحج، فالحج مقاصده عظيمة ليس هو مجرد السير بالراحلة والوقوف بالمشاعر وقوفاً مجرداً عن سير القلب إلى الله، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[١]: «ما الشأن فيمن سار ببدنه، إنما الشأن فيمن قعد بدنه وسار بقلبه حتى سبق الركب».

وقال بعض العارفين[٢]: «سير القلوب أبلغ من سير الأبدان، كم من واصل ببدنه إلى البيت وقلبه منقطع عن رب البيت؟! وكم من قاعد على فراشه في بيته وقلبه متصل بالمحل الأعلى».

ومن انقطع قلبه عن ربه فذاك المبخوس المحروم الذي أضاع أسباب نجاته وسعادته، قال ابن القيم رحمه الله[٣]: «وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعته حظها ونصيبها من الله، وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيّع من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض:

---

(١) لطائف المعارف (ص٤٤٩)، ط - بيت الأفكار.
(٢) المصدر السابق (ص٤٧٣).
(٣) الجواب الكافي (ص١٠٨)، ط - مكتبة المعارف.

من كل شيء إذا ضيّعته عوض ❊ ❊ ❊ وما من الله إن ضيّعته عوض

فالله سبحانه يُعوَّض عن كل ما سواه ولا يعوض منه شيء، ويغني عن كل شيء ولا يغني عنه شيء، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء، ويمنع من كل شيء ولا يمنع منه شيء، فكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه».

❊ ❊ ❊




الدرس الثلاثون
نسأل الله القبول وحفظ الطاعة ولزوم الاستقامة

هـا نحن أوشـكنا على وداع رمضان، هذا الشـهر الـذي كان ينتظره أهل الخيـر والطاعـة والعبـادة لمـا يعلمـون حقيقة ما فيـه من نـزول الرحمات ومـا يسّـره الله فيه لأهل الخير مـن الإقبال عليه والتأله لـه بأنواع العبادات والطاعات.

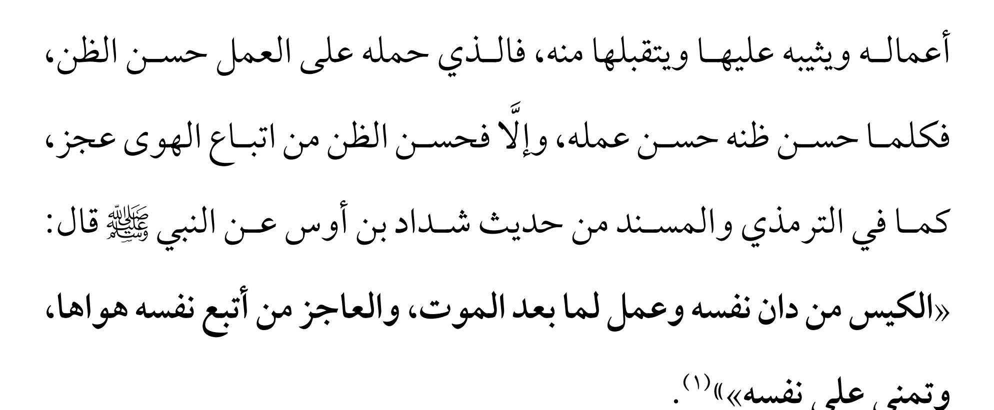
هذا الشـهر الذي نسـأل الله أن يتقبل منا صيامنا وقيامنا وتلاوتنا للقرآن وصدقاتنا وزكاتنا وسائر طاعاتنا، فالمؤمن مشفق ولو أحسن العمل، فكيف إذا قصَّر وفرَّط؟!!

قال الحسـن البصري رحمه الله: «إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً»[1].

فهـذا شـأن المؤمن يُحسـن العمل ويُحسـن الظن بربـه أن يتقبل أعماله الصالحـة ويتجـاوز عن سـيئاته، أما المغرورون فيسـيئون العمـل ويمنّون أنفسهم بالأماني الكاذبة.

قال ابن القيم رحمه الله: «إن حسـن الظن بالله هو حسـن العمل نفسه، فـإن العبـد إنما يحمله على حسـن العمل حسـن ظنه بربـه أن يجازيه على

(١) ابن كثير (٥/ ٤٨٠).


أعمالـه ويثيبه عليهـا ويتقبلها منه، فالـذي حمله على العمل حسـن الظن، فكلمـا حسـن ظنه حسـن عمله، وإلَّا فحسـن الظن من اتبـاع الهوى عجز، كمـا في الترمذي والمسـند من حديث شـداد بن أوس عـن النبي ﷺ قال: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على نفسه**»[1].

فالمؤمنـون جاهدوا أنفسـهم في شـهر الطاعة لما يرجونـه من الثواب، فهذا من الثقة بالله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠].

قـال ابـن القيـم رحمـه اللـه: «ملاحظـة حسـن الجـزاء، وعلـى حسـب ملاحظتـه والوثوق بـه ومطالعتـه يخفّ حمل البلاء، لشـهود العـوض، وهـذا كمـا يخف علـى كل متحمـل مشـقة عظيمـة حملها، لمـا يلاحظـه مـن لـذة عاقبتهـا وظفـره بهـا. ولـولا ذلـك لتعطلـت مصالـح الدنيـا والآخـرة. ومـا أقدم أحـد على تحمـل مشـقة عاجلة لثمـرة مؤجلـة، فالنفـس موكلة بحـب العاجل، وإنما خاصـة العقل: تلمـح العواقـب، ومطالعـة الغايـات»[2].

---

(١) الجواب الكافي (ص٣٧).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٣٨).




وهـذا الكلام مـن ابن القيم رحمـه الله بذكر الثمـرة المؤجلة ليس على سـبيل الحصر كمـا هو معلوم من سـائر كلامـه، وإنما أراد الثمـرة الكبرى والراحـة العظمـى، وإلا فإن المؤمـن يجد ثمرات عاجلة فـي دنياه لعباداته وطاعاتـه كمـا قـال تعالـى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴿٩٧﴾ ﴾[النحل: ٩٧]، قـال الحافـظ ابـن رجـب الحنبلي رحمـه الله: «وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن»(١).

ومن أعظم ما يكون من الثمرات العاجلة التي يجتنيها المسلم من طاعاته وعبادته هو الاستلذاذ بحلاوة الإيمان.

قال شـيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمه الله: «وجـود المؤمن حلاوة الإيمـان فـي قلبـه وذوق طعـم الإيمان أمـر يعرفه من حصـل له هذا الوجـد. وهذا الـذوق، أصحابه فيـه يتفاوتون، فالـذي يحصل لأهل الإيمـان عنـد تجريـد التوحيـد قلوبهـم إلى اللـه وإقبالهـم عليه دون ما سـواه بحيـث يكونون حنفـاء لـه مخلصين له الدين، وهـذا حقيقة الإسـلام الـذي بعـث اللـه بـه الرسـل وأنـزل بـه الكتب وهـو قطب القـرآن الـذي تـدور عليـه رحـاه. واللـه أعلـم»(٢).

(١) مجموع رسائل ابن رجب (١/ ٩١).
(٢) الآداب الشرعية (١/ ٦٢٥).





ودعنا رمضان وكلنا وجلون، خائفون لا ندري ما الذي قبله الله عز وجل من أعمالنا كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا عبدالرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة رضي الله عنها؛ أنها قالت: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠]، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يُصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل**».

وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم، من حديث مالك بن مغول، به بنحوه.

وقال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يُقبل منهم»»[1].

والشأن بعد انقضاء رمضان في أمرين مهمين:

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٨٠).






الأول: حفظ الطاعة، فأنت يا عبدالله قد جهدت نفسك وأسهرت ليلك فاحفظ أجر هذه الطاعات عن أن تذهب لغيرك، فلا تضرب ولا تشتم هذا، ولا تغتب أحدا، فحسنات أتت بجهد كبير فلا تهديها ولا تهدرها بسهولة لغيرك، كن عاقلاً وألجم نفسك واحترز من رعونات النفس وفلتات اللسان والجهل والسفه بغير الحق.

كذلك احذر الذنوب والمعاصي مطلقاً حتى لا تأكل حسنات أعمالك الصالحة، فإنه كما أن الحسنات يذهبن السيئات كذلك السيئات تأكل الحسنات.

قال ابن القيم رحمه الله: «ومحبطات العمل ومفسداتها أكثر من أن تُحصر، وليس الشأن في العمل، إنما الشأن في حفظ العمل مما يُفسده ويُحبطه»(1).

الثاني: المحافظة على ما اعتدته من الخير: فأنت يا عبدالله، وفقك الله لأنواع من الطاعات كالصيام والقيام وتلاوة القرآن فداوم على فعلها وحافظ عليها ولا تضيّع هذا الخير، لأي شيء تتركه وتضيّعه؟!!

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [النحل: ٩٢]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله: «لأن الإنسان

(١) الوابل الصيب (ص٢٠).

إذا اعتاد الخير وعمل به ثم تركه، فإن هذا يؤدي إلى الرغبة عن الخير، لأن الرجوع بعد الإقدام شر من عدم الإقدام»[1].

فلزوم الطاعة والمداومة عليها هو من شكر الله الذي يسر لك فعلها وأداءها، وتركها وتضييعها هو كفران لهذه النعمة، قال النبي ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيِ ثُمَّ نَسِيَه فَلَيسَ مِنَّا**»[2]، وفي رواية: «**فَهِيَ نِعْمَة جَحَدَهَا**»[3].

وتضييع الطاعات بعد الاهتداء إليها ولزومها هو من مشابهة أهل الكتاب الذي ملُّوا الطريق وفتروا عما يرجوه المؤمنون من لقاء الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحلَّ إيمانهم وزال إيقانهم»[4].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٥٦).
(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي (ص٨٥٧ – رقم ٤٩٤٩).
(٣) رواه الطبراني في الأوسط.
(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص١٠٠٠).




فالمقصود الاستقامة، وقد عرَّفها ابن القيم رحمه الله تعريفاً جامعاً فقال: «هي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال»، وقال أيضاً في معناها: «الاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله»[1].

وانظر إلى نصيحة النبي ﷺ لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «**لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَان كَانَ يَقومُ اللَّيلَ ثُمَّ تَرَكَه**».

فإن قلت: كيف ذمَّ الرجل على ترك قيام الليل مع أنه ليس بفرض أصلاً؟ فالجواب: أنه بشروعه فيه ولزومه ودوامه عليه أخذ مأخذ الالتزام، فتركه هكذا بعد ذلك بدون عذر قبيح، لذلك قال الشاطبي رحمه الله: «... أن تأخذ مأخذ الملتزمات؛ كالرجل يتخذ لنفسه وظيفة راتبة من عمل صالح في وقت من الأوقات، كالتزام قيام حظ من الليل مثلا، أو صيام يوم بعينه لفضل ثبت به على الخصوص؛ كعاشوراء وعرفة، أو يتخذ وظيفة من ذكر الله بالغداة والعشي.. وما أشبه ذلك.

فهذا الوجه أخذت فيه التطوعات مأخذ الواجبات من وجه؛ لأنه لما نوى الدُّؤُب عليها في الاستطاعة؛ أشبهت الواجبات أو السنن الرَّاتبة؛ كما

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٨٨).



أنه لما كان ذلك الإيجاب غير لازم بالشرع؛ لم يصر واجباً؛ إذ تركه أصلاً لا حرج فيه في الجملة؛ أعني: ترك الالتزام، ونظيره عندنا النوافل الراتبة بعد الصلوات؛ فإنها مستحبة في الأصل، ومن حيث صارت رواتب؛ أشبهت السنن والواجبات»[1].

فالله عز وجل أمر بلزوم طاعته وإجابة داعيه إلى حين الوفاة ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[الحجر: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴿١١٢﴾ ﴾[هود: ١١٢]، وعن سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت يا رسول! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: «**قُل: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»[2].

فسلعة الله غالية، سلعة الله الجنة، تحتاج إلى عمل، وصبر على العمل حتى نوافي الله عز وجل وهو راضٍ عنا قال: محمد بن المنكدر رحمه الله: «كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت»[3]. فالنفس تحتاج إلى إخلاص العمل لله، وتجريد المتابعة للنبي ﷺ، قال ابن القيم رحمه الله: «فإن الصراط المستقيم يتضمن: علوماً، وإرادات، وأعمالاً، وتروكاً ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر

(١) الاعتصام (٢/ ١٣٩).
(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام (ص٣٩ - رقم ١٥٩).
(٣) سير السلف (٣/ ٩٢٦).




عليـه، وقد لا يقـدر عليه، وهو الصراط المسـتقيم وإن عجز عنه، وما يقدر عليه قد تريده وقد لا تريده كسلاً وتهاوناً، أو لقيام وغير ذلك، وما تريده قد يفعلـه وقـد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم فيه بشـرط الإخلاص وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشرط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم، وما يقـوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه، وهذا كله واقع سـار في الخلق، فمستقل ومستكثر.

وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك، بل متى وُكل إلى طباعه حيل بينه وبيـن ذلك كله، وهذا هو الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم، فأعادهم إلى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم»[1].

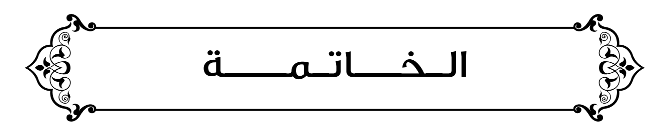
فالسعيد من لزم الطاعة حتى يوافي ربه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والحمد لله رب العالمين.



(١) الجواب الكافي (ص١٨٢).





الخاتمة

تلك هي أهم الدروس المستفادة من شهر رمضان شهر الصيام، والسعيد والموفَّق من قدر المواسم حقّ قدرها، والمغبون من استوت عنده الأيام، وأعظم الناس غبناً وخسراناً من كانت أحواله ردية في الأيام المرضية.

والدنيا حرث الآخرة، و«**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها**» كما قال النبي ﷺ(١).

والإنسان على نفسه بصيرة فهو يعرف من أي طبقة كان ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢].

فهنيئاً لمن استبق الخيرات في رمضان، وهنيئاً لمن لزم ما ارتاضت جوارحه من صيام وقيام وتلاوة قرآن وسائر الطاعات في سائر أيام السنة، وهنيئاً لمن زاد في الهدى والتقوى، وهنيئاً لمن بالغ في الاجتهاد في تحقيق وصف العبودية.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (ص١١٤ - رقم ٥٣٤)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

فالحمد لله وحده على توفيقه وتيسيره لكل خير وطاعة، وأسأله سبحانه القبول، وأستغفره من التقصير والخلل والزلل.

والحمد لله رب العالمين

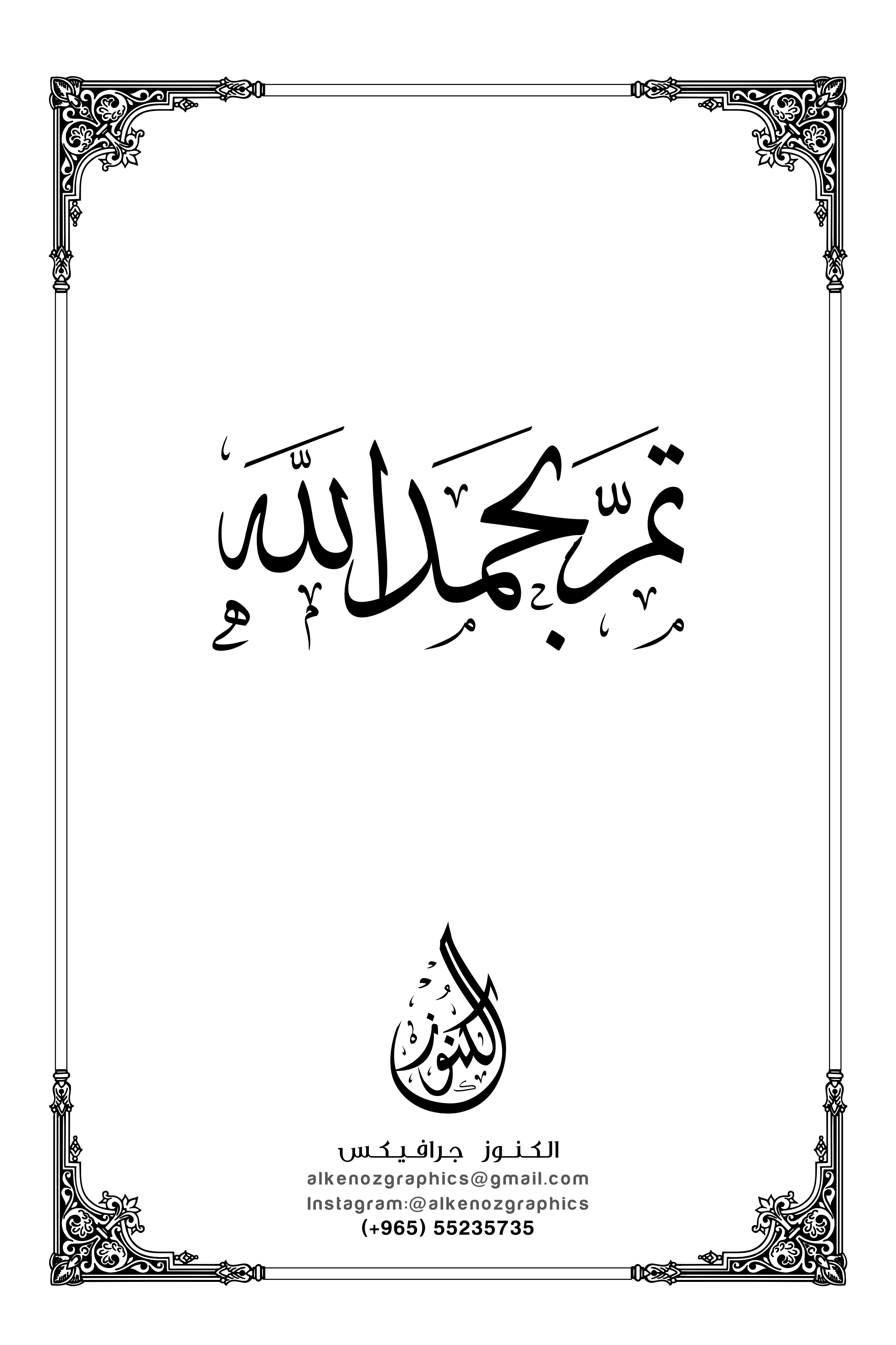
❊ ❊ ❊

دليل الموضوعات




❋ ❋ ❋




تم بحمد الله
الكنوز
الكنوز جرافيكس
alkenozgraphics@gmail.com
Instagram:@alkenozgraphics
(+965) 55235735